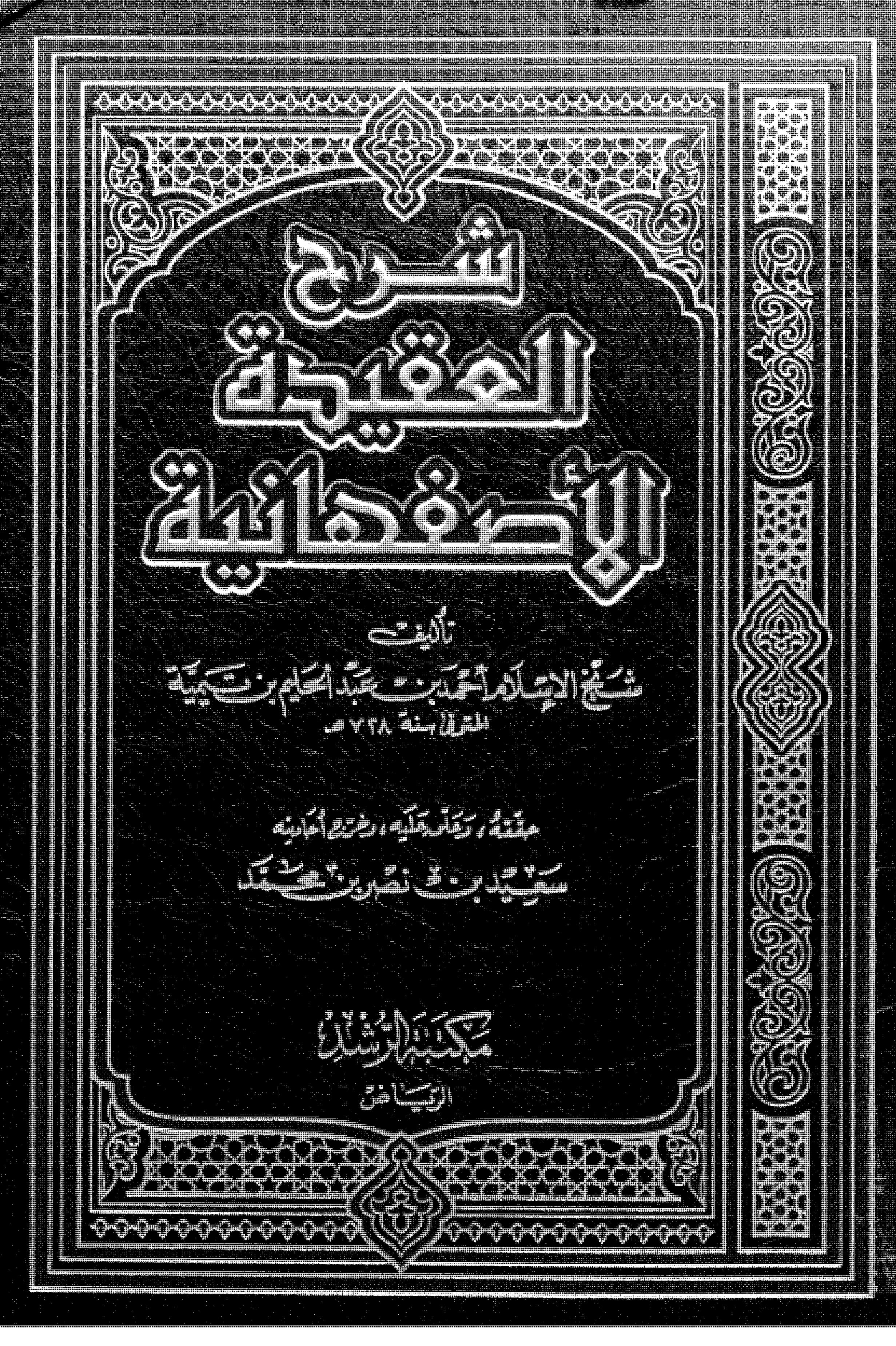
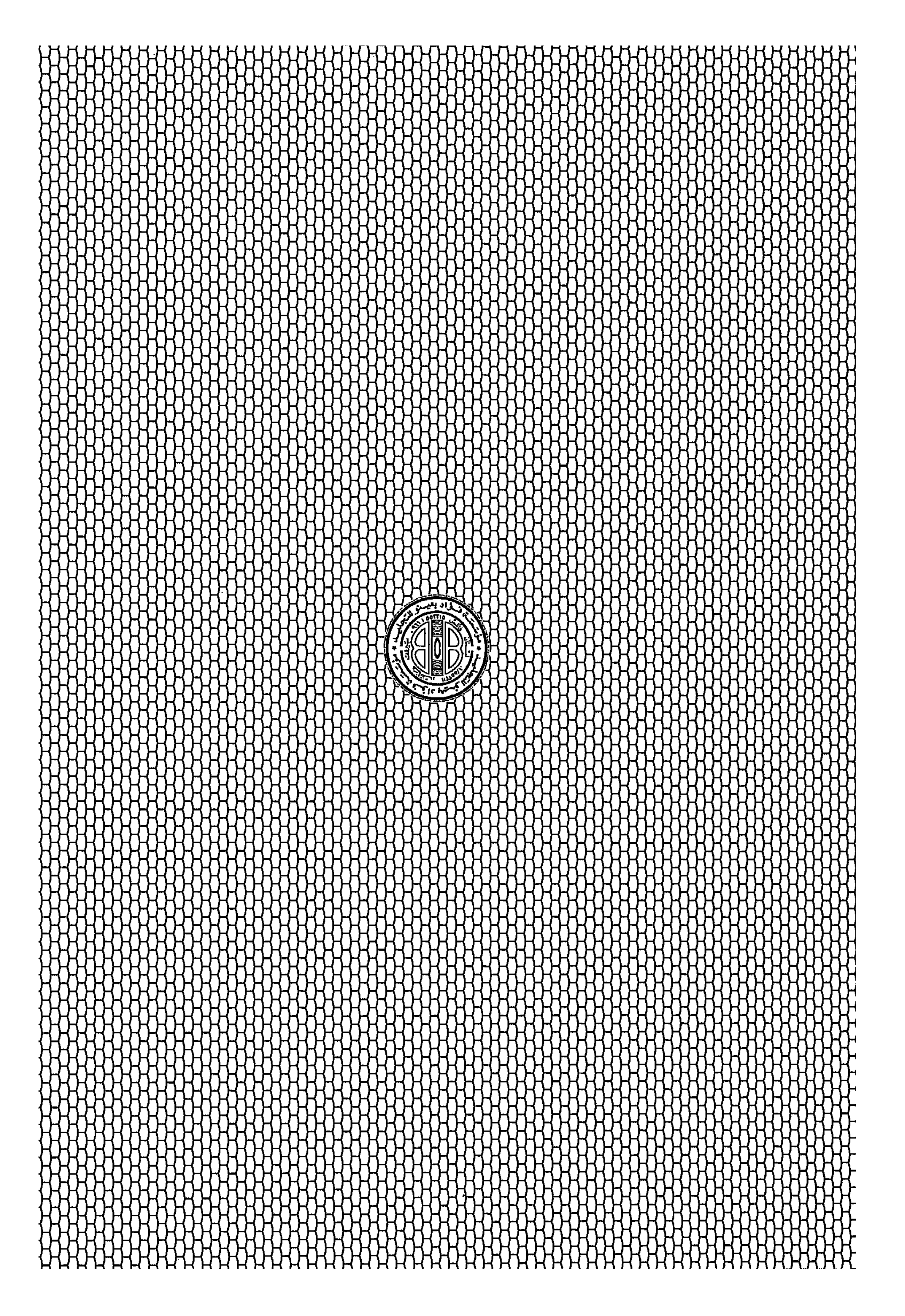
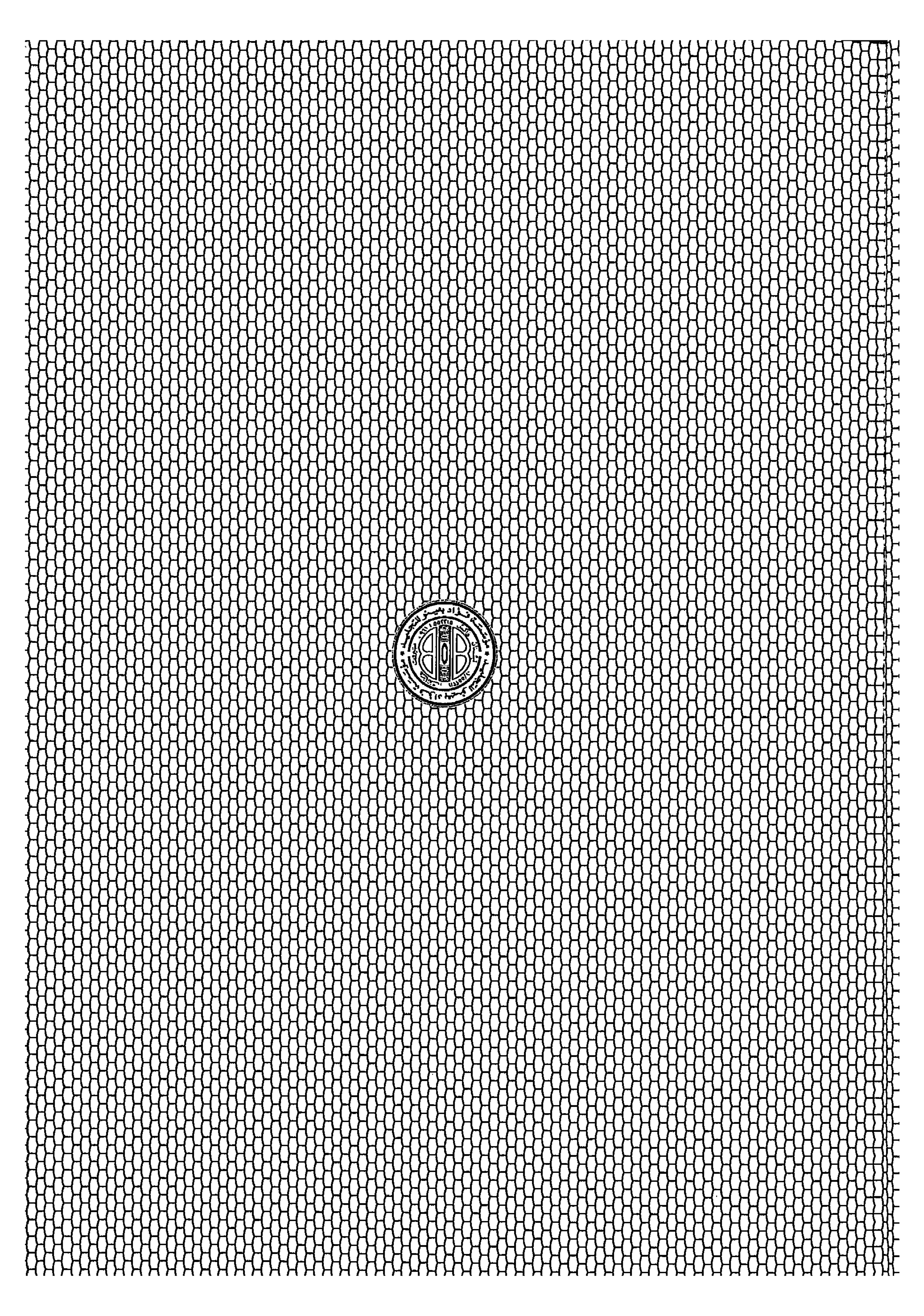

شرح
العقيدة
الأصفهانية
تأليف
شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية
المتوفى سنة ٧٢٨ هـ
حققه، وعلق عليه، وخرج أحاديثه
سعيد بن نصر بن محمد
مكتبة الرشد
الرياض






شرح
العقيدة الأصفهانية

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م





مكتبة الرشد للنشر والتوزيع

* المملكة العربية السعودية - الرياض - طريق الحجاز
ص ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١
فاكس ٤٥٧٣٣٨١

* فرع مكة المكرمة: - هاتف ٥٥٨٥٤٠١ - ٥٥٨٣٥٠٦
* فرع المدينة المنورة: - شارع أبي ذر الغفاري - هاتف ٨٣٤٠٦٠٠
* فرع القصيم بريدة طريق المدينة - هاتف ٣٢٤٢٢١٤
* فرع أبها: - شارع الملك فيصل هاتف ٢٣١٧٣٠٧
* فرع الدمام: - شارع ابن خلدون - هاتف ٨٢٨٢١٧٥

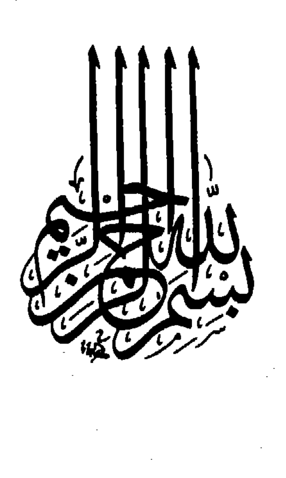
البريد الالكتروني لمكتبة الرشد بالرياض E - MAIL: alrushd @ suhuf. net. sa
موقع مكتبة الرشد بالانترنت: WWW. alrushd. com

شرح
العقيدة الأصفهانية

تأليف
شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية
المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

حققه، وعلق عليه، وخرج أحاديثه
سعيد بن نصر بن محمد

الناشر
مكتبة الرشد
الرياض


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين .

أما بعد : فإن مسائل العقيدة قد حظيت باهتمام العلماء قديماً وحديثاً ، وخاصة ما يتعلق منها بذات الله عز وجل وصفاته الحسنى .

حيث كان الحديث في ذلك مثار جدل عنيف حصل بين طوائف الأمة الإسلامية سيما بعد ظهور مدرسة علم الكلام التي أبعدت كثيراً من المسلمين عن عقيدة السلف الصادرة عن الكتاب والسنة ، ولما كان شيخ الإسلام هو حامل لواء السلفية وناصر العقيدة المرضية رأيت أن أختار كتاباً من كتبه مُعِيناً لطالب الحق فوقع الاختيار على شرح العقيدة الأصفهانية ، سائلاً الله عز وجل أن ينفع المسلمين به .

وكتبه

أبو البخاري

سعيد بن نصر بن محمد

نبذة عن الأصفهاني

٦١٦-٦٨٨هـ

قال عنه ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب : وفيها شمس الدين الأصفهاني الأصولي المتكلم العلامة أبو عبد الله محمد بن محمود بن محمد بن عباد العجلي ينتهي نسبه إلى أبي دلف الشافعي، نزيل مصر وصاحب التصانيف شرح المحصول وله كتاب الفوائد في العلوم الأربعة الأصلين والخلاف والمنطق وكتاب في غاية المطالب في المنطق وله يد طولى في العربية والشعر ولد رحمه الله بأصفهان سنة ست عشرة وستمائة ، وكان والده نائب السلطنة بأصفهان واشتغل بأصفهان في جملة في العلوم في حياة أبيه بحيث أنه فاق نظراءه ثم لما استولى العدو على أصفهان رحل إلى بغداد فأخذ في الاشتغال في الفقه على الشيخ سراج الدين الهرقلي وبالعلوم على الشيخ تاج الدين الأرموي ثم ذهب إلى الروم إلى الشيخ أثير الدين الأبهري ، فأخذ عنه الجدل والحكمة ، ثم دخل القاهرة وولي قضاء قوص خلافة عن القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز فباشره مباشرة حسنة وكان مهيباً قائماً بالحق وقوراً في درسه ، ودرس وتخرج به المصريون بالشافعي ومشهد الحسين وأخذ عنه جماعة وقيل إن ابن دقيق العيد كان يحضر درسه بقوص ، وتوفي في العشرين من رجب وله اثنتان وسبعون سنة .

ومن مرا جع ترجمته عند المؤرخين :

البداية والنهاية	٣١٥/١٥
طبقات الشافعية	١٠٠/٨
الوافي	١٢/٥
مرآت الجنان	٢٠٨/٤
العبر	٣٦٧/٣

ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية

نسبه ــ مولده

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني .

أما عن لقب (تيمية) ؛ فقد قيل : أن جده الخامس محمد بن الخضر حج على درب تيماء ، فرأى هناك طفلة ، فلما رجع ؛ وجد امرأته قد ولدت له بنتاً ، فقال : يا تيمية ــ نسبة إلى تيماء ، بلدة بالقرب من تبوك ــ ، فلقب بذلك، وقال ابن النجار : " وذكر أن جده كانت أمه تسمى تيمية ، وكانت واعظة فنسب إليها وعرف بها "

ولد يوم الاثنين العاشر من شهر ربيع الأول من سنة ٦٦١هـ ، بحَرَّان من أرض الشام ، ويلقب بشيخ الإسلام تقي الدين ، ويكنى بأبي العباس .

وقيل في معنى شيخ الإسلام وجوه :

أفضلها أن يقال : أي شيخ في الإسلام قد شاب وانفرد بذلك عمن مضى من الأتراب ، وحصل على الوعد المبشر بالسلامة أنه ((**من شاب شيبة في الإسلام فهي له نور يوم القيامة**))[1].

ــ ومنها ما عرف العوام أنه العدة أو مفزعهم إليه بعد الله في كل شدة .

---

[1] **صحيح** رواه أحمد والترمذي والنسائي من حديث عمرو بن عبسة قال ابن كثير في تفسيره (٤٢٩/٨) بعد أن أورد له عدة أسانيد :" وهذه أسانيد جيدة قوية " اهـ . وانظر صحيح الجامع (٦١٨٣) .

ـــ ومنها أنه شيخ الإسلام بسلوكه طريقه أهله ، قد سلم من شر الشباب وجهله ، فهو على السنة في فرضه ونفله[1].

وقد استعملت هذه التسمية في القديم ؛ استعملها الإمام الشافعي ، والإمام أحمد بن حنبل ، وغيرهما[2].

أسرته : أسرة آل تيمية من الأسر العريقة بحران ، وقد اشتهرت بالعلم والدين ؛ فجده : أبو البركات ، مجد الدين ، من كبار أئمة الحنابلة ، ومن مؤلفاته " المنتقى من أخبار المصطفى " الذي شرحه الشوكاني في كتابه نيل " الأوطار شرح منتقى الأخبار " .

ـــ ووالده : شهاب الدين عبد الحليم ، أبو المحاسن ، تولى المشيخة بعد والده ، وعلّم ولديه أبا العباس وأبا محمد .

ـــ وأخوه : أبو محمد شرف الدين ، تفقه في المذهب الحنبلي ، وبرع فيه

شيوخه

يقول تلميذه ابن عبد الهادي : " وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مئتي شيخ[3] ومن أشهرهم :

١- شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن بن قدامة المقدسي ، المتوفي سنة (٦٨٢هـ) .

٢- أمين الدين أبو اليمن عبد الصمد بن عساكر الدمشقي الشافعي ، المتوفي سنة (٦٨٦هـ) .

٣- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القوي بن بدران المرداوي، المتوفي سنة (٧٠٣هـ) .

---

[1] انظر هذه الوجوه في " الرد الوافر " (ص ٥٠) .

[2] انظر " الرد الوافر " (ص ٥٥) في الهامش .

[3] " العقود الدرية " (ص ٤) .

تلاميذه

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وما زال مدرسة عريقة تتلمذ فيها في عصره كثير من العلماء ، ولا يزال يتتلمذ عليها إلى يومنا هـــذا عبر مؤلفاتــه الجم الغفير، ومن أشهر من تتلمذ على يده :

١- شمس الدين ابن عبد الهادي المتوفي سنة (٧٤٤هـ) .

٢- شمس الدين الذهبي المتوفي سنة (٧٤٨هـ) .

٣- شمس الدين ابن القيم المتوفي سنة (٧٥١هـ) .

٤- شمس الدين ابن مفلح ، صاحب " الفروع " و " الآداب الشــرعية " المتوفي سنة (٧٦٣هـ) .

٥- عماد الدين ابن كثير ، صاحب " التفسير " ، المتوفي سنة (٧٧٤هـ) .

مذهبه

نشأ حنبلياً ثم كان منه ما قال عنه الذهبي : " وله الآن عدة سنين لا يفــتي بمذهب معين ، بل بما قام الدليل عليه عنده ، ولقــد نصــر الســنة المحضة والطريقة السلفية ، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليـها وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا ، وجسر هو عليها "[1].

عقيدته : يجيبنا هو عن عقيدته بقصيدة نظمها ، فقال :

ياسائِلِي عن مذهبي وعقيــــدتي	رُزِقَ الْهــدى مَنْ للهدايةِ يَسْأَلُ
اسمعْ كلام مُحقِّقٍ في قــولــه	لا ينثني عنــــهُ ولا يتبـــدَّلُ
حُبُّ الصحابة كلهم لي مذهــبٌ	ومودة القــربى بهـا أتوســـلُ
ولكلهم قــدر وفضــل ساطــع	لكنما الصديــق منــهم أفضــل

---

[1] انظر الرد الوافر (ص ٧) .

وأقول في القرآن ما جاءت بـــه آيــاته فهــو القديــم المنـــزل
وأقول قال الله جـــل جـــلاله والمصطفى الهـــادي ولا أتـــأول
وجميع آيات الصفـــات أمرهـــا حقاً كما نقـــل الطـــراز الأول
وأرد عهدتهـــا إلى نقـــالها وأصونها عن كـــل مـــا يتخيـــل
قبحـــاً لم نبـــذ القـــرآن وراءه وإذا استدل يقول قال الأخطـــل
والمؤمنون يـــرون حقـــاً ربهـــم وإلى السماء بغير كيف ينـــزل
وأقر بالميزان والحـــوض الـــذي أرجـــو بأني منـــه ريـــاً أنهـــل
وكذا الصراط يمد فـــوق جـــهنم فمـــوحد نـــاج وآخـــر مهمـــل
والنار يصـــلاها الشقي بحكمـــة وكذا التقي إلى الجنان سيدخـــل
ولكل حـــي عاقـــل في قبـــره عمـــل يقارنـــه هنـــاك ويســـأل
هذا اعتقـــاد الشافعي ومـــالك وأبي حنيفـــة ثم أحمـــد ينقـــل
فإن اتبعـــت سبيلهـــم فموفـــق وإن ابتدعت فما عليك معـــول

مؤلفاته

وعن مصنفاته يقول الذهبي : " جمعت مصنفات شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد ابن تيمية رحمه الله ، فوجدته ألف مصنف ، ثم رأيت له أيضاً مصنفات أخر "[1].

وقد صنف تلميذه النجيب ابن قيم الجوزية كتاباً سماه : " أسماء مؤلفات ابن تيمية " ، حققه صلاح الدين المنجد ، وطُبع بدار الكتاب الجديد ببيروت

وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف ، وجودة العبارة ، والترتيب ، والتقسيم ، والتبيين ، شهد له بذلك خصمه ابن الزملكاني[2] .

---

[1] انظر " الرد الوافر " (ص ٧٢) .
[2] انظر " الرد الوافر " (ص ١٠٥) .

وكان يتكلم اللغة العبرية (اليهودية) ، واللغة اللاتينية [1] ، ويفهم ذلك من قوله : " والألفاظ العبرية تقارب العربية بعض المقاربة ، كما تتقارب الأسماء في الاشتقاق الأكبر ، وقد سمعت ألفاظ التوراة بالعبرية من مسلمة أهل الكتاب ، فوجدت اللغتين متقاربتين غاية التقارب ، حتى صرت أفهم كثيراً من كلامهم العبرى بمجرد المعرفة بالعربية "[2].

صفاته الخُلُقية والخَلْقية

أما صفاته الخُلُقية ؛ فقد كان كريماً ، مجبولاً عليه ، لا يتصنعه ، وكان شجاعاً ، زاهداً في الدنيا ، لا يتعلق منها بشيء ، وكان يترك كثيراً من المباحات خشية الوقوع في المحرمات .

وأما صفاته الخَلْقية ؛ فقد كان أبيض اللون ، أسود شعر الرأس واللحية ، قليل الشيب ، شعره إلى شحمتي أذنيه ، عيناه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال ، بعيد ما بين المنكبين ، جهوري الصوت ، فصيحاً ، سريع القراءة تعتريه حدة ، لكنه يقهرها بالحلم[3].

جهاده

جاهد رحمه الله بلسانه وقلمه ويده ، وحارب التتار ، وحرض المسلمين ضدهم ، وتقدم الصفوف في واقعة (شقحب) سنة (٧٠٢ هـ) ، وصمد ضدهم في يوم (مرج الصُّفَّر) ، ودخل على ملك التتار قازان ، وكلمه كلاماً أثار دهشة الحاضرين لجرأته ؛ كما هدد سلطان مصر لما كاد يُسَلِّم بلاد المسلمين للتتار .

---

[1] " أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام " (ص ٦٦) .

[2] نقض المنطق " (ص ٩٣) .

[3] انظر " الدرر الكامنة " لابن حجر (١/ ١٥١) ؛ نقلاً عن الذهبي .

ثناء العلماء عليه[1]

لقد أثنى على شيخ الإسلام أعداؤه وأقرانه قبل أصدقائه وتلامذته ، حتى عد ابن ناصر الدين الدمشقي أكثر من ثمانين عالماً من معاصريه أثنى عليه ، وأفرد لذلك كتابه الشهير " الرد الوافر " يرد فيه على محمد بن محمد العجمي الشهير بالعلاء البخاري المتوفي سنة (٨٤١ هـ) الذي زعم أن من قال عن ابن تيمية : شيخ الإسلام ؛ فهو كافر .

ومن هذا الكتاب استخرت أقوال أشهر مشاهير علماء عصره وعصر المؤلف ابن ناصر الدين و لم أورد ثناء تلامذته له ؛ أمثال : ابن القيم ، وابن كثير ، وابن عبد الهادي ؛ لأنها كثيرة ومعروفة.

فممن أثنى عليه خيراً ، وبين منزلته من الإسلام :

١- **ابن سيد الناس** صاحب " عيون الأثر في المغازي والشمائل والسير" (ت٧٣٤هـ) قال رحمه الله : " ألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً ، وكاد أن يستوعب السنن والآثار حفظاً ، إن تكلم في التفسير ؛ فهو حامل رايته ، أو أفتى في الفقه ؛ فهو مدرك غايته ، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، أو حاضر بالملل والنحل ؛ لم ير أوسع من نحلته في ذلك ، ولا أرفع من درايته ، برز في كل فن على أبناء جنسه ، و لم تر عين من رآه مثله ، ولا رأت عينه مثل نفسه " .

٢- **شمس الدين الذهبي** صاحب " سير أعلام النبلاء " (ت ٧٤٨ هـ) قال رحمه الله : " هو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته ، فلو حُلِّفت بين الركن والمقام ؛ لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله ، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم " .

---

[1] أطلت الكلام هنا إيفاء بحق هذا الإمام ، ورداً على شبه المغرضين .

وقال في موضع آخر : " قرأ القرآن والفقه ، وناظر واستدل وهو دون البلوغ ، برع في العلم والتفسير ، وأفتى ودرس وله نحو العشرين ، وصنف التصانيف ، وصار من أكابر العلماء في حياة شيوخه ، وله المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان ، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر ، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره في أيام الجمع ، وكان يتوقد ذكاء ، وسماعاته من الحديث كثيرة ، وشيوخه أكثر من مئتي شيخ ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى ، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه ، فما يلحق فيه ، وأما نقله للفقه ، ومذاهب الصحابة والتابعين ، فضلاً عن المذاهب الأربعة ؛ فليس له فيه نظير ، وأما معرفته بالملل والنحل ، والأصول والكلام ؛ فلا أعلم له فيه نظيراً ، ويدري جملة صالحة من اللغة ، وعربيته قوية جداً ، ومعرفته بالتاريخ والسير ؛ فعجب عجيب ، وأما شجاعته وجهاده وإقدامه ؛ فأمر يتجاوز الوصف ، ويفوق النعوت ، وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل ، وفيه زهد وقناعة باليسير في المأكل والملبس" .

٣- تقي الدين السبكي (والد تاج الدين صاحب " طبقات الشافعية الكبرى) قال رحمه الله معترفاً بكبر قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف .... " .

إلى أن قال : " وقدره في نفسي أعظم من ذلك وأجل ، مع ما جمع الله له من الزهادة ، والورع ، والديانة ، ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه ، وجريه على سنن السلف ، وأخذه من ذلك بالأخذ الأوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان ، بل من أزمان " انتهى كلامه .

٤- السبكي، محمد بن عبد البر الشافعي (ت ٧٧٧هـ)؛ قال رحمه الله : " ما يبغض ابنَ تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى ، فالجاهل لا يدري ما يقول،

وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به " .

٥- **كمال الدين ابن الزملكاني** الشافعي ــ وكان مــن خصومــه ــ (ت ٧٢٧ هـ)؛ قال رحمه الله عن شيخ الإسلام : " كان إذا سئل عن فــن من العلم ؛ ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه ؛ استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه نــاظر أحــداً فانقطع معه ، ولا تكلم في علم من العلوم ــ سواء كان من علوم الشــرع أو غيرها ــ إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه ، لم يــر مــن خمس مئــة ســنة أحفظ منه " .

٦- **ابن دقيق العيد** القشيري المالكي الشــافعي ، (ت ٧٠٢ هـ) ؛ قــال عنه رحمه الله : " لما اجتمعت بابن تيمية ؛ رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه يأخذ منها ما يريد ، ويدع ما يريد " .

٧- **البرزالي** ، أبو محمد ، القاسم بن محمد ، الإشبيلي الأصل ، الدمشـقي (ت ٧٣٨ هـ) ؛ قال عن ابن تيمية : " كان إماماً لا يلحق غباره في كــل شيء ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، واجتمعت فيه شروط المجتهدين ، وكان إذا ذكر التفسير أبهت الناس من كثرة محفوظه ، وحُسْنِ إيراده ، وإعطائه كل قــول مــا يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال وخوضه في كل علم ، كــان الحاضرون يقضون من العجب ، هذا مــع انقطاعــه إلى الزهــد والعبــادة والاشتغال بالله تعالى والتجرد من أسباب الدنيا ودعاء الخلق إلى الله تعالى " .

٨- **أبو الحجاج المزي** الدمشقي الشافعي ، صاحب " تهذيب الكمال " (ت ٧٤٢ هـ) ؛ قال عن شيخ الإسلام : " ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثــل نفسه ، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ولا أتبع لهمــا منه " وقال مرة : " لم يُر مثله منذ أربع مئة عام " .

٩- **ابن حجر العسقلاني** ، صاحب " فتح البـــاري " (ت ٨٥٢ هـ) ؛ قال عنه : " ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان أعظم الناس قياماً علـــى أهل البدع ؛ من الروافض ، والحلولية ، والاتحادية ، وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة ، وفتاويه فيهم لا تدخل تحت حصر " .

وقال أيضاً : " ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية ، صاحب التصانيف السائرة ، التي انتفـــع بها الموافق والمخالف ؛ لكان غاية الدلالة على عظم منزلته ، فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم والتميز في المنطوق والمفهوم أئمة عصره مـــن الشـــافعية وغيرهم ؛ فضلاً عن الحنابلة " .

١٠- **بدر الدين العيني** الحنفي ، صاحب " عمدة القاري شرح صحيـــح البخاري " (ت ٨٥٥ هـــ) ؛ قال عن الشيخ : " هو الإمام الفاضل البـارع التقي النقي الورع ، الفارس في علمي الحديث والتفسير ، والفقه والأصـــول بالتقرير والتحرير ، والسيف الصارم على المبتدعين ، والحبر القائم بأمور الدين والأمَّار بالمعروف والنهَّاء عن المنكر ، ذو همة وشجاعة وإقدام فيمـــا يـــروع ويزجر ، كثير الذكر والصوم والصلاة والعبادة ، خشن العيش والقناعة مـــن دون طلب الزيادة ، وكانت له المواعيد الحسنة السنية ، والأوقات الطيبة البهية مع كفه عن حطام الدنيا الدنية ، ولـــه المصنفـــات المشـــهورة المقبولـــة ، والفتـــاوى القاطعة غير المعلولة " .

وقال منافحاً ، وذاباً عنه ، ذاماً من نال من عرضه : " ليس هو إلا كالجعل باشتمام الورد يموت حتف أنفه ، وكالخفاش يتأذى ببهور سناء الضوء لســـوء بصره وضعفه ، وليس لهم سجية نقادة ، ولا روية وقادة ، وما هم إلا صلقع بلقع سلقع ، والمكفر منهم صلمعة ابن قلمعة ، وهيان ابن بيان ، وهي ابن بي

وضل ابن ضل وضلال ابن التلال[1].

ومن الشائع المستفيض أن الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين من شم عرانين الأفاضل ، ومن جم براهين الأماثل ، الذي كان له من الأدب مآدب تغذي الأرواح ، ومن نخب الكلام له سلافة تهز الأعطاف المراح ، ومن يانع ثمار أفكار ذوي البراعة ، طبعه المفلق في الصناعة الخالية عن وصمة الفجاجة والبشاعة ، وهو الكاشف عن وجوه مخدرات المعاني نقابها ، والمفترع عرائس المباني بكشف جلبابها ، وهو الذاب عن الدين طعن الزنادقة والملحدين ، والناقد للمرويات عن النبي سيد المرسلين ، وللمأثورات عن الصحابة والتابعين .أ.هـ.

الافتراءات عليه

قد كثرت الافتراءات على شيخ الإسلام من أعدائه المعاصرين له من الصوفية وأهل الكلام والمبتدعة ومن بعد عصره أيضاً إلى يومنا هذا ولكن أعجب هذا الافتراءات والتي اتكأ عليها المبتدعة الخصوم : افتراء ابن بطوطة الرحال في كتابه المشهور والمعروف بـ " رحلة ابن بطوطة " المسماة " تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "

قال عليه من الله ما يستحق:" وصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين إلى مدينة دمشق الشام " إلى أن قال : وكان بدمشق من كبار فقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية كبير الشام يتكلم في الفنون إلا أن في عقله شيئاً وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ، ويعظهم على المنبر ..."

إلى أن قال:" فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ، ويذكرهم فكان من جملة كلامه أن قال:" إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي

---

[1] هذه الألفاظ مثل قولهم : " هو طامر بن طامر " ؛ أي : لا يدرى من هو ؟ ولا من أبوه ؟

هذا ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكي يعرف بـابن الزهـراء وأنكر ما تكلم به ، فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعـال ضرباً كثيراً ، حتى سقطت عمامته ...." إلى آخر كذبه وافترائه[1].

هذا كلامه ، وهذا افتراؤه لذلك لما أورد هذا الكلام الشيخ أحمـد بـن إبراهيم بن عيسى في شرحه للقصيدة النونية[2] أعقبه بقوله:" واغوثـاه بـالله من هذا الكذب ، الذي لم يخف الله كاذبـه ، و لم يسـتحي مفتريـه ، وفي الحديث : ((**إذا لم تستحي ؛ فاصنع ما شئت**))[3].

ووضوح هذا الكذب أظهر من أن يحتاج إلى الإطنـاب ، والله حسـيب هـذا المفتري الكذاب ؛ فإنه ذكر أنه دخل دمشق في (٩ رمضان سنة ٧٢٦ هـ) ، وشيخ الإسلام ابن تيمية إذ ذاك قد حبس في القلعة ؛ كما ذكر ذلـك العلماء الثقات ؛ كتلميذه الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي ، والحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب في " طبقات الحنابلة " ؛ قال في ترجمـة الشيخ : " مكث الشيخ في القلعة من شعبان سنة ست وعشـرين ، إلى ذي القعدة سنة ثمان وعشرين[4].

وزاد ابن عبد الهادي أنه دخلها في سادس شعبان[5].

فانظر إلى هذا المفتري ، يذكر أنه حضر وهو يعظ الناس على منبر الجامـع

---

[1] انظر " الرحلة " (١ / ١٠٢ و ١٠٩ و ١١٠) ، تحقيق : الدكتور علي المنتصر الكتاني ، طبع مؤسسة الرسالة .

[2] انظر " الشرح " (١ / ٤٩٧) .

[3] (صحيح) . رواه البخاري في كتاب الأدب، (باب: **إذا لم تستحي فاصنع ما شئت**) " فتح " (١٠ / ٥٢٣) ، وأوله : " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة ... " الحديث .

[4] انظر " الذيل على طبقات الحنابلة " (٢ / ٤٠٥) .

[5] انظر " العقود الدرية " لابن عبد الهادي (ص ٢١٨) .

فيا ليت شعري ! هل انتقل منبر الجامع إلى داخل قلعة دمشق ، والحال أن الشيخ رحمه الله لما دخل القلعة المذكورة في التاريخ المذكور لم يخرج منها إلا على النعش ، وكذا ذكر الحافظ عماد الدين ابن كثير " تاريخه "[1] . انتهى المقصود منه .

ومما يدلل على أن ابن بطوطة كثير الكذب ما نقله في رحلته حكايات عجيبة حتى قال ابن خلدون بعد أن ذكر شيئاً منها : " ... **وأكثر ما كان يحدث عن** دولة صاحب الهند ، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون..." إلى أن قال:" وأمثال هذه الحكايات، فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه ، ولقيت أنا يومئذ وزير السلطان: فارس بن وردار البعيد الصيت، ففاوضته في هذا الشأن ، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه..."[2].

فابن خلدون إذن يشكك في صدق ابن بطوطة بسبب غرائب أخباره التي يرويها ، **ولا أغرب مما نقله عن ابن تيمية** .

وثم غريبة أخرى في رحلته عن زيارته للهند ، فقال : " وصلنا إلى جبل بشاي ، وبه زواية الشيخ الصالح أطا أولياء ، و (أطا) معناه بالتركية: الأب و(أولياء) باللسان العربي ، فمعناه : أبو الأولياء ، ويسمى أيضاً : سيصد صاله ، و (سيصد) ؛ معناه بالفارسية : ثلاث مئة ، و (صاله) معناه : عام وهم يذكرون أن عمره ثلاث مئة وخمسون عاماً ، ولهم فيه اعتقاد حسن... " إلى أن قال : " ودخلنا إليه ، فسلمت عليه ، وعانقني ، وجسمه رطب ، لم أر ألين منه ، ويظن رائيه أن عمره خمسون سنة ، وذكر لي أنه في كل مئة سنة ينبت له الشعر والأسنان ... " إلى آخر غرائبه[3].

---

[1] انظر " البداية " (١٤ / ١٢٣) .

[2] " مقدمة ابن خلدون " (٢ / ٥٦٥) ، تحقيق : علي عبد الواحد وافي .

[3] انظر الرحلة (١ / ٤٦٦) .

فالله أعلم كم في هذه الرحلة من اختلاق وكذب وافتراء ، ورحم الله ابن تيمية رحمة واسعة ، وما كيد الظالمين إلا في تباب .

محنته ووفاته

كان خصوم ابن تيمية في كثير من المحن هم قضاته ؛ من الفقهاء الذين كبر عليهم مخالفته لهم في فتاويهم وآرائهم ، ومن الصوفية وأهل الكلام .

وقد سجن مرات عديدة ؛ منها : سنة ٧٠٥ هـ في يوم الجمعة ٢٦ رمضان ، وفي ليلة العيد نقل إلى مكان آخر بالجب ، وظل حبيساً به عاماً كاملاً ، ثم خرج من السجن في يوم ٢٣ ربيع أول سنة ٧٠٧ هـ .

ثم حبس مرة أخرى بسبب دعاوى بعض الصوفية ، ثم خرج عام ٧٠٩ هـ يوم عيد الفطر .

ثم امتحن مرة أخرى عام ٧٢٦ هـ ، ومنع من الإفتاء ، واعتقل ، وكان ذلك يوم الجمعة ١٠ شعبان ، وظل في سجنه سنتين وأشهراً ، ومات فيه ليلة الاثنين ، لعشرين من ذي القعدة ، سنة ٧٢٨ ، وشهد جنازته من الخلائق ما لا يحصره عد، وكانت مثلاً واضحاً لقول الإمام أحمد :" **قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم شهود الجنائز** ".

وهكذا مات بعد حياة حافلة بالدعوة والجهاد والتدريس والفتوى والتأليف والمناظرة والدفاع عن منهج السلف ، ولم يتزوج ، ولم يتسر ، ولم يخلف مالاً ، رحم الله شيخ الإسلام رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته ، وجزاه عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

مواطن ترجمته[1]

---

[1] هذه أهم مواطن ترجمته ، سطرتها حثاً لطلبة العلم لدراسة حياة شيخ الإسلام ، وتسهيلاً لهم في المهمة .

أ – كتب عامة :

١- " البداية والنهاية " لابن كثـــير (١٤ / ٤ ، ٧ – ٢٣ ، ٣٦ – ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٣ – ٥٥ ، ٦٧ و ٩٧ ، ١٢٣، ١٣٥ – ١٤٠ ، ١٤٣) .

٢- " الدرر الكامنة " لابن حجر (١ / ١٤٤) .

٣- " البدر الطالع " للشوكاني (١ / ٦٣) .

٤- " تذكرة الحفاظ " للذهبي (٤ / ١٤٩٦) .

٥- " الذيل على طبقات الحنابلة " لابن رجب (٢ / ٣٨٧) .

٦- " طبقات المفسرين " (١ / ٤٥) .

٧- " طبقات الحفاظ " للسيوطي (ص ٥٢٠) .

٨- " فوات الوفيات " للكتبي (١/ ٧٤) .

٩- " الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" للسخاوي، تحقيق: رونثال، إشراف صالح العلي ، (ص ١١١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٢٩٤ ،٣٠٧ ، ٣٥٢) .

١٠- " التاج المكلل " لصديق حسن خان ، (ص ٤٢٠ – ٤٣١) .

ب – كتب خاصة

وقد أفردت له تراجم خاصة قديماً وحديثاً ، ومن أهم ذلك :

١- " الرد الوافر " لابن ناصر الدين الدمشقي .

٢- " العقود الدرية في مناقب ابن تيمية " لابن عبد الهادي .

٣- " الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية " لمرعي الكرمي .

٤- " الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية " لمرعي الكرمي .

٥- " ابن تيمية بطل الإصلاح الديني " للاستانبولي .

٦- " ابن تيمية المفتري عليه " لسليم الهلالي .

٧- " ابن تيمية حياته وعصره " لمحمد أبو زهرة .

٨- " من رجال الفكر " / خاص بحياة ابن تيمية ، أبو الحسن الندوي .

٩- " لمحات من حياة ابن تيمية " لعبد الرحمن عبد الخالق .

١٠-" من أعلام المجددين شيخ الإسلام ابن تيمية " للفوزان .

١١-" أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية " للشيباني .

قيمة الكتاب العلمية

لا شك أن جميع مصنفات شيخ الإسلام قيمة ومفيدة لما تضمنته من العقائد السلفية والآثار السنية والضوابط العلمية والقواعد النورانية ، التي لا يستغني عنها طالب حق ومبتغي صدق ؛ وكتابنا هذا يمكن إبراز أهميته في النقاط الآتية :

١- إنتصاره رحمه الله لمنهج السلف الصالح في العقيدة .

٢- كسره رحمه الله لصنم التأويل لقضايا العقيدة .

٣- نقضه رحمه الله لمناهج الفلاسفة والمنطقيين والمتكلمين .

٤- بيانه رحمه الله الموقف الذي يتخذ تجاه من خالف السلف في بعض عقائدهم من العلماء الفضلاء الذي عرفوا بنصره السنة .

٥- رده على مُدَّعي التصوف من الاتحادية والحلولية .

٦- بيانه منهج النظر والاستدلال عند أهل السنة وعند أهل البدعة .

والقارئ سيجد في الكتاب ما يكون دافعاً له للتزود من مصنفات شيخ الإسلام رحمه الله .

عملي في الكتاب

١- عزوت الآيات القرآنية إلى سورها مرقمة .

٢- خرَّجتُ الأحاديث والآثار تخريجاً علمياً .

٣- كتبت مقدمة لبيان قيمة وأهمية الكتاب .

٤- كتبت ترجمة موجزة لكل من الماتن [المصنف] والشارح .

٥- ترجمت لأكثر الأعلام الذين ورد ذكرهم في الكتاب .

٦- علقت على بعض المواضع تذكيراً أو تنبيهاً .

٧- عرفت الفرق الوارد ذكرها في الكتاب .

٨- عرفت المصطلحات المنطقية التي ذكرت في الكتاب

٩- أحلت إلى بعض الكتب المناسبة للموضع المحال إليه .

١٠- وضع عناوين جانبية على صفحات الكتاب ، ووضع فهرس موضوعي مفصل له .

وأسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبل جهد المقل بقبول حسن .

وكتبه

أبو البخاري

سعيد بن نصر بن محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سئل شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه وهو مقيم بالديار المصرية في شهور سنة اثني عشر وسبعمائة أن يشرح العقيدة التي ألفها الشيخ شمس الدين محمد ابن الأصفهاني الإمام المتكلم المشهور الذي قيل إنه لم يدخل إلى الديار المصرية أحد من رؤوس علماء الكلام مثله وأن يبين ما فيها .

فأجاب إلى ذلك واعتذر بأنه لابد عند شرح ذلك الكلام من مخالفة بعض مقاصده لما توجبه قواعد الإسلام فإن الحق أحق أن يتبع، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧] : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٦] ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥]. قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٩] وليعلم أن الشرح المطلوب الآتي ذكره اشتمل ولله الحمد مع اختصاره على غرر قواعد أصول الدين التي لم ينهض بتحقيق الحق فيها إلا الجهابذة النقاد من سادات الأولين والآخرين كما ستشهد ذلك ويشهد به وقت التأمل أهل العدل والإنصاف ، من المحققين والله سبحانه ولي التوفيق ، والهادي إلى سواء الطريق، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وأول العقيدة المذكورة قوله : «الحمد لله حق حمده ، وصلواته على محمد رسوله وعبده : **للعالم خالق واجب الوجود لذاته واحد عالم قادر حي مريد متكلم سميع بصير .**

والدليل على وجوده : الممكنات لاستحالة وجودها بنفسها واستحالة وجودها بممكن آخر ضرورة استغناء المعلول بعلته عن كل ما سواه وافتقار الممكن إلى علته .

والدليل على وحدته : أنه لا تركيب فيه بوجه من الوجوه وإلا لما كان واجب الوجود لذاته ضرورة افتقاره إلى ما تركب منه ، ويلزم من ذلك أنه لا يكون من نوعه اثنان إذ لو كان لزم وجود الاثنين بلا امتياز وهو محال .

والدليل على علمه إيجاده الأشياء لاستحالة إيجاده الأشياء مع الجهل بها .

والدليل على قدرته إيجاده الأشياء ، وهي إما بالذات، وهو محال وإلا لكان العالم وكل واحد من مخلوقاته قديماً وهو باطل فتعين أن يكون فاعلاً بالاختيار وهو المطلوب .

والدليل على أنه حي: علمه وقدرته لاستحالة قيام العلم والقدرة بغير الحي .

والدليل على إرادته : تخصيصه الأشياء بخصوصيات واستحالة التخصيص من غير مخصص .

والدليل على كونه متكلماً : أنه آمر وناه لأنه بعث الرسل لتبليغ أوامره ونواهيه ولا معنى لكونه متكلماً إلا ذلك .

والدليل على كونه سميعاً بصيراً : السمعيات .

والدليل على نبوة الأنبياء : المعجزات .

والدليل على نبوة نبينا محمد ﷺ : القرآن المعجز نظمه ومعناه .

ثم نقول كل ما أخبر به النبي محمد عليه الصلاة والسلام من عذاب القبر ومنكر ونكير وغير ذلك من أحوال القيامة والصراط والميزان والشفاعة

والجنة والنار فهو حق لأنه ممكن ، وقد أخبر به الصادق فلزم صدقـــه، والله الموفق))

فأجاب رضي الله تعالى عنه : الحمد لله رب العالمين ما في هذا الكلام من الإخبار بأن للعالم خالقاً وأنه واجب الوجود بنفسه[1] وأنه واحد عالم قـــادر حي مريد متكلم سميع بصير فهو حق لا ريب فيه وكذلك ما فيه من الإقرار بنبوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونبوة محمد ﷺ وأنه يجب التصديق بكـــل ما أخبر به من عذاب القبر ومنكر ونكير وغير ذلك مـــن أحـــوال القيامـــة والصراط والميزان ، والشفاعة والجنة والنار ، فإنه حق ، فإن هـــذا الأسمـــاء المقدسة المذكورة لله تعالى منها ما هو في كتاب الله تعالى كاسمه الواحد والعالم والقادر والحي والسميع والبصير .

قال تعالى : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة:١٦٣] وقال تعـــالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝ ﴾ [غافر:١٥-١٦]وقال تعـــــالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ ﴾ [آل عمـــــــران:٢] ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ ﴾ [طه:١١١] وقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ [التغابن:١٧-١٨]وقـــال تعـــالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [فاطر:١] وقال تعـــالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾ [الشورى:١١] ومثـــل هذا في القرآن كثير .

---

[1] واجب الوجود هو الذي يكون وجوده من ذاته ولا يحتاج إلى شيء أصلاً ، وواجب الوجود على قسمين واجب الوجود لذاته كالباري تعالى ، وواجب الوجـــود بالغـــير كالموجودات. انظر التعريفات للجرجاني ٣/٤ ط . عالم الكتب .

[المتكلم والمريد لم يردا في الكتاب ولا السنة]

أما **تسميته** سبحانه بأنه مريد وأنه متكلم فإن هذين الاسمين لم يردا في القرآن ولا في الأسماء الحسنى المعروفة، ومعناهما حق ، ولكن الأسماء الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله بها ، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة وهي التي تقتضي المدح والثناء بنفسها ، والعلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك وهي في نفسها صفات مدح، والأسماء الدالة عليها أسماء مدح[1] .

[صفتا الكلام والإرادة]

« **أما الكلام والإرادة** » فلما كان جنسه ينقسم إلى محمود كالصدق والعدل ، وإلى مذموم كالظلم والكذب ، والله تعالى لا يوصف إلا بالمحمود دون المذموم ، جاء ما يوصف به من الكلام والإرادة في أسماء تخص المحمود كاسمه الحكيم والرحيم والصادق والمؤمن والشهيد والرؤوف والحليم والفتاح ونحو ذلك مما يتضمن معنى الكلام ومعنى الإرادة ، فإن الكلام نوعان: إنشاء وإخبار ، والإخبار ينقسم إلى صدق وكذب والله تعالى يوصف بالصدق دون الكذب، والإنشاء نوعان: إنشاء تكوين وإنشاء تشريع ، فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، والتكوين يستلزم الإرادة عند جماهير الخلائق ، وكذلك يستلزم الكلام عند أكثر أهل الإثبات وأما التشريع فيستلزم الكلام وفي استلزامه الإرادة نزاع ، والصواب أنه يستلزم أحد نوعي الإرادة كما سنبين إن شاء الله ، والإنشاء يتضمن الأمر والنهي والإباحة والله تعالى يوصف بأنه يأمر بالخير وينهى عن الشر فهو سبحانه لا يأمر بالفحشاء ، وكذلك الإرادة قد نزه نفسه عن بعض أنواعها بقوله تعالى ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:١٠٨]وقوله ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [البقرة:١٨٥] فلهذا لم يجيء في أسمائه

---

[1] ما يطلق عليه سبحانه في باب الأسماء والصفات توقيفي ، وما يطلق عليه سبحانه من الإخبار لا يلزم أن يكون توقيفياً . انظر القواعد الطيبات – ٢٣ ط أضواء السلف .

الحسنى المأثورة : المتكلم والمريد .

وأما ما يوصف به الرب من الكلام والإرادة ، فقد دلت عليه أسماؤه الحسنى ، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله تعالى متكلم بكلام قائم به وأن كلامه غير مخلوق [1]، وأنه مريد بإرادة قائمة به ، وإن إرادته ليست مخلوقة ، وأنكروا على الجهمية[2] من المعتزلة [3]وغيرهم الذين قالوا إن كلام الله مخلوق خلقه في غيره وإنه كلم موسى بكلام خلقه في الهواء ، واتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ومعنى قولهم منه بدأ أي هو المتكلم به لم يخلقه في غيره كما قالت الجهمية من المعتزلة وغيرهم أنه بدأ من بعض المخلوقات وأنه سبحانه لم يقم به كلام ، ولم يرد السلف أنه كلام فارق ذاته فإن الكلام وغيره من الصفات لا تفارق الموصوف بل صفة المخلوق لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فكيف تكون صفة الخالق تفارقه وتنتقل إلى غيره ؟ ، ولهذا قال الإمام أحمد : كلام الله من الله ليس ببائن منه ، ورد بذلك على الجهمية المعتزلة وغيرهم الذين يقولون كلام الله بائن منه خلقه في بعض الأجسام ، ومعنى قول السلف : إليه يعود ما جاء في الآثار:" **إن القرآن يسرى به حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في**

[القرآن كلام الله غير مخلوق]

---

(1) اتفق أهل السنة على أن الله سبحانه يتكلم حقيقة على الوجه الذي يليق به بحرف وصوت ، وليس كلامه سبحانه نفسي كما تقول الأشاعرة ، انظر في الرد عليهم موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١٢٥٣/٣ص٧-١٣ط الرشد .

(2) الجهمية هم أصحاب جهم بن صفوان ت هـ ١٢٨، انظر عقائدهم في الملل والنحل ٩٧ وما بعدها ، والفرق بين الفرق ١١ ، والتبصير في الدين ١٠٨ .

(3) سموا كذلك لاعتزال مؤسس نحلتهم واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري، انظر عقائدهم في الفرق بين الفرق ١١٤-١١٥، والملل والنحل ٤٤/١-٤٥ .

القلوب منه آية "[1] وقد قال الله تعالى عن المخلوق ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ ﴾ [الكهف:٥]ومع هذا فكلمة المخلوق لا تفارق ذاته وتنتقل إلى غيره ، وما جاءت به الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين لهم بإحسان وغيرهم من أئمة المسلمين كالحديث الذي رواه أحمد في مسنده وكتبه إلى المتوكل في رسالته التي أرسل بها إليه عن النبي ﷺ أنه قال :((ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه))[2] يعني القرآن وفي لفظ " **بأحب إليه مما خرج منه** " وقول أبي بكر الصديق لما سمع كلام مسيلمة :" **إن هذا كلام لم يخرج من إل** ." **أي من رب** ، وقول ابن عباس لما سمع قائلاً يقول لميت وضع في لحده " **اللهم رب القرآن اغفر له فالتفت إليه ابن عباس فقال : مه . القرآن كلام الله ليس بمربوب منه خرج وإليه يعود، هذا الكلام معروف عن ابن عباس .**

[الآثار الدالة على أن القرآن غير مخلوق]

وقول السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود كما استفاضت الآثار عنهم بذلك كما هو مذكور عنهم في ا لكتب المنقولة عنهم بالأسانيد المشهورة لا يدل على أن الكلام يفارق المتكلم وينتقل إلى غيره ، ولكن هذا دليل على أن الله هو المتكلم بالقرآن ومنه سُمع لا أنه خلقه في غيره، كما فسره بذلك أحمد وغيره من الأئمة .

[قول السلف القرآن كلام الله غير مخلوق]

---

[1] رواه ابن ماجة (٣٢٨٩) عن حذيفة ، وإسناده صحيح ، وانظر الصحيحة برقم (٨٧) .

[2] رواه أحمد (٢٦٨/٥) والطبراني في الكبير (٧٦٥٧) والخطيب في تاريخه (٨٨/٧) والترمذي (٢٩١١) عن أبي أمامة ﷺ وإسناده ضعيف ، وانظر الضعيفة برقم (١٩٥٧) وضعيف الترمذي (٥٥٥) .

قال أبو بكر الأشتر : سئل أحمد عن قوله القرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود ؟

فقال أحمد : منه خرج : هو المتكلم به وإليه يعود . "

ذكره الخلال[1] في كتاب السنة[2] عن عبد الله بن أحمد .

وما جاءت به الآثار مثل قول خباب بن الأرت " **تقرب إلى الله بما استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه مما خرج منه** " وروي ذلك مرفوعاً ونحو ذلك أولى أن لا يدل على أن الكلام يفارق المتكلم وينتقل إلى غيره ، ولكن هذا دليل على أن الله هو المتكلم بالقرآن ومنه سُمع لا أنه خلقه في غيره ..

وقد بين السلف والأئمة وأتباعهم فساد قول الجهمية وأتباعهم ـ الذين يقولون كلامه مخلوق ـ بوجوه كثيرة مثل قولهم : لو كان مخلوقاً في غيره لكان صفة لذلك المحل ولاشتق لذلك المحل منه اسم كما في سائر الصفات مثل العلم والقدرة والسمع والبصر والحياة وكما في الحركة والسكون والسواد والبياض وسائر الصفات التي تشترط لها الحياة فإنها إذا قامت بالمحل كانت صفة لذلك المحل دون غيره ، واشتق لذلك المحل منها اسم دون غيره ، فإن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل دون غيره ، وسُمي بالاسم المشتق منها ذلك المحل دون غيره ، وطرد هذا عند السلف وجمهور أهل الإثبات في أسماء الأفعال كالخالق والعادل وغير ذلك .

---

[1] الخلال هو الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون البغدادي الخلال توفي ٣١١هـ ، انظر السير (٢٩٧/١٤)، والعبر (٤٦١/١) والشذرات (٢٦١/٢) ، والبداية والنهاية (١٥٩/١١) .

[2] رواه الخلال برقم (١٨٥٩) ، وانظر الإبانة (٣٦/٢) برقم (٢٢٦) ، والفتاوى الكبرى (٦٤/٥) .

أما من لم يطرد ذلك بل زعم أنه يوصف بصفات الأفعال وهـــي عنـــده المفعولات المباينة له ويشتق له منها اسم فقوله متناقض ، ولهذا نقضت المعتزلة قول هؤلاء بما سلموه لهم وبسط هذا له موضع آخر .

[الفرق بين المتكلـــم والمريد]

والمقصود : هنا التنبيه على الفرق بين المتكلم والمريد وغيرهما حيث جاءت النصوص باسم العليم والقدير والسميع والبصير ، و لم تـــأت باســـم المريـــد والمتكلم بما يدل على مطلق الإرادة والكلام وإنما جاءت بما يدل علـى الكـلام المحمود والإرادة المحمودة لا باسم يشترك فيه المحمود والمذمـــوم وأن الكـــلام والإرادة مما يقوم بالرب تعالى ويوصف به ليس ذلك أمراً منفصلاً عنه كمـــا تزعم الجهمية، والتنبيه على أنه لو كان كلام الله مخلوقاً في محل لكان ذلـــك المحل هو المتكلم به، وكانت الشجرة مثلاً هي القائلة لموسى ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [طه:١٤] ولوجب أن يكون ما أنطق الله به بعـــض مخلوقاته كلاماً له وقد قـــال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت:٢١]، وقد كان النبي ﷺ يسلم عليه الحجر، وقال « **إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبـــل أن أبعث إني لأعرفه الآن** »[1]. وقد سبح الحصى بيديه حتى سُمع تســـبيحه[2] ، وأمثال ذلك كثير، والله هو الذي أنطق هذه الأجسام فلو كان ما يخلقه مـــن النطق والكلام كلاماً له لكان ذلك كلام الله كما أن القرآن كلام، وكـان لا

[1] رواه أحمـــد (٥/٨٩) ومســـلم (٧/٥٨) والـــترمذي (٣٦٢٤) والدارمـــي (٢٠) والطيالسي (١٩٠٧) وابن أبي شيبة (١١/٤٦٤) وأبو يعلـــى (٧٤٦٩) والطـــبراني في الكبير (١٩٠٧) وغيرهم كثير عن جابر بن سعدة وإسناده صحيح ، وانظر صحيـــح سنن الترمذي (٢٨٦٥) .

[2] حديث تسبيح الحصى رواه البيهقي وللفائدة انظر دلائل النبوة لابن كثير ص١٨١-١٨٢.

فرق بين أن ينطق هو وبين أن ينطق غيره من المخلوقات ، وهذا ظاهر الفساد.

[إنكار قدماء الجهمية لصفة الكلام]

(وكان قدماء الجهمية) تنكر أن يكون الله يتكلم، فإن حقيقة مذهبهم أن الله لا يتكلم ، ولهذا قتل المسلمون أول من أظهر هذا البدعة في الإسلام: الجعد ابن درهم [1]، ضحى به خالد القسري [2] في يوم النحر ، وقال: ضحوا أيها الناس تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً و لم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل فذبحه [3] ، ثم إنهم صاروا يقولون إنه متكلم مجازاً ثم أظهروا القول بأنه متكلم حقيقة وفسروا ذلك بأنه خالق للكلام في غيره ، وكان هذا من التلبيس على الناس فإن المتكلم عند الناس من قام به الكلام لا من أحدثه في غيره كما أن المريد والرحيم والسميع والبصير والعالم والقادر من قامت به الإرادة والرحمة والسمع والبصر والعلم والقدرة لا من أحدث ذلك في غيره وكذلك الإرادة .

(**ومن الجهمية والمعتزلة وغيرهم**) من يقول إنه لا إرادة له كما يقوله من يقوله من المعتزلة البغداديين ، ومنهم من يقول : له إرادة أحدثها لا في محل كما يقوله البصريون منهم ، والشيعة المتأخرون وافقوهم على ذلك ولهم قولان كالمعتزلة وهو من أفسد الأقوال من وجهين : من جهة إثباتهم

---

[1] مبتدع له أخبار في الزندقة قتل ١١٨هـ ، انظر الأعلام ٢/١٢٠.

[2] هو خالد بن يزيد بن أسد القسري الأمير الكبير، انظر النهاية ١٠/١٩، والسير ٥/٤٢٥-٤٣٢ ، والشذرات ١/١٦٩، قال فيه الذهبي: كان رافضياً خبيثاً كذاباً ساحراً ادعى النبوة ، فضل علياً على الأنبياء .

[3] قصة ذبح خالد القسري للجعد ضعيفة، مدارها على رواة مجاهيل انظر ميزان الاعتدال ٣/٣٨٧، وبالجملة انظر في ذلك رسالة : قصص لا تثبت ٣/٢٥١.

صفة لا في محل ، ومن جهة إثباتهم حادثاً أحدثه لا بإرادة .

(**فهذا المصنف**) احترز عن مذهب هؤلاء وأحسن في ذلك ، ولكن هذا المصنف اختصر هذه العقيدة من كتب المتكلمين الصفاتية الذين يثبتون ما ذكره من الصفات بما نبه عليه من الطرق العقلية ويسمون ذلك العقليات .

[الرد على الصفاتية في اعتبار أمر المعاد من السمعيات]

(**وأما أمر المعاد**) فيجعلونه كله من باب السمعيات لأنه ممكن في العقل والصادق قد أخبر به ، وأما المعتزلة والفلاسفة والكرامية[1] وغيرهم وكثير من أهل الحديث والفقه من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم وكثير من الصوفية وسلف الأمة وأئمتها فيجعلون المعاد أيضاً من العقليات ويثبتونه بالعقل، ويخوض أهل التأويل فيه كما خاضت الصفاتية في ذلك ، ولكن المصنف سلك في ذلك طريقة أبي عبد الله الرازي[2] فأثبت العلم والقدرة والإرادة والحياة بالعقل ، وأثبت السمع والبصر والكلام بالسمع ، ولم يثبت شيئاً من الصفات الخبرية ، وأما مَن قَبل هؤلاء كأبي المعالي الجويني[3] وأمثاله والقاضي أبي يعلى[4] وأمثاله فيثبتون جميع هذه الصفات بالعقل كما كان يسلكه القاضي أبو بكر ومن قبله كأبي الحسن الأشعري وأبي العباس

---

[1] فرقة تنسب إلى أبي عبد الله محمد بن كرام ، وهم طوائف بلغ عددهم اثنتي عشرة فرقة ، راجع في شأنها الفرق بين الفرق ٢١٥ ، والتبصير ٦٥ ، والملل والنحل ١٢٤ .

[2] هو فخر الدين الرازي محمد بن عمر القرشي الطبرستاني المفسر الكبير توفي سنة ٦٠٦ هـ انظر السير ٥٠٠/٢١، والدول ١١٢/٢، والنهاية ٦٠/١٣ .

[3] هو إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن أبي محمد بن عبد الله بن يوسف الجويني توفي سنة ٤٧٨هـ ، انظر العبر ٣٣٩/٢، والشذرات ٣٥٨/٣، والنهاية ١٣٦/١٢،

[4] هو القاضي محمد بن الحسين بن محمد بن خلف البغدادي الحنبلي أبو يعلى ، توفي سنة ؟! العبر ٣٠٩/٢، والشذرات ٣٠٦/٣، والدول ٢٦٩/١.

القلانسي[1] ومن قبلهم كأبي محمد بن كلاب[2] والحارث المحاسبي[3]، وغيرهما وهكذا السلف والأئمة كالإمام أحمد بن حنبل وأمثاله يثبتون هذه الصفات بالعقل كما ثبتت بالسمع وهذه الطريقة أعلى وأشرف من طريقة هؤلاء المتأخرين، كما سنبين إن شاء الله تعالى .

وأيضاً فأئمة الصفاتية المتقدمون كابن كلاب والحارث المحاسبي والأشعري وأبي العباس القلانسي وأبي عبد الله ابن مجاهد ،وأبي الحسن الطبري والقاضي أبي بكر ابن الباقلاني[4] ، وأبي إسحاق الاسفرائيني[5] وأبي بكر ابن فورك[6] وغيرهم يثبتون الصفات الخبرية التي ثبت أن رسول الله أخبر بها وكذلك سائر طوائف الإثبات كالسالمية والكرامية وغيرهم وهذا مذهب السلف والأئمة .

ولا ريب أن ما أثبته هؤلاء الصفاتية من صفات الله تعالى ثابت بالشرع مع العقل ، وهو متفق عليه بين سلف الأمة وأئمتها ، وإنما خصوا هذه الصفات بالذكر دون غيرها لأنها هي التي دل العقل عليها عندهم كما نبه عليه المصنف ، ولكن لا يلزم من عدم الدليل المعين عدم المدلول فلا يلزم نفي

---

[1] لم أجد له ترجمة غير أن ابن عساكر ذكره في تبين كذب المفتري ص ٣٩٨ .

[2] هو عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري ذكره ابن عساكر في تبيين كذب المفتري ص ٣٩٨ .

[3] هو الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي أبو عبد الله توفي سنة ٢٤٣هـ، انظر طبقات الصوفية ص٥٦، والحلية ٧٣/١٠، تاريخ بغداد ٢١١/٨، الأنساب ١٠٣/١٢ .

[4] هو الإمام القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، توفي سنة ٤٠٣هـ ، انظر الأنساب ٥١/٢، واللباب ١١٢/١ والسير ١٩٠/١٧ .

[5] هو الإمام أبو إسحاق الاسفرائيني إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران توفي سنة ٤١٨ ، وانظر السير ٣٥٣/٧، والعبر ٢٣٤/٢، والأنساب ٢٣٧/١ .

[6] محمد بن الحسن بن فورك أبو بكر الأنصاري توفي سنة ٤٠٦هـ ،انظر السير ٢١٤/١٧، والعبر ٢١٣/٢، والوافي ٣٤٤/٢ .

ما سوى هذه من الصفات ، والسمع قد أثبت صفات أخرى ، وأيضاً فـإن الرازي ونحوه ممن لم يثبت السمع طريقاً إلى إثبات الصفات ، ولا نزاع بينهم أنه طريق صحيح لكن يفرقون بين ما أثبتوه وبين ما توقفوا في ثبوته بأن العقل دل على ما أثبتناه و لم يدل على ما توقفنا فيه ، ولهم فيما لم يثبتوه طريقان : منهم من نفاه ومنهم من توقف فيه فلم يحكم فيه بإثبات ولا نفي ، وهذه طريقة محققيهم كالرازي والآمدي وغيرهما بل ومن الناس من يثبت صفات أخرى بالعقل .

[مذهب السلف في الأسماء والصفات]

فالذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل[1] فإنه قد علم بالشرع مع العقل أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله كما قال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى:١١] ، وقال تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥] قال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢] قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤]وقد علم بالعقل أن المثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ويجب له ما يجب له ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه ، فلو كان المخلوق مماثلاً للخالق للزم اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع ، والخالق يجب وجوده وقدمه ، والمخلوق يستحيل وجوب وجوده وقدمه ، بل يجب حدوثه وإمكانه فلو كانا متماثلين للزم اشتراكهما في ذلك فكان كل منهما يجب وجوده

---

[1] انظر في تعريف هذه المصطلحات الأربعة بتوسع كتاب: نواقض توحيد الأسماء والصفات للدكتور ناصر القفاري ، والعقد الثمين للشيخ العلامة محمد بن صالح بن عثيمين ٣٥-٣٦ .

وقدمه ويمتنع وجوب وجوده وقدمه ، ويجب حدوثه وإمكانه فيكـــون كـــل منهما واجب القدم ، واجب الحدوث ، واجب الوجود ليس واجب الوجود يمتنع قدمه لا يمتنع قدمه ، وهذا جمع بين النقضين .

[صفتا الرحمة والمحبة]

(فإذا عرفت هذا) فنقول: إن الله سمى نفسه في القرآن بالرحمن الرحيـــم ، ووصف نفسه في القرآن بالرحمة والمحبة كما قـــال تعـــالى : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر:٧] قال تعـــالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦] وقال تعـــالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المـــائدة:٥٤] قـــال تعـــالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ [التوبة:٤] ويحب المحسنين ويحب الصابرين، ويحب الذين يقاتلون في ســـبيله صفاً كانهم بنيان مرصوص ونحو ذلك .

(**ومن الناس**) من جعل حبه ورحمته عبارة عما يخلقه من النعمة كما جعل بعضهم إرادته عبارة عن ما يخلقه من المخلوقات ، وهذا ظـــاهر البطـــلان ، لاسيما على أصل الصفاتية ، ومنهم من جعل حبه ورحمته هي إرادته ونفى أن تكون له صفات هي الحب والرضا والرحمة والغضب غير الإرادة .

فيقال لهذا القائل : لم أثبت له إرادة وإنه مريد حقيقة ونفيت حقيقة الحب والرحمة ونحو ذلك ؟

فإن قال : لأن إثبات هذا تشبيه لأن الرحمة رقة تلحق المخلوق والرب ينزه عن مثل صفات المخلوقين .

قيل له : وكذلك يقول من ينازع في الإرادة أن الإرادة المعروفـــة ميـــل الإنسان إلى ما ينفعه وما يضره ، والله تعالى منزه عن أن يحتاج إلى عباده وهم لا يبلغون ضره ولا نفعه بل هو الغني عن خلقه كلهم ..

فإن قلت : الإرادة التي نثبتها لله ليست مثل إرادة المخلوق كما أنـــا قـــد

اتفقنا وسائر المسلمين على أنه حي عليم قدير وليس هو مثل سائر الأحيـــاء العلماء القادرين .

قال لك أهل الإثبات : وكذلك الرحمه والمحبة التي نثبتها لله ليست مثل رحمة المخلوق ومحبة المخلوق . فإن قلت : لا أعقل من الرحمة والمحبة إلا هذا ؟

قال لك النفاة : ونحن لا نعقل من الإرادة إلا هذا ومعلوم عند كل عـاقل أن إرادتنا ومحبتنا ورحمتنا بالنسبة إلينا كإرادته ورحمته ومحبته بالنسبة إليه ، فـلا يجوز التفريق بين المتماثلين فيثبت له إحدى الصفتين وتنفي الأخرى وليس في العقل ولا في السمع ما يوجب التفريق إذ أكثر ما يقـال أني أثبـت الإرادة بالعقل لأن وجود التخصيص في المخلوقات دل على الإرادات فيقال لـك: انتفاء الدليل المعين لا يقتضي انتفاء المدلول فهب أن مثل هذا الدليل لا يثبـت في الرحمة والمحبة فمن أين نفيت ذلك ؟ ثم يقال : بل السمع أثبت ذلـك أيضاً وقد يسلك في إثبات ذلك نظير الطريق العقلي الذي أثبت به الإرادة فيقـال: مـا في المخلوقات من وجود المنافع للمحتاجين ، وكشـف الضـر عـن المضرورين والإحسان إلى المخلوقات وأنواع الرزق والهدى والمسرات هو دليل على رحمة الخالق سبحانه والقرآن يثبت دلائل الربوبية بهذا الطريق؛ تارة يدلهم بالآيات المخلوقة على وجود الخالق ويثبت علمه وقدرته ومشـيئته ، وتـارة يدلهم بالنعم والآلاء على وجود بره وإحسانه المستلزم رحمته وهذا كثـير في القرآن وإن لم يكن مثل الأول أو أكثر منه و لم يكن أقل منه بكثـير كقولـه تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ ۝٢٢ ﴾ [البقـرة:٢١-٢٢] وقوله تعـالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ

بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة:٢٧]وقوله في سورة الرحمن بعد أن ذكر كل نوع من هذه الأنواع ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن:١٣] وبالجملة ما ذكره في القرآن من الأمثال والآيات تارة يقرر بها نفس مشيئتة وقدرته وخلقه وتارة يقرر بها إحسانه وإنعامه ورحمته ، وهذه الطريقة مستلزمة للأولى من غير عكس ، فإنه يلزم من وجود الإحسان والرحمة وجود القدرة والمشيئة من غير عكس ، وقس على هذا غيره من الصفات وأمره هو أيضاً مما يعلم بالسمع وبالعقل أيضاً كما تعلم إرادته وكما تعلم محبته ، وهذه المسائل مبسوطة في مواضع ، وإنما ذكرنا في هذا الشرح ما يناسب حال هذه العقيدة المختصرة المشروحة وقد بسطنا في غير هذا الموضع الكلام في محبة الله وذكرنا أن للناس في هذا الأصل العظيم ثلاثة أقوال: أحدها أن الله تعالى يُحِبُّ ويُحبُّ، كما قال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤] فهو المستحق أن يكون له كمال المحبة دون سواه ، وهو سبحانه يحب ما أمر به ، ويحب عباده المؤمنين ، وهذا قول سلف الأمة وأئمتها ، وهذا قول أئمة شيوخ المعرفة ، والقول الثاني: أنه يستحق أن يُحَبُّ لكنه لا يُحِبُّ إلا بمعنى أن يريد وهذا قول كثير من المتكلمين ومن وافقهم من الصوفية ، والثالث أنه لا يحب ولا يحب وإنما محبة العباد له إرادتهم طاعته وهذا قول الجهمية ومن وافقهم من متأخري أهل الكلام والرازي[1].

ومما يوضح ذلك أن وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر الله به ورسوله من صفاته ليس موقوفاً على أن يقوم عليه دليل عقلي على تلك الصفة بعينها فإنه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن الرسول إذا أخبرنا بشيء من صفات

---

[1] انظر في إثبات صفة المحبة : الطحاوية ١٦٤-١٦٥ط المكتب الإسلامي .

الله تعالى وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله عنهم : ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤]ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمناً بالرسول ولا متلقياً عنه الأخبار بشأن الربوبية ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به بل يتأوله أو يفوضه وما لم يخبر به إن علمه بعقله آمن به وإلا فلا فرق عند من سلك هذا السبيل بين وجود الرسول وإخباره وبين عدم الرسول وعدم إخباره ، وكان ما يذكره من القرآن والحديث والإجماع في هذا الباب عديم الأثر عنده وهذا قد صرح به أئمة هذا الطريق .

(ثم الطريق النبوية) فمنهم من يحيل على القياس[1] ،ومنهم من يحيل على الكشف[2] وكل من الطريقتين فيها من الاضطراب والاختلاف ما لا ينضبط وليست واحدة منهما تحصل المقصود بدون الطريق النبوية، والطريق النبوية تحصل الإيمان النافع في الآخرة بدون ذلك ، ثم إن حصل قياس أو كشف يوافق ما أخبر به الرسول كان حسناً مع أن القرآن قد نبه على الطرق الاعتبارية التي بها يستدل على مثل ما في القرآن كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [فصلت:٥٣] .

فأخبر أنه يُري عباده من الآيات المشهودة التي هي أدلة عقلية ما يتبين أن

---

[1] ليس المراد هنا القياس بالمعنى الاصطلاحي عند الأصوليين ، ولكن المراد هو القياس المنطقي وانظر في ذلك التعريفات للجرجاني ٢٣٠-٢٣٢ط عالم الكتب .

[2] الكشف هو الاطلاع على ما وراء الحجاب وهو مصطلح صوفي .

القرآن حق .

وليس لقائل أن يقول : إنما خصصت هذه الصفات بالذكر لأن السمع موقوف عليها دون غيرها فإن الأمر ليس كذلك لأن التصديق بالسمعيات ليس موقوفاً على إثبات السمع والبصر ونحو ذلك .

فصل

فإن قيل : إنما نفينا الرحمة والمحبة والرضا والغضب ونحو ذلك من الصفـات لأنه لا يعقل لها حقيقة تليق بالخالق إلا الإرادة فالمحبة والرضا إرادة الإحسان ، والغضب إرادة العقاب منه فالفرق بينهما بحسب تعلقاتها لأن هذه في نفسـها ليست عدة ، قيل : هذا باطل فإن نصوص الكتاب والسنة والإجماع مع الأدلة العقلية تبين الفرق فإن الله سبحانه يقـول : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمـر:٧] وقال تعالى : ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء:١٠٨] فبين أنه لا يرضى هذه المحرمات مع أن كل شيء كائن بسببه وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥] وقد علم بالاضطرار من دين الإسـلام وبإجماع سلف الأمة قبل حدوث أقوال النفاة من الجهمية ونحوهم أن الله يحب الإيمان والعمل الصالح ، ولا يحب الكفر والفسوق والعصيان ، وأنه يرضـى هـذا ولا يرضى هذا والجميع بمشيئته وقدرته ، والذيـن لم يفرقـوا لهـم تأويلات؛ تارة يقولون لا يرضاه لعباده المؤمنين فهم يقولون لا يحب الإيمـان والعمل الصالح ممن لم يفعله كما لم يرده ممن لم يفعله ويقولون: إنه يحب الكفر والفسوق ممن فعله كما أراده ممن فعله .

[الـرد على مـن نفى بعض صفـات الله]

وفساد هذا القول مما يعلم بالاضطرار من دين الإسـلام ، مـع دلالـة الكتـاب والسنة وإجماع السلف على فساده ، وتأويلهم الثـاني قـالوا : لا يرضاه ديناً كما يقولون لا يريده ديناً ، ومعناه عندهم أنه لا يريد أن يثيـب فاعله إذ جميع الموجودات والأفعال عندهم بالنسبة إليه سواء ، لا يحب منـها شيئاً دون شيء ولا يبغض منها شيئاً دون شيء ، وقد بُسط الكلام علـى فساد هذا القول وتناقضه في مواضع أخر .

وإنما المقصود هنا التنبيه على أن ما يجب إثباته لله تعالى من الصفات ليس مقصوراً على ما ذكره هؤلاء مع إثباتهم بعض صفاته بالعقل وبعضها بالسمع فإن من عرف حقائق أقوال الناس وطرقهم التي دعتهم إلى تلك الأقوال حصل له العلم والرحمة فعلم الحق ورحم الخلق ، وكان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهذه خاصة أهل السنة المتبعين للرسول ﷺ فإنهم يتبعون الحق ويرحمون من خالفهم باجتهاده حيث عذره الله ورسوله، وأهل البدع يبتدعون بدعة باطلة ويكفرون من خالفهم فيها .

فصل

ومن شأن المصنفين في العقائد المختصرة على مذهب أهل السنة والجماعة أن يذكروا ما تتميز به أهل السنة والجماعة عن الكفار والمبتدعين فيذكروا إثبات الصفات ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنه تعالى يُرى في الآخرة خلافاً للجهمية من المعتزلة وغيرهم ، ويذكرون أن الله خالق أفعال العباد وأنه مريد لجميع الكائنات وأنه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، خلافاً للقدرية[1] من المعتزلة وغيرهم ، ويذكرون مسائل الأسماء والأحكام والوعد والوعيد ، وأن المؤمن لا يكفر بمجرد الذنب ، ولا يخلد في النار خلافاً للخوارج[2] والمعتزلة ، ويحققون القول في الإيمان ويثبتون الوعيد لأهل الكبائر مجملاً خلافاً للمرجئة[3] ، ويذكرون إمامة الخلفاء الأربعة وفضائلهم خلافاً للشيعة[4] من الرافضة وغيرهم .

[تميز أهل السنة والجماعة عن الكفار والمبتدعين]

وأما الإيمان بما اتفق عليه المسلمون من توحيد الله تعالى والإيمان برسله والإيمان باليوم الآخر فهذا لابد منه ، وأما دلائل هذه المسائل ففي الكتب المبسوطة الكبار وهذا المصنف لم يسلك هذا الطريق بل أشار إشارة مختصرة إلى دليل ما ذكره من الأحكام و لم يستوف الأحكام التي تذكر في المعتقدات وعذره في ذلك أن يقول : ذكرت جمل الإقرار بالربوبية والرسالة والمعاد فذكرت صفات الله الثبوتية ، وذكرت الرسالة وما جاءت به النبوات من الإيمان بالمعاد .

[عدم استيفاء المصنف لأحكام المعتقدات]

(1) انظر في القدرية وعقائدها في : الفرق بين الفرق ص ١٨.

(2) انظر في الخوارج وفرقهم : الملل والنحل ١٣١.

(3) انظر في المرجئة الملل والنحل ١٥٩

(4) انظر في الشيعة : الملل والنحل ١٦٩.

وقوله إنه متكلم يناقض قول من قال : القرآن مخلوق ، فإن حقيقة قـــول أولئك أنه ليس بمتكلم وإثبات الإرادة عامة يتناول جميع الكائنـــات وإثبـــات القدرة المطلقة تتضمن أنه خالق كل شيء بقدرته ، وبهذين يخرج قول المعتزلة في الكلام والقدرة ، والمعترض عليه يقول : اقتصرت على بعض الصفات دون بعض .

[الـــرد على مـــن قال إنه غير متكلم]

فإن كنت اقتصرت على ما يعلم العقل عندك فقد ذكرت السمع والبصـــر والكلام وأثبت ذلك بالسمع ، وإن كنت ذكرت ما يتوقف تصديق الرســـول ﷺ فهو لا يتوقف عندك على إثبات السمع والبصر والكلام لأنك أثبت ذلك بالسمع ، وحقيقة الأمر أنك أثبت هذه الصفات السبع لأنها هي المشـــــهورة عند المتأخرين من الكلابية[1] كأبي المعالي وأمثاله بأنها العقليات ، ولكـــــن لم يثبتها جميعها بالعقل ، بل أثبت بعضها بالسمع موافقة للرازي فلــهذا لم تطرد له في ذلك طريق واحد ، وهو قد نبه على الأدلة تنبيهاً يعلم به جنس ما يثبت به من الأدلة وإلا فما ذكره من الأدلة لا يكفي في العلم بهذه الأحكام، فـــإن الدليل إن لم تقرر مقدماته ويجاب عما يعارضها لم يتم، فكيف إذا لم تقـــرر مقدماته بل ولا تثبت ونحن نزيد على ما ذكره على وجه تقريره .

[المصنـــف يبني دليلـــه علـــى مقدمتين]

فأما قوله: فالدليل على وجوده الممكنات لاستحالة وجودهـــا بنفســـها، واستحالة وجودها بممكن آخر ضرورة استغناء المعلول بعلته عن كل ما سواه وافتقار الممكن إلى علته؛ فهذا الدليل مبني على مقدمتين :

إحداهما : أن الممكنات موجودة .

والثانية : أن الممكن لا يوجد إلا بواجب الوجود .

---

[1] فرقة تنسب إلى عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري انظر الســـير ١٧٤/١١ والطبقات الكبرى للسبكي ٢٩٩/٢ .

[المقدمة الأولى]

والمقدمة الأولى لم يقررها بحال ولا يمكن أن يسلك في ذلك طريقة ابن سينا [1]، وأمثاله من المتفلسفة الذين قالوا: نفس الوجود يشهد بوجود واجب الوجود[2]، فإن الوجود إما ممكن وإما واجب والممكن مستلزم للواجب فثبت وجود الواجب على هذا التقرير .

فإن هذه الطريقة وإن كانت صحيحة بلا ريب لكن نتيجتها إثبات وجود واجب ، وهذا لم ينازع فيه أحد من العقلاء المعتبرين ولا هو من المطالب العالية ، ولا فيه إثبات الخالق ولا إثبات وجود واجب أبدع السموات والأرض كما يسلمه الإلهيون من الفلاسفة كأرسطو وأتباعه المشائين ،وإنما فيه أن الوجود وجود واجب ، وهذا يسلمه منكروا الصانع كفرعون والدهرية المحضة من الفلاسفة والقرامطة[3]ونحوهم ويقولون إن هذا الوجود واجب الوجود بنفسه وإلى هذا يَؤول أهل الوحدة القائلين بأن الوجود واحد فإنهم يقولون في آخر الأمر : ما ثم موجود مباين للسموات والأرض ، وما ثم غير وجود الموجود الممكن .

ومصنف العقيدة أثبت الصانع بهذا الطريق فإنه لما أثبت أنه صنع الممكنات أثبت علمه وقدرته فلابد أن يثبت أولاً وجود شيء ممكن ليس بواجب ليبني عليه ثبوت وجود واجب مبدع لوجود ممكن ليتم ما سلكه ، وأما مجرد إثبات وجود واجب فلا يفيد هذا المطلوب، فليفهم اللبيب هذا .

ولا ريب أنه اختصر هذه العقيدة من كتب أبي عبد الله ابن الخطيب ، وقد

---

[1] هو أبو علي الحسن بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي ثم البخاري انظر السير ١٧/٥٣٥ ، والعبر ٢/٢٥٨، والشذرات ٣/٢٣٤.

[2] تقدم تعريف ذلك المصطلح انظر ص٢٣.

[3] االقرامطة فرقة باطنية انظر في ذلك معجم الفرق ١١٦-١٢٠ط دار المسيرة، والعبر ٢/٣٨٧، والنهاية ١٢/١٨٥ .

تكلمنا على ما ذكره أبو عبد الله الرازي مبسوطاً في مواضعه ونحـــن نقـــدر وجود الممكنات ليتم ما ذكره المصنف من الدليل ، ويتبين أن هذا الطريـــق أصح في العقل وأبين مما يذكر في كتب الأصول والأمهات التي اختصرت منها هذه العقيدة لكونها موافقة لطريقة القرآن فإن الفاضل إذا تأمل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية ، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيـق ما قد نبهنا على بعضه في غير هذا الموضع .

فنقول : إنه يمكن تقريرها بما نشاهد من حدوث الحوادث فإنا نشـاهد من حدوث الحوادث حدوث الحيوان والنبات والمعادن ، وهذه الحوادث ليســت ممتنعة فإن الممتنع لا يوجد ولا واجبة الوجود بنفسها ، فإن واجب الوجـــود بنفسه لا يقبل العدم وهذه كانت معدومة ثم وجدت فعدمها ينفي وجوبهـــا ووجودها ينفي امتناعها وهذا دليل قاطع واضح بين على ثبوت الممكنـــات لكن من سلك هذا الطريق لم يحتج إلى أن يثبت إمكانها بحدوثها ثم يســـتدل بإمكانها على الواجب بل نفس حدوثها دليل على إثبات المحدث لها فإن العلـم بأن المحدث لابد له من محدِث أبين من العلم بأن الممكن لابد له من واجـــب فتكون تلك الطريق أبين وأقصر ، وهذه أخفى وأطول من حيـــث يســـتدل بالحدوث على الإمكان ثم بالإمكان على الواجب .

وإن كان بعض الناس يستدل بالحوادث على المحدث فـــإن الحـــوادث لا تختص بما هي عليه إلا بمخصص فإنه يجوز أن تقع على خلاف ما وقعت عليه فتخصيص أحد طرفي الممكن لابد له مخصص فهذا الاســـتدلال وإن كـــان صحيحاً فليس بمسلك سديد فإن العلم بأن المحدث لا بد له من محدث أبـــين مـــن هذا المحتاج إلى هاتين المقدمتين اللتين هما أخفى من ذلك ، ومن استدل على الجلي بالخفي فإنه وإن تكلم حقاً فلم يسلك طريق الاستدلال فإن كـــل

مستلزم للشيء يصلح أن يكون دليلاً عليه إذ يلزم من ثبوت اللـــزوم ثبـــوت اللازم والدليل ، وهذا من شأن الدليل فإنه من ثبوته ثبوت المدلـــول عليـــه ، ولهذا يجب طرد الدليل ولا يجب عكسه ، لكن إذا كان اللازم والمدلول عليه أظهر من الملزوم الذي هو الدليل كان الاستدلال باللزوم على اللازم خطأ في البيان والدلالة وإن سلك المصنف في إثبات الممكنات تقرير إمكان الأجســـام كلها ، فهذا دليل طويل وفيه مقدمات متنازع فيها نزاعاً طويلاً وكثير مـــن الناس يقدح فيها بما لم يمكن دفعه ، فإثبات الصانع بمثل هذه المقدمـــات لـــو كانت صحيحة كان الدليل باطلاً .

[المقدمـــة الثانية]

وأما **المقدمة الثانية** : وهي أن الممكن لابد له من واجب فقد نبه على هذه المقدمة بقوله (لاستحالة وجودها بنفسها) فإن الممكن هـــو الـــذي يقبـــل الوجود والعدم كما نشاهده من المحدثات ، وما كان قابلاً للوجود والعـــدم لم يكن وجوده بنفسه كما قـــال تعـــالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور:٣٥] ، يقول سبحانه : أحدثوا من غير مُحـــدِث أم هم أحدثوا أنفسهم ، ومعلوم أن الشي لا يوجِد نفسه فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجوداً بنفسه بل إن حصل ما يوجـــده وإلا كان معدوماً ، وكل ما أمكن: وجوده بدل عن عدمه وعدمه بدل عـــن وجوده فليس له من نفسه وجود ولا عدم، وهذا بين .

ومما يقرره أن ما يمكن عدمه بدلاً عن وجوده لا يكون وجوده بنفسه إذ لو كان وجوده بنفسه لكان واجباً بنفسه ، ولو كان واجباً بنفسه لم يقبل العدم ، وهو قد قبل العدم فليس موجوداً بنفسه لكان واجباً بنفسه، يقرر ذلك أن ما كان موجوداً فإما أن يكون مفتقراً في وجوده إلى غيره ، وإما أن لا يكون ، فإن كان مفتقراً في وجوده إلى غيره لم يكن وجوده بنفسه بل

بذلك الغير الذي هو مفتقر إليه أو به وبذلك الغير ، فعلى التقديرين لا يكون وجوده بنفسه ، وإن لم يكن مفتقراً في وجوده إلى غيره كان موجوداً بنفسه فالموجود بنفسه لا يكون مفتقراً إلى غيره ، والمفتقر إلى غيره لا يكون موجوداً بنفسه، فالموجود بنفسه الذي لا يفتقر إلى غيره واجب بنفسه ، إذ نفسه كافية في وجوده فلا يتوقف وجوده على شيء غير أنيته ، إن قدر أن إنيته شيء غير وجوده ، وإن قدر أن إنيته هي وجوده كما هو قول أهل السنة كان قول القائل: موجوداً بنفسه أي هويته ثابتة بهويته فحيث قدرت هويته لم يمكن عدمها، فالموجود بنفسه لا يقبل العدم ، وما قبل العدم فليس موجوداً بنفسه فيفتقر إلى غيره فكل ممكن مفتقر إلى غيره .

وهذه المقامات ثابتة في نفس الأمر ويمكن تحريرها بوجوه من الطرق والعبارات والمعنى فيها واحد فتبين قول المصنف لا ستحالة وجود الممكنات بأنفسها .

وأما قوله: واستحالة وجودها بممكن آخر ضرورة استغناء المعلول بعلته عن كل ما سواه وافتقار المعلول إلىعلته) فمقصوده أن يبين أن الممكنات كما لا توجد بأنفسها فلا توجد بممكن آخر

فيلزم أنه لابد له من واجب بنفسه وذلك لأنها لو وجدت بممكن استغنت به عما سواه لأن ذلك الممكن إن لم يكن علة تامة لوجودها لم توجد به ، وإن كان علة تامة لوجودها استغنت به عما سواه، فإن العلة التامة تستلزم وجود المعلول فلا يفتقر المعلول إلى غيرها فلو وجدت الممكنات بممكن لزم أن يستغني به عما سواه ، وذلك الممكن من جملة الممكنات والممكن مفتقر إلى غيره فيلزم أن يكون مفتقراً إلىعلة غير نفسه، والمفتقر إلى غيره لا يكون مستغنياً بنفسه فيلزم أن يكون مفتقراً إلى غيره غير مفتقر إلى غيره ، غنياً بنفسه ليس يغنى بنفسه ، وهو جمع بين النقيضين ، فلو كان فاعل الممكنات

كنها ممكناً لزم أن يكون هذا الممكن غنياً بنفسه ليس بغني بنفسه ، فقـيراً إلى غيره ، غير فقير إلى غيره حيث جعل ممكناً مفتقراً ، وجعل معلولاً بعلة تامـة فلا يفتقر فيلزم التناقض والأمر في هذا أوضح من هذا التطويل .

وإنما سلك هذا المصنف طريقة أبي عبد الله بن الخطيب الرازي فإن هذه طرقـه وكان ينسج على منواله ، وإلا فالعلم بأن جميع الممكنات تفتقر إلى غيرهـا كالعلم بأن هذا الممكن مفتقر إلى غيره ، فإن الافتقار إذا كان من جهة كونـه ممكنا سواء كان الإمكان دليل الافتقار أو علة الافتقار فهو يعمها كلها فـأي شيء قدر ممكنا كان الفقر ثابتاً فيه إلى غيره فلابد لكل ممكن من مفتقر إليـه كما لابد لهذا الممكن من غير يفتقر به، ومعلوم إن افتقار الشيء إلى بعـض أشد من افتقاره إلى نفسه فإذا كان الممكن لا يوجد بنفسه ولا يكون موجوداً بنفسه فكيف يكون موجوداً ببعضه وكيف يتصور أن يكون مجموع الممكنات موجودة بممكن من الممكنات وهي لا يكفي في وجودها مجموع الممكنـات والهيئة الاجتماعية لا تخرجها عن الإمكان الذي هو علة الافتقـار أو دليـل الافتقار ، وهذا بين ولله الحمد .

* * *

فصل

فلما قرر إثبات الصانع أخذ يثبت وحدانيته ، فقال : (والدليل على وحدته أنه لا تركيب فيه بوجه من الوجوه وإلا لما كان واجب الوجود لذاته ضرورة افتقاره إلى ما تركب منه ويلزم من ذلك أن لا يكون من نوعه اثنان إذ لو كان لزم وجود الاثنين بلا امتياز وهو محال ، وهذا الدليل أخذه من كلام أبي عبد الله الرازي وقد سلك فيه مسلك المتفلسفة كابن سينا وأمثاله ، فإن هذا هو عمدتهم فيما يدعونه من التوحيد وهو حجة باطلة ، ومقصودهم فيما يدعونه من التوحيد وقد بين ذلك علماء المسلمين كما بينه أبو حامد الغزالي في " تهافت الفلاسفة "، وكما قد صرح الرازي وغيره في هذه الطرق في مواضع أخر .

(وأما قوله: ويلزم من ذلك أن لا يكون من نوعه اثنان إذ لو كان لزم وجود الاثنين بلا امتياز وهو محال) فطريقهم في تقرير هذا أنه لو كان اثنان واجبا الوجود لكانا مشتركين في وجوب الوجود ، فإن كان كل منهما ممتاز عن الآخر بتعينه كان كل منهما مركباً مما به الاشتراك وما به الامتياز فيكون كل منهما مركباً وقد تقدم إن التركيب محال ، وإن لم يكن أحدهما ممتاز عن الآخر لزم وجود اثنين بلا امتياز .

[الرد على من قال إن الجسم مركب من وجوه سبعة]

وبهذه الحجة يثبتون إمكان الأجسام كلها لأنهم يقولون الجسم مركب إما من المادة والصورة ، وإما من الجواهر الفردة ، وكل مركب ممكن فبهذه الحجة تقوم الصفات ، وكانوا من أشد الناس تجهماً ، لأنهم زعموا أن إثبات الصفات ينافي هذا التوحيد ، وقد تفطن لفساد هذه الحجة من تفطن لها من الفضلاء كأبي حامد الغزالي وغيره وذلك من وجوه :

(أحدها) أن يقال: قول القائل إنه يلزم افتقاره إلى ما ركب منه وذلك

ينافي وجوب الوجود ممنوع لأن غاية ما فيه أن ما ركب منه جزء من أجزائه، وقول القائل: إن المركب مفتقر إلى جزئه ليس بأعظم من قوله: إنه مفتقر إلى كله ، فإن الافتقار إلى المجموع أشد من الافتقار إلى بعض المجموع ، فالمفتقر إلى المجموع مفتقر إلى كل جزء منه والمفتقر إلى جزء منه لا يلزم أن يكون مفتقراً إلى الجزء الآخر .

ومعلوم أن افتقاره إلى الجميع هو افتقاره إلى نفسه ، وهو معنى قوله هو واجب بنفسه ، فعلم أن وجوبه بنفسه لا يوجب الافتقار المنافي لوجوب الوجود .

(**الوجه الثاني**) أن يقال: وجوب الوجود الذي دل عليه الدليل ينفي أن يفتقر إلى أن يكون مفتقراً إلى شيء خارج عن نفسه إذ لو كانت الممكنات لابد لها من وجود غير ممكن موجود بنفسه ، وهذا ينفي أن يفتقر إلى شيء خارج عن نفسه فلو قيل أنه موجود بنفسه مستغن عن غيره وأنه مفتقر إلى غيره للزم الجمع بين النقيضين فأما ما هو داخل في مسمى نفسه فليس هو شيئاً خارجاً عن نفسه حتى يقال: افتقاره إليه ينافي وجوده بنفسه .

(**الوجه الثالث**) أن يقال: اسم الغير فيه اصطلاحان : أحدهما أن أحد الغيرين ما جاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر ، والآخر أن الغيرين ما جاز مفارقة أحدهما الآخر بوجود أو إمكان أو زمان ، والأول اصطلاح المعتزلة والكرامية ، والثاني اصطلاح الكلابية والأشعرية ، فإن قيل بالثاني فجزؤه وصفته ليس بغير له فلا يكون ثبوته موجباً لافتقاره إلى غيره ، وإن قيل بالأول فثبوت الغير ليس بهذا التغير لابد منه فإنه يمكن العلم بوجوده ، والعلم بوجوبه والعلم بإنه خالق والعلم بعلمه ، والعلم بإرادته ، وهم يعبرون عن ذلك بالعقل والعناية ، وهذه المعاني أغيار على هذا الاصطلاح وثبوتها لازم لواجب الوجود ، وإذا كان ثبوت هذه الأغيار لازماً له لم يجز القول بنفيها

لأن نفيها يستلزم نفي واجب الوجود وعلم أن مثل هذا وإن سمي تركيباً فليس منافياً لوجوب الوجود .

فإن قيل : واجب الوجود لا يفتقر إلى غيره قيل : لا يفتقر إلى غير يجوز مفارقته له أم لازم لوجوده ؟ فالأول حق ، وأما الثاني فممنوع ، ونبين ذلك بـ (**الوجه الرابع**) ، وهو أن يقال استعمال لفظ الافتقار في مثل هذا ليس هو المعروف في اللغة والعقل فإن هذا إنما هو تلازم بمعنى أنه لا يوجد المركب إلا بوجود جزء أو لا يوجد أحد الجزئين إلا بوجود الآخر أولا يوجد الجزء إلا بوجود الكل ، أو لا توجد الصفة إلا بوجود الموصوف ، أو لا يوجد الموصوف إلا بوجود الصفة .

ومعلوم أن الشيئين المتلازمين في الوجود لايجب أن يكون أحدهما مفتقراً إلى الآخر بل إن كان ممكنين جاز أن يكون معلولي علة واحدة أوجبتهما من غير أن يفتقر أحدهما إلى الآخر ، وأما الأمور المتلازمة كالأبوة والبنوة لا يجب أن يكون أحدهما مفتقراً إلى الآخر فإن افتقار الشيء إلى غيره إنما يكون إذا كان ذاك الغير مؤثراً في وجوده كتأثير العلة ، فأما المتلازمان اللذان يكون وجود أحدهما مستلزم لوجود الآخر معه فإنه وإن قيل إن وجوده شرط لوجوده لكن لا يلزم أن يكون مفتقراً إليه بحيث يكون علة له ، وإذا كان المراد بالافتقار هنا التلازم فذلك لا ينافي وجوب الوجود ، يوضح ذلك

(**الوجه الخامس**) : وهو أن يقال: لا ريب أنه يمتنع أن يكون شيئان كل منها علة للآخر لأن العلة متقدمة على المعلول فلو كان علة لعلته للزم تقدمه على نفسه لكونه علة العلة وتأخره عن نفسه لكونه معلول العلة وذلك جمع بين النقيضين ولهذا كان الدور القبلي محالاً ، ولا يمتنع أن يكون شيئان كل منهما شرط في الآخر لأن ذلك إنما يستلزم أن يكون كل منهما مع الآخر، وليس ذلك يمتنع، ولهذا قيل الدور المعي ليس بمحال فالمركب غايته أن

يكون كل من أجزائه مشروطاً بالجزء الآخر وأن يكون هو مشروطاً بأجزائه ولا يقتضي التركيب وجود جزء قبل جزء ولا وجود جزء قبل أجزائه فإذا قيل إنه مفتقر إلى جزئه كان معناه لا يوجد إلا بوجود جزئه معه ويستلزم ذلك وجود جزئه ثم ذلك الجزء ليس هو علة له ولا هو خارجاً عن نفسه فالقول بأن وجوده يستلزم وجود الجزء حق، والتعبير عن ذلك بأنه يقتضي أن يكون مفتقراً إلى جزئه، وجزؤه غيره ليس له معنى إلا ذلك ، وهذا لا يقتضي أنه مفتقر إلى علة ومحتاج إلى علة ولا شرط خارج عن واجب الوجود ولا دور قبلي وأما ما فيه من الدور المعي فليس ذلك بمحال ، ولا ينافي وجوب الوجود إلا أن يثبت أن مثل هذا التعدد ينافي وجوب الوجود وهم لم يثبتوا أن التعدد ينافي وجوب الوجود إلا بهذا فبطل أن يكون هذا دليلاً على بطلان التعدد في وجوب الوجود .

(**الوجه السادس**) : أن يقال: قول القائل واجب الوجود بنفسه هل يقتضي أن يكون مفتقراً إلى نفسه أم لا يقتضي ذلك، فإن افتقاره كان افتقاره إلى جزئه أولى وأحرى بالالتزام فلا يكون ممتنعاً وإن قيل لا يقتضيه قيل وكذلك التركيب لا يقتضي أن يكون المركب مفتقراً إلى جزئه فإنه إذا كانت نفسه لا توجد إلا بنفسه ولم يحسن أن يقال هو مفتقر إليها فالجميع الذي لا يوجد إلا بأجزائه أولى أن لا يقال له هو مفتقر إلى واحد منها إذ المركب ليس إلا الأجزاء وصورة التركيب .

(**الوجه السابع**) : أن يقال: المعنى المعروف من لفظ التركيب أن يكون الجزءان مفترقين فيركبهما جميعاً مركب ، لأن المركب اسم مفعول؛ ركبه مركب فهو مركب كما يركب الطبيخ من أجزائه والأدوية المركبة من أجزائها وأمثال ذلك ومعلوم أن المركب بهذا الاعتبار مفتقر إلى من يركبه غيره ، إذ لو كانت ذاته تقتضي التركيب لم يجز عليه التفرق ، وواجب

الوجود بنفسه لا يكون مفتقراً إلى شيء خارج عن نفسه لأن ذلك جمع بين النقيضين ، ولا ريب أن مثبتة الصفات ليس فيهم بل ولا في سائر فرق الأمة من يثبت هذا التركيب في حق الله تعالى ، ولكن المتفلسفة يسمون الموصوف مركباً ويسمون الصفات أجزاء فيقولون الإنسان مركب من الحيوانية والناطقية، والنوع مركب من الجنس والفصل ، فإما أن يريدوا بالحيوانية والناطقية جوهراً أو عرضاً ، فإن أرادوا بها جوهراً وهو الحيوان والناطق فالحيوان والناطق هما الإنسان وليس الجوهر الذي هو الإنسان ولا هو غير الجوهر الذي هو حيوان ناطق ، لكن الذهن يجرد هذه المعاني في الذهن فيتصور الناطق مطلقاً والحيوان مطلقاً والإنسان مطلقاً لكن تجريد الذهن لها لا يقتضي أن يكون في الخارج ثلاثة جواهر والعلم بهذا ضروري، وإن قيل إنه مركب من الحيوانية والناطقية وهما عرضان فالعرض لا يقوم إلا بالجوهر والحيوانية والناطقية صفة الإنسان ، فكيف يكون الجوهر مركباً من صفاته ، وصفاته لا قيام لها إلا به وهي مفتقرة إليه .

وإذا قالوا: لو سمينا هذا تركيباً، لم ننازع في الألفاظ نزاعاً لا فائدة فيه نقول: كل موجود فلابد أن يكون مركباً بهذا الاعتبار فإن وجود ذات عارية عن جميع الصفات ممتنع ، ووجود موجود مطلق لا يتعين ولا له حقيقة يختص بها عن سائر الحقائق ممتنع وكل ما اختص وتميز عن غيره فلا بد له من خاصة وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع ، ولسنا محتاجين هنا إلى إثبات وجوب مثل هذا ، بل يكفي أن نقول لا نسلم امتناع مثل هذا المعنى الذي سميتموه تركيباً ، وكثير من المتكلمين لا يسمون الاتصاف تركيباً بل يسمون التقدير تركيباً لأن المقدر مركب من الأجزاء الفردة أو من المادة والصورة ، وهذا

أيضاً فيه نزاع فطوائف من أهل الكلام كالهشامية[1] والضرارية[2] والنجارية[3] والكلابية[4] يقولون : ليس بمركب بحال ، ومن قال إنه مركب قال لا يمكن وجود أجزائه وحينئذ فيقال لهم كما قيل للمتفلسفة وهم يسمون نفي مثل هذا التركيب توحيداً ويدخلون في ذلك نفي الصفات فيجعلون نفي علم الله وقدرته وحياته وكلامه وسمعه وبصره وسائر صفاته من التوحيد ، ويسمون أنفسهم الموحدين كما يدعي المعتزلة إنهم أهل التوحيد والعدل ، ويعنون بالتوحيد نفي الصفات ..

ولما كان أبو عبد الله محمد بن التومرت على مذهب المعتزلة في نفي الصفات لقب أصحابه بالموحدين ، وقد صرح في كتابه الكبير بنفي الصفات ولهذا لم يذكر في مرشدته شيئاً من الصفات الثبوتية لا علم الله ولا قدرته ولا كلامه ولا شيئاً من صفاته الثبوتية وإنما ذكر السلوب والتوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ وأنزل به كتابه هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو توحيد ألوهيته المتضمن توحيد ربوبيته كما قال تعالى : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة:١٦٣] وقال تعالى: ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾

---

[1] الهشامية فرقة جعفرية قالت بإمامة جعفر وكان صاحبها يسمى هشام بن سالم الجواليقي .

[2] الضرارية هم أصحاب ضرار بن عمرو ظهر أيام واصل بن عطاء ، انظر معجم الفرق ٤٤ .

[3] النجارية أصحاب الحسين بن محمد النجار ، انظر في شأنها الفرق بين الفرق ٢٠٧ والعلل والنحل ١٠٠ ، والتبصير ٦١ .

[4] تقدم تعريفها .

[الأنبياء:٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [النحل:٣٦]. والمشركون كانوا يقرون بأن رب العالمين واحد لكن كانوا يعبدون معه غيره كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف:١٠٦] وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥] وقال تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩] .

(ونحن نوجه ذلك بعد ذكر حجته) ووجه نظمها أن يقال: واجب الوجود لا تركيب فيه وما لا تركيب فيه فهو واحد، فواجب الوجود واحد ، وإنما قلنا لا تركيب لأن المركب مفتقر إلى ما تركب منه وما تركب منه غيره، وواجب الوجود لا يفتقر إلى غيره فواجب الوجود لا تركيب فيه وهذا معنى قوله : (الدليل على وحدته أنه لا تركيب فيه بوجه وإلا لما كان واجب الوجود لذاته) أي لو كان فيه تركيب بوجه لما كان واجب الوجود لذاته ، ثم قال (ضرورة افتقاره إلى ما تركب منه) كان مركباً للزم ضرورة أن يفتقر إلى ما ركب منه ثم إنه حذف تمام الحجة وهو إذا افتقر إلى ما تركب منه كان مفتقراً إلى غيره ، وواجب الوجود لا يفتقر إلى غيره .

وأما قوله (ويلزم من ذلك أن لا يكون من نوعه اثنان إذ لو كان اثنان واجب الوجود فإن كان بينهما امتياز لزم تركيبهما مما به الاشتراك وما به الامتياز وإلا لزم عدم التعيين)

فيقال : الجواب عن ذلك من طريقين :

أحدهما أنهما إذا اشتركا في وجوب الوجود وامتاز كل منهما بتعينه فمعلوم أن وجوب أحدهما ليس هو عين وجوب الآخر كما أن عينه ليست عينه بل هذا واجب وهذا واجب . كما أن هذا عين وهذا عين واشتراكهما في وجوب الوجود المطلق كاشتراكهما في التعيين المطلق ، والمطلق إنما يكون مطلقاً في الأذهان لا في الأعيان فعين هذا واجبة وجوباً يخصها ، وعين هذا واجبة وجوباً يخصها ، والذهن يجرد وجوباً مطلقاً وتعيناً مطلقاً ، وإذا كان كذلك بطل قول القائل إن كلاً منهما مركب مما به الاشتراك وما به الامتياز بل ما به الاشتراك وهو الوجوب مثل ما به الامتياز وهو التعيين ، وهذه الحجة كثيرة في كلامهم والغلط فيها واقع لا حيلة فيه ، وإنما نشأ الغلط حيث أخذوا في الوجوب ما يشتركان فيه وفي التعيين ما يخص وهذا يمكن معارضته بمثله بأن يقال : هما مشتركان في التعيين إذ هذا معين وهذا معين ويمتاز كل منهما بوجوبه إذ لكل منهما وجوب يخصصه ، وإذا أمكن العكس تبين أن ما فعلوه تحكم محض .

(**الطريق الثاني**) أن يقال : هب أن هذا تركب مما به الاشتراك والامتياز لكن دليله على نفي مثل هذا التركيب باطل كما تقدم .

****

فصل

[الدليل على علم الله]

وأما قوله : والدليل على علمه إيجاده الأشياء لاستحالة إيجاده للأشياء مع الجهل) فهذا الدليل مشهور عند نظار المسلمين أولهم وآخرهم ، والقرآن قد دل عليه كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤] والمتفلسفة أيضاً سلكوه ، وبيانه من وجوه :

(**أحدها**) أن إيجاده للأشياء هو بإرادته كما سيأتي ، والإرادة تستلزم تصور المراد قطعاً ، وتصور المراد هو العلم فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة ، والإرادة مستلزمة للعلم فالإيجاد مستلزم للعلم .

(**الثاني**) إن المخلوقات فيها من الإحكام والاتقان ما يستلزم علم الفاعل لها لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير عالم ، وبهذين الطريقين يتقرر ما ذكره " ولهم طرق " منها أن من المخلوقات ما هو عالم والعلم صفة كمال؛ ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً ، وهذا له طريقان :

(**أحدهما**) : أن يقال نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق ، وأن الواجب أكمل من الممكن ونعلم ضرورة أنا إذا فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل منه فإذا لم يكن الخالق سبحانه عالم يلزم أن يكون غير عالم أي جاهلاً وهو ممتنع .

(**الثاني**) أن يقال: كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه بل هو أحق، والله سبحانه — وله المثل الأعلى — لا يستوي هو والمخلوق لا في قياس تمثيل ولا قياس شمول بل كل ما أُثبت لمخلوق فالخالق به أحق ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فتنزيه الخالق عنه أولى .

فصل

[الدليل على قدرة الله]

(وأما قوله والدليل على قدرته : إيجاده الأشياء، وهي إما بالذات وهو محال وإلا لكان العالم وكل واحد من مخلوقاته قديماً وهو باطل فتعين أن يكون فاعلاً بالاختيار وهو المطلوب) فقد يقال هذا إنما أثبت به أنه فاعل بالاختيار وإن كان لم يقرر مقدمات دليله ، وفعله بالاختيار يثبت الإرادة ولا يثبت القدرة ، وهو قد أثبت الإرادة فيما بعد : فظاهر هذا أنه كرر دليل الإرادة و لم يذكر على القدرة دليلاً لكن تقرير ذلك أن يقال إنه إما أن يكون المبدع للأشياء مجرد ذات عارية عن الصفات يستلزم وجوده المفعول كما يقوله المتفلسفة القائلون بقدم الأفلاك ، وإما أن يكون ذاتاً موصوفة بالصفات لا يجب معها وجود المخلوقات كما عليه أهل الملل .

(وإذا أردت التقسيم الحاضر قلت) الفاعل إما مجرد الذات ، وإما الذات بصفة فإن كان الأول فمعلوم أن العلة التامة تستلزم وجود المعلول فإذا كان مجرد الذات هو الواجب فمجرد الذات علة تامة فيلزم وجود المعلول جميعه ، ويلزم قدم جميع الحوادث وهو خلاف المشاهدة ، وإن كان الثاني فالصفة التي يصلح بها الفعل هي القدرة . أو يقال : فإذا لم يكن موجباً لذاته بل بصفة، تعين أن يكون مختاراً فإنه إما موجب بالذات ، وإما فاعل بالاختيار والمختار إنما يفعل بالقدرة إذ القادر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يفعل فأما من يلزمه المفعول بدون إرادته فهذا ليس بقادر بل ملزوم بمنزلة الذي تلزمه الحركات الطبيعية التي لا قدرة له على فعلها ولا تركها.

فصل

(وأما قوله: والدليل على أنه حي علمه وقدرته لاستحالة قيام العلم والقدرة بغير الحي) فهذا دليل مشهور للنظار يقولون قد علم أن من شرط العلم والقدرة : الحياة فإن ما ليس بحي يمتنع أن يكون عالماً إذ الميت لا يكون عالماً والعلم بهذا ضروري .

[الدليل على انه حيا]

وقد يقولون: هذه الشروط العقلية لا تختلف شاهداً ولا غائباً فتقدير عالم لا حياة به ممتنع بصريح العقل .

(وكذلك قوله: والدليل على إرادته تخصيصه الأشياء بخصوصياته واستحالة المخصص من غير مخصص) فإن هذا الدليل مشهور للنظار ويقرر هكذا أن العالم فيه تخصيصات كثيرة مثل تخصيص كل شيء بما له من القدر والصفات والحركات كطوله وقصره ، وطعمه ولونه ، وريحه وحياته ، وقدرته وعلمه وسمعه وبصره ، وسائر ما فيه مع العلم الضروري بأنه من الممكن أن يكون خلاف ذلك إذ ليس واجب الوجود بنفسه . ومعلوم أن الذات المجردة التي لا إرادة لها لا تخصص وإنما يكون التخصيص بالإرادة ، ولو قيل التخصيص هو بأسباب معلومة كالأرض والأشجار تكون مختلفة فإذا سقيت بماء واحد اختلف ثمارها لاختلاف القوابل كما أن الشمس تختلف آثارها بحسب القوافل كما تبيض الثوب وتسود وجه القصار وتلين اليابس الذي لم ينضج بما تجذبه إليه من الرطوبة وتجفف الرطب الذي كمل نضجه لانقطاع الرطوبة عنه .

قيل: هب أن الأمر كذلك فما الموجب لاختلاف القوابل حتى خصت هذه الشجرة وهذا الجسم بسبب آخر فلا بد أن ينتهي الأمر إلى سبب لا سبب وقه فإن قيل هو شيء صدر عنه كما تقول المتفلسفة لا يصدر عن الواحد إلا

واحد والصادر الأول هو العقل وصدر عن العقل عقل ونفس وفلك فهذا باطل لأنه إن كان الصادر الأول واحداً من كل وجه لم يصدر عنه أيضاً إلا واحد .

وإن كان فيه كثرة فقد صدر عن الواحد أكثر من واحد ، وإن قيل الكثرة عدمية لزم أن يصدر عن العدم وجود . ثم يقال: الفلك الثامن كثير الكواكب دون التاسع فما الموجب لكثرة كواكبه . ثم قيل: السبب الأول إن كان فيه اختصاص بصفة وقدر كان تخصيصه بالإرادة لأن التخصيص بذات الإرادة لها ممتنع بصريح العقل ، وإن قيل ليس له اختصاص بصفة وقدر قيل هذا يقتضي أن يكون وجوداً مطلقاً والمطلق لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان .

فصل

[التنازع حول صفة الكلام]

كثير من النظار كابن كلاب وموافقيه كالأشعري[1] وأكثر متبعيه من أهل الكلام والرأي والحديث والتصوف من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني وأبي الوليد الباجي[2] ، وأبي منصور الماتريدي[3]وغيرهم يقولون إنه يعلم المعلومات كلها بعلم واحد بالعين ، ويريد المرادات كلها بإرادة واحدة بالعين بل يقولون إن كلامه الذي يتضمن كل أمر أمر به ، وكل خبر أخبر به هو أيضاً واحد بالعين ، وإن كان جمهور العقلاء يقولون إن فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام ، ثم تنازع القائلون بهذا الأصل هل كلامه معنى فقط والقرآن العربي لم يتكلم به ولا بالتوراة العبرانية ، ولا تكلم بشيء من الحروف أو الحروف والأصوات التي نزل بها القرآن وغيره وهي قديمة أزلية على قولين .

ومن القائلين بقدم أعيان الحروف أو الحروف والأصوات من لا يقول هي واحدة بالعين بل يقول هي متعدده ، وإن كانت لا نهاية لها ويقول ثبوت حروف أو حروف معان لا نهاية لها في آن واحد وإنها لم تزل ولا تزال ، ومن القائلين بقدم معنى الكلام وأنه لم يتكلم بحروف من يقول القديم خمسة معان ،

---

[1] هو أبو الحسن علي بن اسماعيل بن أبي بشر إسحاق ، الأشعري المتكلم ، توفي ٣٢٢هـ انظر السير ١٥/٨٥ ، العبر ٢/٢٣ ، الشذرات ٢/٣٠٣ .

[2] هو الحافظ العلامة أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي الأندلسي القرطبي الباجي الذهبي ، توفي ٤٧٤هـ ، انظر دول الإسلام ٢/٦ ، الشذرات ٣/٣٤٤ ، تذكرة الحفاظ ٣/١١٧٨ .

[3] هو محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي انظر الجواهر ٣/٣٦٠ ، وتاج التراجم ٥٩ .

ومنهم من يقول: ذلك المعنى يعود إلى الخبر ويجعل الأمر داخلاً في معنى الخبر ومنهم من يرد الخبر إلى العلم ومنهم من يقول مع ذلك إن العلم ليس صفة قائمة بالعلم .

[أقوال السلف في هذا الأصل]

وأما أقوال السلف وعلماء الإسلام في هذا الأصل ، وما في ذلك من نصوص الكتاب والسنة فهذا أعظم من أن يسعه هذا الشرح ومن كتب التفسير المنقولة عن السلف مثل تفسير عبد الرزاق[1]، وعبد بن حميد وأحمد ابن حنبل ، وإسحاق بن راهويه[2]، وبقي بن مخلد ، وعبد الرحمن بن إبراهيم وعبد الرحمن بن أبي حاتم ، ومحمد بن جرير الطبري ، وأبي بكر ابن المنذر ، وأبي بكر ابن عبد العزيز ، وأبي الشيخ الأصفهاني ، وأبي بكر بن مردويه وغيرهم . من ذلك ما تطول حكايته وكذلك الكتب المصنفة في السنة والرد على الجهمية وأصول الدين المنقولة عن السلف مثل كتاب "الرد على الجهمية" لمحمد بن عبد الله الجعفي شيخ البخاري وكتاب "خلق الأفعال" للبخاري ، وكتاب السنة لأبي داود السجستاني ولأبي بكر الأثرم ، ولعبد الله بن أحمد بن حنبل ، ولحنبل بن إسحاق ، ولأبي بكر الخلال ، ولأبي الشيخ الأصفهاني ، ولأبي القاسم الطبراني، ولأبي عبد الله ابن منده وأمثالهم، وكتاب "الشريعة" لأبي بكر الآجري ، والإبانة لأبي عبد الله ابن بطة ، وكتاب الأصول لأبي عمر الطلمنكي وكتاب رد عثمان بن سعيد الدارمي وكتاب الرد على الجهمية له وأضعاف هذه الكتب[3] ، وذلك مثل ما ذكره الخلال وغيره عن إسحاق بن

---

[1] هو عبد الرزاق بن همام بن نافع أبو بكر الصنعاني ، توفي سنة ٢١١هـ ، انظر التقريب ٥٠٥/١ ، الميزان ٦٠٩/٢ التذكرة ٣٦٤/١ .

[2] هو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المعروف بابن راهويه ، توفي سنة ٢٣٨هـ ، انظر السير ٣٥٨/١١ العبر ٣٣٤/١ ، الشذرات ٨٩/٢ .

[3] جميع هؤلاء الأئمة من أئمة السلف وكثير من كتبهم المذكورة مطبوعة وهي حجة =

راهويه حدثنا بشر بن عمر قال : سمعت غير واحد من المفسرين يقول : (الرحمن على العرش استوى أي ارتفع) .

وقال البخاري في صحيحه قال أبو العالية استوى إلى السماء ارتفع وقال مجاهد استوى : **علا على العرش** ، وقال البغوي[1] في تفسيره : قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف استوى إلى السماء : ارتفع إلى السماء ، وكذلك قال الخليل بن أحمد ، وروى البيهقي عن الفراء: استوى أي صعد وهو كقول الرجل كان قاعداً فاستوى قائماً .

وروى الشافعي في مسنده عن أنس بن مالك أنه قال عن يوم الجمعة وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش ، وروى أبو بكر الأثرم عن الفضيل ابن عياض[2] قال : ليس لنا أن نتوهم في الله كيف وكيف لأن الله وصف فأبلغ فقال : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ ﴾ [الإخلاص:١-٢] فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه ومثل هذا النزول والضحك وهذه المباهاة وهذا الاطلاع كما شاء أن ينزل وكما شاء أن يضحك فليس لنا أن نتوهم أن ينزل عن مكانه كيف وإذا قال لك الجهمي أنا كفرت برب ينزل فقل أنت أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء .

وقال البخاري في كتاب خلق الأفعال والفضيل بن عياض: إذا قال لك الجهمي أنا أكفر برب يزول عن مكانه فقل : أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء .

= على من خالف السلف .

[1] هو الإمام الحافظ أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ، توفي سنة ٣١٧هـ ، انظر تاريخ بغداد ١١١/١٠ ، لسان الميزان ٣٣٨/٣ ، الكامل ١٦١/٨ ، المنتظم ٢٢٧/٦ .

[2] هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي الخراساني ، توفي سنة ١٧٨ هـ، انظر تهذيب التهذيب ٢٩٤/٨ ، التاريخ الصغير ٢٤/٢ ، الميزان ٣٦١/٣ .

قال البخاري : وحدث يزيد بن هارون[1] عن الجهمية فقال : من زعم أن الرحمن على العرش استوى على خلاف ما تقرر في قلوب العامة فهو جهمي ، وروى الخلال عن سليمان بن حرب[2] أنه سأل بشر بن السري حماد بن زيد[3] فقال يا أبا إسماعيل : الحديث ينزل الله إلى السماء الدنيا أينحول من مكان إلى مكان فسكت حماد بن زيد ثم قال هو في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء ، وهذا نقله الأشعري في كتاب المقالات[4] عن أهل السنة والحديث فقال : ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن النبي ﷺ ، ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩] ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين ولا يحدثون في دينهم ما لم يأذن به الله ويقرون أن الله يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢] ، وأن الله يقرب من خلقه كما يشاء كما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] .

(ثم قال الأشعري : وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب) .

---

[1] هو الإمام الثقة أبو خالد يزيد بن هارون السلمي الواسطي ، توفي سنة ٢٠٦هـ ، انظر السير ٣٥٨/٩ ، العبر ٢٧٥/١ ، تاريخ بغداد ٣٣٧/١٤ ، الشذرات ٢٧١/١٠ .

[2] هو الحافظ الثقة أبو أيوب سليمان بن حرب بن بجيل الواشحي الأزدي ، توفي سنة ٢٢٤هـ .

[3] هو أبو إسماعيل ، حماد بن زيد بن درهم الأزدي الثقة الثبت الفقيه ، توفي سنة ١٧٩هـ ، انظر السير ٤٥٦/٧، الشذرات ٢٩٢/١ ، التقريب ١٩٧/١ ، النهاية ١٨٠/١٠ .

[4] اسم الكتاب (مقالات الإسلاميين وإختلاف المصلين) .

وقال أبو عثمان النيسابوري الملقب بشيخ الإسلام[1] في رسالته المشـــهورة في السنة قال: ويثبت أهل الحديث نزول الرب سبحانه في كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف ، بل يثبتون لـــه ما أثبته له رسول الله ﷺ وينتهون فيه إليه ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكـره على ظاهره ، ويكلون علمه إلى الله وكذلك يثبون ما أنزل الله في كتابه مـــن ذكر المجيء والإتيان في ظلل من الغمام والملائكة وقوله عز وجـــل : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢] .

وقال: سمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت أبا زكريا يحيى بـــن محمد العنبري[2] يقول سمعت إبراهيم بن أبي طالب[3] سمعت أحمد بن ســـعيد الرباطي[4] يقول حضرت مجلس الأمير عبد الله بن طاهر[5] ذات يوم ، وحضر إسحاق بن إبراهيم يعني ابن راهويه فسئل عن حديث النزول صحيح هـــو ؟ فقال: نعم، فقال بعض قواد عبد الله : يا أبا يعقوب أتزعم أن الله ينزل كـــل ليلة قال نعم قال كيف ينزل قال أثبته فوق حتى أصـــف لك النزول فقـــال

---

[1] هو شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني ، إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد النيسابوري ، توفي سنة ٤٤٩هـ ، انظر الشذرات ٢٨٢/٣ ، السير ٤٠/١٨ ، العبر ٢٩٤/٢ .

[2] هو الإمام الثقة المحدث الحافظ الأديب المفسر ، أبو زكريا يحيى بن محمد النيســابوري العنبري ، توفي ٣٤٤ ، انظر السير٥٣٣/١٥ ، العبر ٦٩/٢ ، الشذرات ٣٦٩/٢ .

[3] هو الإمام الحافظ المجود إبراهيم بن أبي طالب محمد بن نوح ، توفي سنة ٢٥٩ ، انظر السير ٥٤٧/١٣ ، العبر ٤٢٧/١ .

[4] هو الإمام الثقة أمير الرباط أبو عبد الله أحمد بن سعيد الرباطي ، توفي سنة ٢٤٥هـ ، انظر السير ٢٠٧/١٢ ، الشذرات ١٠٢/٢ .

[5] هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الأمير العادل ، توفي ســـنة ٢٣٠ هـ ، انظر تاريخ بغداد ٣٦٠/١١ ، الميزان ١١٦/٣ ، الشذرات ٦٨/٢ .

الرجل أثبته فوق. ، فقال إسحاق : قال الله تعـالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ فقال له الأمير عبد الله بن طاهر : يا أبا يعقوب هذا يـوم القيامة فقال إسحاق أعز الله الأمير من يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم ؟!

وروى بإسناده عن إسحاق قال قال لي الأمير عبد الله بن طاهر: يـا أبـا يعقوب هذا الحديث الذي ترونه عن النبي ﷺ : ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف يترل قال قلت : أعز الله الأمير لا يقال لأمر الرب كيف ينزل إنما ينزل بلا كيف .

وبإسناده أيضاً عن عبد الله بن المبارك أنه سأله سـائل عـن النزول ليلة النصف من شعبان فقال عبد الله: يا ضعيف ليلة النصف أي وحدها هو ينزل في كل ليلة فقال الرجل يا أبا عبد الرحمن كيف ينزل ألم يخل ذلك المكـان فقال عبد الله بن المبارك ينزل كيف شاء قال أبو عثمان النيسابوري: فلمـا صح خبر النزول عن النبي ﷺ أقر به أهل السنة ، وقبلوا الحديـث ، وأثبتـوا النزول على ما قاله رسول الله ﷺ ، ولم يعتقدوا تشبيهاً له بنزول خلقه وعلموا وعرفوا واعتقدوا وتحققوا أن صفات الرب لا تشبه صفات الخلق ، كما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق سبحانه وتعالى عمـا يقول المشبهة والمعطلة علواً كبيراً .

وروى البيهقي بإسناده عن إسحاق بن راهويه قال: جمعني وهذا المبتدع ـ يعني ابن صالح ـ مجلس الأمير عبد الله بن طاهر فسألني الأمير عـن أخبـار الترول فثبتها فقال إبراهيم : كفرت برب ينزل من سماء إلى سمـاء ، فقلـت آمنت برب يفعل ما يشاء، فرضي عبد الله كلامي ، وأنكر على إبراهيـم ، وقال حرب بن إسماعيل الكرماني في كتابه المصنف في مسائل أحمد وإسـحاق مع ما ذكر فيها من الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ومن بعدهم قال : (باب القول في المذهب) هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر المعروفين

بها المقتدى بهم فيها ، وأدركت من علماء العراق والحجاز والشام عليها فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب[1] ، أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن سبيل السنة ومنهج الحق ، وهو مذهب أحمد وإسحاق بن إبراهيم وبقي بن مخلد ، وعبد الله بن الزبير الحميدي ، وسعيد ابن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم[2] .

[الكلام في الإيمان والقدر وأشراط الساعة وغيرها]

وذكر الكلام في الإيمان والقدر ، والوعيد والإمامة ، وما أخبر به الرسول ﷺ من أشراط الساعة وأمر البرزخ وغير ذلك (إلى أن قال) وهو سبحانه بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان ، ولله عرش وللعرش حملة يحملونه وله حد الله أعلم بحده ، والله تعالى على عرشه عز ذكره وتعالى جده ولا إله غيره، والله تعالى سميع لا يشك ، بصير لا يرتاب ، عليم لا يجهل ، جواد لا يبخل، حليم لا يعجل ، حفيظ لا ينسى ، يقظان لا يسهو ، رقيب لا يغفل . يتكلم ويتحرك ، ويسمع ويبصر ، وينظر ويقبض ، ويبسط ويفرح ، ويحب ويكره ، ويبغض ويسخط ويغضب ويرحم ، ويعفو ويغفر ، ويعطي ويمنع ، ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء، متكلماً عالماً تبارك الله أحسن الخالقين .

وروى أبو بكر الخلال في كتاب السنة قال أخبرني به يوسف بن موسى[3] أن أبا عبد الله ــ يعني أحمد بن حنبل ــ قيل له: أهل الجنة ينظرون إلى ربهم

---

[1] المراد بالمذاهب هنا المذاهب العقدية لا الفقهية .

[2] هذا الكلام هو الضابط في متى يخرج الرجل من دائرة أهل السنة ويلحق بأهل البدعة وهو إذا خالف أصلاً من الأصول التي أجمع عليها أهل السنة أو طعن فيها أو عاب وشنع من دعا إليها ، انظر السنة للإمام أحمد ، ومنهاج السنة ١٦٣/٢ .

[3] هو الإمام المحدث أبو يعقوب يوسف بن موسى بن راشد الكوفي القطان ، توفي سنة ٢٥٣هـ ، انظر السير ٢٢١/١٢ ، تهذيب التهذيب ٤٢٥/١١ ،تاريخ بغداد ٣٠٤/١٤ .

ويكلمونه ويكلمهم قال : نعم ينظر إليهم وينظرون إليه ، ويكلمهم ويكلمونه كيف شاء وإذا شاء ، وقال أيضاً : أخبرني عبد الله بن حنبل أخبرني أبي حنبل ابن إسحاق قال : قال عمي : نحن نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء قال الخلال : وأخبرني علي بن عيسى أن حنبلاً حدثهم قال قلت لأبي عبد الله : الله يكلم عبده يوم القيامة ؟ قال نعم فمن يقضي بين الخلائق إلا الله عز وجل يكلم عبده ويسأله ، الله متكلم لم يزل الله متكلماً يأمر بما شاء ، ويحكم بما شاء ، وليس له عِدل ولا مثل كيف شاء وأين شاء . قال الخلال وأن محمد بن علي بن بحر أن يعقوب بن بختان حدثهم أن أبا عبد الله سئل عمن زعم أن الله لم يتكلم بصوت . قال: بلى تكلم بصوت وهذه الأحاديث كما جاءت نرويها لكل حديث وجه يريدون أن يموهوا على الناس، إن من زعم أن الله لم يكلم موسى فهو كافر .

وأخبرنا المروزي[1] سمعت أبا عبد الله وقيل له أن عبد الوهاب قد تكلم ، وقال من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمي عدو الله وعدو الإسلام فتبسم أبو عبد الله وقال ما أحسن ما قال عافاه الله ، وعن عبد الله بن أحمد أيضاً سألت أبي عن قوم يقولون لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت فقال أبي بل تكلم تبارك وتعالى بصوت وهذه الأحاديث نرويها كما جاءت ، وحديث ابن مسعود : إذا تكلم الله بالوحي سمع له صوت كجر السلسلة على الصفوان[2] قال أبي: والجهمية تنكره ، قال أبي : وهؤلاء كفار يريدون أن يموهوا على الناس ، إن من زعم أن الله لم يتكلم فهو كافر .

---

[1] هو الإمام القدوة المحدث الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروزي صاحب أحمد بن حنبل، توفي سنة ٢٧٥هـ انظر الدول ١٦٦/١ ، النهاية ٥٨/١١ ، العبر ٣٩٦/١

[2] رواه أبو داود ٤٧٣٨ ، والبخاري تعليقاً في كتاب التوحيد ، وابن خزيمة في كتاب التوحيد ٢٠٧-٢٠٩ .

[مذهب السلف حول الصوت الذي تكلم الله به]

(قلت) قد بين الإمام أحمد وغيره من السلف أن الصوت الذي تكلم الله تعالى به ليس هو الصوت المسموع ، وسئل أحمد عن قوله ﷺ ((**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**))[1] قال هو الرجل يرفع صوته به، هذا معناه، وقال في قوله ﷺ ((**زينوا القرآن بأصواتكم**))[2]: يحسنه بصوته وقال البخاري في كتاب خلق الأفعال : ويذكر عن النبي ﷺ أن الله ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب وليس هذا لغير الله[3] قال البخاري وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق ، لأن صوت الله يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، وأن الملائكة يصعقون من صوته[4] فإذا ينادي الملائكة لم يصعقوا قال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة:٢٢] فليس لصفة الله ند ولا مثل ، ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين .

ثم روى بإسناده حديث عبد الله بن أنيس قال سمعت النبي ﷺ يقول : ((**يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وواحد من أهل النار يطلبه بمظلمة**))[5] وذكر الحديث الذي رواه أيضاً في صحيحه في هذا

---

[1] رواه أبو داود بإسناد صحيح وأصله في البخاري برقم ٥٠٢٤ ، ومسلم برقم ٧٩٢ ، عن أبي هريرة .

[2] رواه أبو داود برقم ١٤٦٨ ، والنسائي ١٧٩/٢ ، وابن ماجة برقم ١٣٤٢ ، عن البراء بن عازب ، وإسناده صحيح .

[3] رواه البخاري تعليقاً في كتاب التوحيد ، ورواه موصولاً في الأدب المفرد ٩٧٠ ، ورواه أحمد ٣٩٥/٣ ، والحاكم ٤٣٧/٢ ، وصححه ووافقه الذهبي .

[4] رواه البخاري ٤٧٠١ ، ٤٨٠٠ ، عن أبي هريرة .

[5] تقدم تخريجه انظر هامش (٣).

المعنى في قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ [سبأ:٢٣] عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ : " يقول الله يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج ذريتك بعثاً إلى النار قال: يارب ما بعث النار قال من كل ألف أراه قال : تسعمائه وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحامل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد[1] .

وذكر البخاري حديث ابن مسعود الذي استشهد به أحمد وذكر الحديث الذي رواه في صحيحه عن عكرمة قال : سمعت أبا هريرة يقول إن نبي الله ﷺ قال : ((**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان**))[2] ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ:٢٣] .

وذكر البخاري حديث ابن عباس المعروف من حديث الزهري عن علي ابن الحسين عن ابن عباس عن نفر من الأنصار وقد رواه أحمد ومسلم في صحيحه وساقه البخاري من طريق ابن إسحاق عنه أن رسول الله ﷺ قال لهم: " **ما تقولون في هذه النجوم التي يُرمى بها قالوا: كنا نقول حين رأيناها يرمى بها : مات ملِك، ولد مولود فقال رسول الله ، ليس ذلك كذلك ولكن إذا قضى الله في خلقه أمراً يسمعه حملة العرش فيسبحون فيسبح من تحتهم بتسبيحهم فيسبح من تحت ذلك فلم يزل التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا حتى يقول بعضهم لبعض لم سبحتم فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا بتسبيحهم فيقولون ألا تسألون من فوقكم لم سبحتم فيسألونهم**

---

[1] رواه البخاري برقم ٣٣٤٨ .

[2] أخرجه البخاري برقم ٧٤٨١ .

فيقولون قضى الله في خلقه كذا وكذا الأمر الذي كان يهبط الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدثون به فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم منهم واختلاف ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدثهم فيخطئون ويصيبون فيحدث به الكهان "[1].

[كلام الرب ليس بمخلوق]

قال البخاري : ولقد بين نعيم بن حماد[2] أن كلام الرب ليس بخلق ، وأن العرب لا تعرف الحي من الميت إلا بالفعل فمن كان له فعل فهو حي ومن لم يكن له فعل فهو ميت ، وأن أفعال العباد مخلوقة فضيق عليه حتى مضى لسبيله وتوجع أهل العلم لما نزل به .

قال البخاري : وفي اتفاق المسلمين دليل على أن نعيماً ومن نحا نحوه ليس بمارق ولا مبتدع .

وقال أبو عبد الله ابن حامد في كتابه في أصول الدين : ومما يجب الإيمان به التصديق بأن الله متكلم ، وأن كلامه قديم ، وأنه لم يزل متكلماً في كل أوقاته موصوفاً بذلك ، وكلامه قديم غير محدث كالعلم والقدرة ، قال: وقد علم أن المذهب أن كون الكلام صفة ومتكلماً به و لم يزل موصوفاً بذلك ومتكلماً إذا شاء وبما شاء ، ولا نقول إنه ساكت في حال ومتكلم في حال من حيث حدوث الكلام . قال ولا خلاف عن أبي عبد الله ــ يعني أحمد بن حنبل ــ أن الله لم يزل متكلماً قبل أن يخلق الخلق وقبل كل الكائنات وأن الله كان فيما لم يزل متكلماً كيف شاء وكما شاء ، إذا شاء أنزل كلامه وإذا

[1] رواه مسلم برقم ٢٢٢٩ ، والترمذي برقم ٣٢٢٤ ، وأحمد ٢١٨/١ ، والنسائي في التفسير برقم ٢٩٢ ، والطحاوي في مشكل الآثار ٢١٣/٣ ، وأبو نعيم في الحلية ١٤٣/٣ .

[2] هو أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الإمام العلامة صاحب التصانيف توفي سنة ٢٢٩هـ ، انظر الدول ١٣٨/١ ، السير ٥٩٥/١٠ ، الشذرات ٦٧/٢ .

شاء لم ينزله ، فقد ذكر ابن حامد أنه لا خلاف في مذهب أحمد أنه سبحانه لم يزل متكلماً كيف شاء وكما شاء . ثم ذكر قولين هل هو متكلم دائماً بمشيئته أو أنه لم يزل موصوفاً بذلك متكلماً إذا شاء ، وساكتاً إذا شاء لا بمعنى أنه يتكلم بعد أن لم يزل ساكتاً فيكون كلامه حادثاً كما يقول الكرامية فإن قول الكرامية في الكلام لم يقل به أحد من أصحاب أحمد ؛ وكذلك ذكر القولين أبو بكر عبد العزيز[1] في أول كتابه الكبير المسمى بالمقنع .

وقد ذكر ذلك عنه القاضي أبو يعلى في كتاب إيضاح البيان في مسألة القرآن . قال أبو بكر : لما سألوه إنكم إذا قلتم لم يزل متكلماً كان ذلك عبثاً فقال: لأصحابنا قولان أحدهما أنه لم يزل متكلماً كالعلم لأن ضد الكلام الخرس كما أن ضد العلم الجهل قال ومن أصحابنا من قال أثبت لنفسه أنه خالق ، و لم يجز أن يكون خالقاً في كل حال بل قلنا إنه خالق في وقت إرادته أن يخلق ، وإن لم يكن خالقاً في كل حال و لم يبطل أن يكون خالقاً كذلك وإن لم يكن متكلماً في كل حال لم يبطل أن يكون متكلماً بل هو متكلم خالق وإن لم يكن خالقاً في كل حال ولا متكلماً في كل حال ، قال القاضي أبو يعلى في هذا الكتاب : نقول أنه لم يزل متكلماً وليس بمتكلم ، ولا مخاطب ولا آمر ولا ناه ، نص عليه أحمد في رواية حنبل فقال : لم يزل الله متكلماً عالماً غفوراً قال : وقال في رواية عبد الله لم يزل متكلماً إذا شاء وقال حنبل في موضع آخر : سمعت أبا عبد الله يقول : لم يزل الله متكلماً والقرآن كلام الله غير مخلوق .

(قلت) أحمد أخبر بدوام كلامه سبحانه و لم يخبر بدوام تكلمه بالقرآن بل

---

[1] هو الفقيه الحنبلي المعروف بغلام أحد مشاهير الحنابلة الأعيان وممن صنف وجمع وناظر وسمع، قال ابن الجوزي: وله المقنع في مائة جزء، توفي سنة ٣٦٣هـ ، انظر السير ١٤٣/١٦ ، تاريخ بغداد ٤٥٩/١٠ ، العبر ١٦٦/٢ .

قال والقرآن كلام الله غير مخلوق .

قال القاضي: قال أحمد في الجزء الذي رد فيه على الجهمية والزنادقة وكذلك الله يتكلم كيف شاء من غير أن نقول من جوف ولا فم ولا شفتين ، قال بعد ذلك : بل نقول إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ولا نقول إنه كان ولا يتكلم حتى خلق وقال أبو إسماعيل الأنصاري الملقب بشيخ الإسلام في مناقب الإمام أحمد لما ذكر كلامه في مسألة القرآن وترتيب حدوث البدع قال

[رد الإمام أحمد على الجهمية والزنادقة في صفة الكلام]

وجاءت طائفة فقالت لا يتكلم بعدما تكلم فيكون كلامه حادثاً ، قال : وهذه أغلوطة أخرى في الدين غير واحدة ، فانتبه لها أبو بكر ابن خزيمة[1] وكانت نيسابور دار الآثار تمد إليها وتشد إليها الركائب ويجلب منها العلم فابن خزيمة في بيت ومحمد بن إسحاق ــ يعني السراج[2] ــ في بيت ، وأبو حامد ابن الشرقي في بيت ، قال فطار لتلك الفتنة الإمام أبو بكر فلم يزل يصيح بتشويهها ، يصنف في ردها كأنه منذر جيش حتى دُوِّن في الدفاتر وتمكن في السرائر وتفسير في الكتاتيب ونقش في المحاريب أن الله متكلم إن شاء تكلم وإن شاء سكت ، قال فجزى الله ذلك الإمام وأولئك النفر على نصر دينه وتوقير نبيه خيراً [3].

(قلت) لفظ السكوت يراد به السكوت عن شيء خاص، وهذا مما جاءت

---

[1] هو الحافظ الكبير أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري توفي سنة ٣١١هـ انظر السير ٣٦٥/١٤ ، العبر ٤٦٢/١ ، الشذرات ٢٦٢/٢ .

[2] هو أبو العباس محمد بن إسحاق الثقفي النيسابوري السراج توفي سنة ٣١٣هـ ، انظر العبر ٤٦٧/١ ، والدول ١٨٩/١ .

[3] تأمل هذه الهمم العالية في نشر العقيدة الصحيحة تصنيفاً ودعوة ومناظرة ، وانظر في ذلك كتاب منهج الجدل والمناظرة ٨٧٥/٢ ، وأصل الكتاب رسالة دكتوراة د : علي حسن عثمان .

به الآثار كقول النبي ﷺ : ((**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها ..**))[1] **الحديث .**

والحديث المعروف عن سلمان مرفوعاً وموقوفاً ((**الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرمه الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه**))[2].

والعلماء يقولون: أن مفهوم الموافقة أن يكون الحكم في المسكوت عنه أولى منه في المنطوق به ، ومفهوم المخالفة: أن يكون الحكم في السكوت مخالفاً للحكم في المنطوق به[3].

أما السكوت المنطوق به فهذا هو الذي ذكروا فيه القولين والقاضي أبو يعلى وموافقوه على أصل ابن كلاب يتأولون كلام أحمد والآثار في ذلك بأنه سكوت عن الإسماع لا عن التكليم .

وكذلك تأول ابن عقيل[4] كلام أبي إسماعيل الأنصاري ، ليس مرادهم ذلك كما هو بين لمن تدبر كلامهم مع أن الإسماع على أصل النفاة إنما هو

---

[1] رواه الدارقطني ١٨٤/٤ والبيهقي في السنن الكبير ١٢/١٠ عن أبي ثعلبة الخشني ، وإسناده ضعيف، انظر غاية المرام ١٧/٤ ، وانظر جامع العلوم والحكم ص٣٧٢ .

[2] رواه الترمذي برقم ١٧٢٦ ، وابن ماجة برقم ٣٣٦٧ ، وإسناده ضعيف فيه سيف ابن هارون وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٣٠١٨ ، وانظر جامع العلوم والحكم ص٣٧٣ .

[3] انظر في ذلك شرح الكوكب المنير ٤٧٣/٣ ، ومذكرة الشنقيطي ٢٣٤، ومختصر ابن اللحام ١٣٢ ، وروضة الناظر ٢١٨/٢ .

[4] هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي النظار صاحب التصانيف توفي سنة ٥١٣، انظر العبر ٤٠٠/٢ ، والشذرات ٣٥/٤ ، والسير ٤٤٣/١٩ .

خلق إدراك في السماع ليس سبباً يقوم بالمتكلم فكيف يوصف بالسكوت لكونه لم يخلق إدراكاً لغيره ؟

فأصل ابن كلاب الذي وافقه عليه القاضي وابن عقيل وابن الزاغوني[1] وغيرهم أنه منزه عن السكوت مطلقاً فلا يجوز عندهم أن يسكت عن شيء من الأشياء إذ كلامه صفة قديمة لذاته لا تتعلق عندهم بمشيئته كالحياة حتى يقال إن شاء تكلم بكذا ، وإن شاء سكت عنه .

ولا يجوز عندهم أن يقال إن الله سكت عن شيء كما جاءت به الآثار بل يتأولونه على عدم خلق الإدراك لأنه منزه عن الخرس باتفاق الأمة ، هذا مما احتجوا به على قدم الكلام وقالوا : لو لم يكن متكلماً للزم اتصافه بضده كالسكوت والخرس ، وذلك ممتنع عندهم سواء قيل هو سكوت مطلق أو سكوت عن شيء معين .

وقال أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي[2] في كتابه الذي سماه (الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول) وذكر اثني عشر إماماً الشافعي ومالك وسفيان الثوري[3] وأحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة[4] وابن

---

[1] هو الشيخ المسند الكبير الصدوق أبو بكر ابن الزاغوني محمد بن عبيد الله بن نصر البغدادي توفي ٥٥٢هـ، انظر المنتظم ١٧٩/١٠ ، والنجوم الزاهرة ٣٢٧/٥، معجم البلدان ١٢٧/٣ .

[2] هو أبو الحسن محمد عبد الملك بن محمد بن عمر الكرخي الشافعي توفي سنة ٥٣٢هـ انظر العبر ٤٤٣/٢ ، والشذرات ١٠٠/٤ ، والنهاية ٢٢٩/١٢ .

[3] هو الإمام الحافظ أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة توفي سنة ١٦١ هـ ، انظر التاريخ الصغير ١٥١/٢ ، والتقريب ٣١١/١، والشذرات ٢٥٠/١ ، والسير ٢٢٩/٧ .

[4] هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي توفي سنة ١٩٧ أو ١٩٨هـ انظر العبر ٢٥٤/١، والنهاية ٢٥٥/١٠ ، والسير ٤٥٤/٨ .

المبارك وإسحاق بن راهويه والبخاري وأبو زرعة[1] وأبو حاتم[2] ، قال فيه سمعت الإمام أبا منصور يقول سمعت الإمام أبا بكر عبيد الله بن أحمد يقول سمعت الشيخ أبا حامد الإسفرائيني[3] يقول : مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر، والقرآن حمله جبريل مسموعاً من الله تعالى والنبي ﷺ سمعه من جبريل، والصحابة سمعوه من النبيﷺ وهو الذي نتلوه نحن بألسنتنا فما بين الدفتين وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً ومنقوشاً كل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر عليه لعائن الله والملائكة والناس أجمعين .

[براءة الشيخ أبي حامد من عقيدة الباقلاني]

قال أبو الحسن : وكان الشيخ أبو حامد شديد الإنكار على الباقلاني[4] وأصحاب الكلام وقال: لم تزل أئمة الشافعية يأنفون ويستنكفون أن ينتسبوا إلى الأشعري ويتبرءون مما بنى مذهبه عليه ، وينهون أصحابهم وأحبابهم من الحوم حواليه على ما سمعت عدة من المشايخ والأئمة منهم الحافظ المؤتمن ابن أحمد الساجي يقولون : سمعنا جماعة من المشايخ الثقات قالوا كان الشيخ أبو حامد بن طاهر الإسفرائيني إمام الأئمة الذي طبق الأرض علماً وأصحاباً إذا

---

[1] هو الإمام الحافظ أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم القرشي الرازي توفي سنة٢٦٤هـ انظر النهاية ١١/٤٠، والشذرات٢/١٤٨، العبر ١/٣٧٩

[2] هو الإمام الحافظ الناقد أبو حاتم الرازي محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي الغطفاني توفي سنة ٢٧٧هـ انظر السير ١٣/٢٤٧، تهذيب التهذيب ٩/٣١، النهاية ١١/٦٣.

[3] هو أبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الإسفرائيني توفي سنة ٤٠٦هـ انظر السير ١٧/١٩٣، العبر ٢/٢١١ ، تاريخ بغداد ٤/٣٦٨ .

[4] هو أبو غالب الباقلاني محمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن البغدادي القاضي توفي سنة ٥٠١هـ انظر العبر ٢/٣٨٠، والسير ١٩/٢٣٠، والشذرات ٣/٤١٢ .

سعى إلى الجمعة من قطعية الكرخ إلى الجامع المنصور يدخل الربـلط المعروف بالروزي المحاذي للجامع ، يقبل على من حضر ويقول: اشهدوا علـــيَّ بـــأن القرآن كلام الله غير مخلوق كما قال أحمد بن حنبل لا كما يقول البـــاقلاني ويتكرر ذلك منه فقيل له في ذلك فقال : حتى تنتشر في الناس وفي أهل البلاد ويشيع الخبر في أهل البلاد أني بريء مما هم عليه ـ يعني الأشعرية ـ وبـــريء من مذهب أبي بكر الباقلاني فإن جماعة من المتفقهة الغرباء يدخلـــون علـــى الباقلاني خفية ويقرءون عليه فيعتنون بمذهبه فإذا رجعوا إلى بلادهم أظـــهروا بدعتهم لا محالة فيظن ظان أنهم مني تعلموه وأنا قلته، وأنا بريء من مذهـــب الباقلاني وعقيدته[1].

قال : وسمعت الفقيه الإمام أبا منصور سعد بن العجلي[2] سمعت عدة من المشايخ والأئمة ببغداد أظن أبا إسحاق الشيرازي[3] أحدهم قالوا : كان أبـــو بكر الباقلاني يخرج إلى الحمام مبرقعاً خوفاً من الشيخ أبي حامد الإسفرائيني[4] والكلام على ما وقع من إنكار أبي حامد وغيره مـــن أئمة الإســـلام علـــى القاضي أبي بكر مع جلالة قدره وكثرة رده على أهل الإلحاد والبدع بســـبب هذا الأصل الذي بنى عليه مذهبه طويل ولبسطه موضع آخر .

وإنما المقصود هنا التنبيه على بعض من أثبت هذا الأصل و لم يـــوافق على

---

[1] كذا يجب على الدعاة أن يتخذوا موقفاً سلفياً من البدع ومن أهلها ، انظر كتـــاب موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع .

[2] لم أجد له ترجمة حسب بحثي .

[3] هو أبو إسحاق الشيرازي إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزأبادي الشافعي توفي سنة ٤٧٦انظر الأنساب ٣٦١/٩، والعبر ٣٣٤/٢، الدول ٧/٢ .

[4] انظر كيف كان أهل البدع يهابون أهل السنة فإلى الله المشتكي من العكس مما يحدث الآن .

النفاة والحارث المحاسبي[1] قد ذكر القولين عن أهل السنة المثبتين الصفات والقدر فقال في كتاب "فهم القرآن" لما تكلم على ما لا يدخل فيه النسخ وما يدخل فيه النسخ ، وما يظن أنه متعارض من الآيات وذكر عن أهل السنة في الإرادة والسمع والبصر قولين في مثل قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الفتح:٢٧] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ [الإسراء:١٦]وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] وكذلك قوله : ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝ ﴾ [الشعراء:١٥]وقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:١٠٥]ونحو ذلك فقال : ذهب قوم من أهل السنة إلى أن لله استماعاً حادثاً في ذاته ، وذكر أن هؤلاء وبعض أهل البدع تأولوا ذلك في الإرادة على الحوادث قال : فأما من أدى السنة فأراد إثبات القدر فقال : إرادة الله تحدث من تقدير سابق للإرادة .

أما بعض أهل البدع فزعموا أن الإرادة هي خلق حادث وليست مخلوقة ولكن بها كون الله المخلوقين قال : وزعموا أن الخلق غير المخلوق وأن الخلق هوالإرادة ، وإنها ليست بصفة لله من نفسه قال : وكذلك قال بعضهم أن رؤيته تحدث .

[قول محمد ابن الهيصم عن حمل الكلام]

قال محمد بن الهيصم في كتاب " حمل الكلام " لما ذكر الكلام وأنه مبني على خمسة فصول :

(أحدها) : أن القرآن كلام الله ، وقد حكي عن جهم بن صفوان أن القرآن ليس كلام الله على الحقيقة وإنما هو كلام خلقه الله فنسب إليه كما

[1] هو العابد الزاهد الحارث بن أسد المحاسبي توفي سنة ٢٤٣هـ ، انظر السير ١١٠/٢، والشذرات ١٠٣/١، والميزان ٤٣٠/١ .

قيل سماء الله وأرض الله ، وكما قيل : بيت الله وشهر الله ، وأما المعتزلة فإنهم أطلقوا القول بأنه كلام الله على الحقيقة ثم وافقوا جهماً في المعنى حيث قالوا كلام خلقه بائناً عنه ، وقال عامة المسلمين : إن القرآن كلام الله على الحقيقة وأنه تكلم به .

(**والفصل الثاني**) أن القرآن غير قديم فإن الكلابية وأصحاب الأشعري زعموا أن الله لم يزل متكلماً بالقرآن ، وقال أهل الجماعة إنما تكلم بالقرآن حيث خاطب به جبريل ، وكذلك سائر الكتب .

(**والفصل الثالث**) أن القرآن غير مخلوق فإن الجهمية والنجارية والمعتزلة زعموا إنه مخلوق ، وقال أهل الجماعة إنه ليس بمخلوق .

(**والفصل الرابع**) أنه غير بائن منه فإن الجهمية وأتباعهم من المعتزلة قالوا: إن القرآن بائن من الله وكذلك سائر كلامه ، وزعموا أن الله خلق كلاماً في الشجرة فسمعه موسى ، وخلق كلاماً في الهواء فسمعه جبريل ، ولا يصح عندهم أنه وجد من الله كلام يقوم به في الحقيقة ، وقال أهل الجماعة : بل القرآن غير بائن من الله وإنما هو موجود منه وقائم به .

وذكر محمد بن الهيصم في مسألة الإرادة والخلق والمخلوق وغير ذلك ما يوافق التي ليست أعيانها قديمة ولا مخلوقة، وهو يحكي ذلك عن أهل الجماعة وقال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي[1] في كتابه المعروف بنقض عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله في التوحيد قال : وادعى المعارض أن قول النبي ﷺ ((**إن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يمضي من الليل الثلث فيقول: هل من مستغفر هل من تائب هل من داع**))[2].

---

[1] هو الإمام الحافظ الناقد أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد التميمي الدارمي توفي سنة ٢٨٠هـ انظر التذكرة ٦٢١/٢، والسير ٣١٩/١٣، والعبر ٤٠٣/١ .

[2] رواه البخاري برقم ٦٣٢١- ومسلم برقم ١١٤٥ عن أبي هريرة .

قال : فادعى المعارض أن الله لا ينزل بنفسه إنما ينزل أمره ورحمته وهو على العرش وكل مكان من غير زوال لأنه الحي القيوم ، والقيوم بزعمه من لا يزول . قال : فيقال لهذا المعارض : وهذا أيضاً من حجج النساء والصبيان ومن ليس عنده بيان ، ولا لمذهبه برهان لأن أمر الله ورحمته تنزل في كل ساعة ووقت وأوان ، فما بال النبي ﷺ يحد لنزوله الليل دون النهار ، ويوقت في الليل شطره أو الأسحار أفأمره ورحمته تدعوان العباد إلى الاستغفار؟ أويقدر الأمر والرحمة أن يتكلما دونه ؟ فيقولا :" **هل من داع فأجيب له ، هل من مستغفر فاغفر له ، هل من سائل فأعطيه** " فإن قررت مذهبك لزمك أن تدعي أن الرحمة والأمر هما اللذان يدعوان إلى الإجابة والاستغفار بكلامهما دون الله وهذا محال عند السفهاء فكيف عند الفقهاء .

وقد علمتم ذاك ولكن تكابرون ، ما بال أمره ورحمته ينزلان من عنده شطر الليل ثم لا يمكثان إلى طلوع الفجر ثم يرفعان لأن رفاعة يرويه ويقول في حديثه حتى ينفجر الفجر ، وقد علمتم إن شاء الله أن هذا التأويل أبطل باطل ولا يقبله إلا كل جاهل .

وأما دعواك أن تفسير القيوم : الذي لا يزول عن مكانه ولا يتحرك فلا يقبل منك هذا التفسير إلا بأثر صحيح مأثور عن النبي ﷺ أو عن بعض أصحابه أو التابعين ، لأن الحي القيوم يفعل ما يشاء ويتحرك إذا شاء ، ويهبط ويرتفع إذا شاء ، ويقبض ويبسط ويقوم ويجلس إذا شاء لأن ذلك أمارة ما بين الحي والميت ، لأن كل متحرك لا محالة حي ، وكل ميت غير متحرك لا محالة .

ومن يلتفت إلى تفسيرك وتفسير صاحبك مع تفسير نبي الرحمة ورسول رب العزة؟ إذ فسر نزوله مشروطاً منصوصاً ووقت له وقتاً موضوحاً لم يدع لك ولا لأصحابك فيه لبساً ولا عويصاً .

قال : ثم أجمل المعارض جميع ما أنكره الجهمية من صفات الله تعالى وذواته

[تأويل الصفات عند الجهمية]

المسماة في كتابه وآثار رسوله ﷺ فعد منها بضعاً وعشرين صفة نقشاً ، وأخذ يتكلم عليها ويفسرها بما حكى المريسي وفسرها وتأولها حرفاً حرفاً خلاف ما عنى الله ورسوله ، وخلاف ما تأولها الفقهاء والصالحون لا يعتمد في أكثرها إلا على المريسي فبدأ منها بالوجه ثم بالسمع والبصر والغضب والرضا والحب والبغض والفرح والكره والضحك والعجب والسخط والإرادة والمشيئة والأصابع والكف والقدمين وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص:٨٨]وقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥] ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥] ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة:٦٤] ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح:١٠]: ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر:٦٧]وقوله ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨]: و﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ [البقرة:٢١٠] ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر:٢٢] ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ [غافر:٧] وقوله ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران:٢٨] ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران:٧٧] و﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:٥٤] قال تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة:١١٦] و ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢] .

قال : عمد المعارض إلى هذه الصفات فنسقها ونظم بعضها إلى بعض كما نظمها شيئاً بعد شيء ثم قررها أبواباً في كتاب وتلطف بردها بالتأويل كتلطف الجهمية معتمداً على الرابع الجهمي بشربن غياث المريسي عند الجهال

بالتشنيع بها على قوم يؤمنون بالله ويصدقون الله ورسوله فيها بغير تكييف ولا تمثيل، فزعم أن هؤلاء المؤمنين بها يكيفونها وينسبونها بذوات أنفسهم ، وأن العلماء بزعمه قالوا ليس في شيء منها اجتهاد رأي لندرك كيفية ذلك أو يشبه فيها شيء مما هو في الخلق موجود .

قال : وهذا خطأ، كما أن الله ليس كمثله شيء فكذلك ليس ككيفيته شيء .

قال أبو سعيد عثمان بن سعيد: فقلنا لهذا المعارض المدلس بالتشنيع إن قوله: كيفية هذه الصفات وتشبيهها مما هو في الخلق خطأ ، فإنا لا نقول إنه خطأ كما قلت بل هو عندنا كفر ، ونحن لكيفيتها وتشبيهها بما هو في الخلق موجود أشد أنفاً منكم غير أنا كما لا نشبهها ولا نكيفها لا نكفر بها ولانكذبها ولا نبطلها بتأويل الضُّلّال كما أبطلها إمامك المريسي .

قال : وأما ما ذكرت من اجتهاد الرأي في تكييف صفات الله فإنا نجيز اجتهاد الرأي في كثير من الفرائض والأحكام التي نراها بأعيننا ونسمعها بآذاننا فكيف في صفات الله التي لم ترها العيون وقصرت عنها الظنون ؟ غير أنا لا نقول فيها كما قال المريسي : إن هذه الصفات كلها شيء واحد وليس السمع منه غير البصر ، ولا الوجه منه غير اليد ، ولا الذات غير النفس ، وإن الرحمن ليس يعرف ــ بزعمكم ــ لنفسه سمعاً من بصر ، ولا بصراً من سمع ، ولا وجهاً من يدين ، ولا يدين من وجه ، وهو كله ــ بزعمكم ــ سمع وبصر ووجه ، وأعلى وأسفل ويد ونفس وعلم ومشيئة وإرادة ، مثل خلق السموات والأرض والجبال والتلال والهواء التي لا يعرف لشيء منها شيء من هذه الصفات والذوات ، ولا يوقف لها منها على شيء فالله تعالى عندنا أن يكون كذلك فقد ميز الله تعالى في كتابه السمع من البصر ، وذكر الآيات الواردة في ذلك فقال تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٦] قال

[الرد على الجهمية في الصفات]

تعالى : ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝ ﴾ [الشعراء:١٥] وقال: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران:٧٧] ففرق بين الكلام والنظر دون السمع فقال عند السمع والصوت قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [المجادلة:١] : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران:١٨١] ولم يقل رأى الله قول التي تجادلك في زوجها ، وقال تعالى في موضع الرؤية قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩] وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:١٠٥] ولم يقل يسمع الله تقلبك ويسمع الله عملكم فلم يذكر الرؤية فيما يسمع ولا السمع فيما يرى لما أنهما عنده خلاف ما عندكم ... وذكر كلاماً طويلاً في الرد على النفاة .

[مذهب أهل الحديث في هذا الأصل]

قلت : وكلام أهل الحديث والسنة في هذا الأصل كثير جداً .

وأما الآيات والأحاديث الدالة على هذا الأصل فكثيرة جداً يتعذر أو يتعسر حصرها ، ولكن نذكر بعضها وقد جمع الإمام أحمد كثيراً من الآيات الدالة على هذا الأصل وغيره مما يقوله النفاة ، وذكرها عنه الخلال في كتاب السنة

[أولاً الآيات الدالة على هذا الأصل]

وذلك كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ ﴾ [طه:١١-١٣] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ﴾ [الشعراء:١٠] .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص:٣٠]: وقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۞ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات:١٥-١٦] فوقت النداء بقوله "فلما" وبقوله "إذ" فعلم أنه كان في وقت مخصوص لم يناداه قبل ذلك، وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [القصص:٦٥-٦٦] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ [الأعراف:١١] فأخبر سبحانه أنه قال لهم ذلك بعد أن خلق آدم وصوره لا قبل ذلك ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩] وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ ﴾ [الأنعام:٧٣] وقال تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة:١١٧] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] وإذا: ظرف لما يستقبل من الزمان ، وأن الفعل المضارع للاستقبال وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [البقرة:٣٠] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ [البقرة:١٨٦] وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾ [التوبة:١٠٥] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ

دُخَانٌ ﴾ [فصلت:١١] وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف:٥٤] وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة:٢١٠] وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام:١٥٨] وقال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر:٢٢] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس:١٤] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء:١٦] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد:١١] وقال تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الفتح:٢٧] وقال موسى : ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ [الكهف:٦٩] وقال إسماعيل : ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات:١٠٢] وقال صاحب مدين لموسى: ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القصص:٢٧] وأداوت الشرط تخلص الفعل للاستقبال ومن هذا الباب قوله ﷺ : ((**من حلف فقال : إن شاء الله فإن شاء فعل وإن شاء ترك**))[1] رواه أهل السنن، واتفق الفقهاء على ذلك وكذلك ما في الصحيحين من قول النبي ﷺ عن سليمان أنه قال ((**لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تأتي كل امرأة بفارس**

---

[1] رواه الترمذي برقم ١٥٣١ ، وأبو داود ٣٢٦١ ، وأحمد ٦/٢ ، عن ابن عمر وإسناده صحيح .

يقاتل في سبيل الله فقال له صاحبه قل إن شاء الله فلم يقل فلم تلد منهن إلا امرأة جاءت بشق ولد، قال النبي ﷺ فلو قال : إن شاء الله لقاتلوا في سبيل الله فرسانا أجمعين »[٢] وقال تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩] وقال تعالى : ﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٥] وقال تعالى لموسى وهارون: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف:٨٠] وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران:١٨١] وقال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ [المجادلة:١] وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر:٢٣] [الزمر:٢٣] وقال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٥] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف:٥٥] وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد:٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١] وقال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر:٧] فأخبر أن طاعته سبب لمحبته ورضاه، ومعصيته سبب لسخطه

---

[٢] رواه البخاري برقم ٢٨١٩ ، ومسلم برقم ٤٢٨٨ ، عن أبي هريرة .

وأسفه وقال تعالى : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة:١٥٢] وجواب الشرط مع الشرط كالسبب مع مسببه ومثله في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال يقول الله تعالى : ((**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**))[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ۝ ﴾ [النساء:٩٣] وأما أفعاله المتعدية إلى المفعول به الحادثة وذكرها في القرآن العزيز فكثير جداً كقوله : ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝ ﴾ [الضحى:٥] وقوله تعالى : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝ ﴾ [الليل:٧] ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝ ﴾ [الليل:١٠] وقوله تعالى : ﴿ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝ ﴾ [الانشقاق:٨] وقوله تعالى : ﴿ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝ ﴾ [عبس:١٩-٢٦] وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ ﴾ [الروم:٢٧]وقوله تعالى ﴿ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝ ﴾ [المرسلات:١٦-١٧] وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ

---

[1] رواه البخاري برقم ٧٤٠٥ ، ومسلم برقم ٢٦٧٥ ، والترمذي برقم ٣٦٠٣ ، والنسائي في الكبرى ، وابن ماجة برقم ٣٨٢٢ ، وأحمد ١٣٨/٣ ، عن أبي هريرة ﷺ .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤] وقال تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝ ﴾ [الزمر:٦].

وقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ ﴾ [النازعات:٢٧-٣١] وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ ﴾ [المؤمنون:٤٤] وقال تعالى: ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [الجاثية:١٨] وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر:٣٢].

[الرد على من قال إن الخلق هو المخلوق]

ومثل هذا كثير في القرآن والاحتجاج به ظاهر على قول الجمهور الذين يجعلون الخلق غير المخلوق وهو الصواب فإن الذين يقولون: الخلق هو المخلوق قولهم فاسد.

وقد بينا فساده في غير هذا الموضع وشبهتهم أنه لو كان غيره لكان إن كان قديماً لزم قدم المخلوق وإن كان محدثاً احتاج إلى خلق آخر فيلزم التسلسل وإن كان قائماً به فيكون محلاً للحوادث .

وقد أجابهم الناس عن هذا كل قوم بجواب يبين فساد قولهم وطائفة منعت قدم المخلوق كالإرادة فإنهم سلموا أنها قديمة مع حدوث المراد ، وطائفة منعت قيامه به وقالت: لا يقوم به الخلق فلأن يكون محلاً للحوادث فإذا قالوا إن الخلق هو المخلوق ولا يقوم به فلأن يجوز أن يكون غير المخلوق ولا يقوم به أولى ، وطائفة قالت: لا نسلم أنه إذا افتقر المخلوق المنفصل إلى خلق أن يفتقر ما يقوم به من الخلق إلى خلق آخر بل يكتفي فيه القدرة والمشيئة فإنكم إذا جوزتم وجود الحادث الذي يباينه بمجرد القدرة والمشيئة فوجود ما لا يباينه أولى بالجواز وهؤلاء وغيرهم يمانعونهم في قيام الحوادث به ، وطائفة منعت امتناع التسلسل في الآثار والأفعال وقالت إنما يمتنع في الفاعلين لا في الفعل كما قد بسط في موضع آخر .

[ثانياً الأحاديث الدالة على الصفات]

وأما الأحاديث الدالة على هذا الأصل التي في الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها عن النبي ﷺ فأكثر من أن يحصيها واحد كقوله في الحديث المتفق على صحته عن زيد بن خالد قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فقال « **أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي؛ فمن قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بي كافر بالكوكب ومن قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافر بي مؤمن بالكوكب** »[1].

وفي الصحيحين في حديث الشفاعة : « **يقول كل من أولى العزم من الرسل مع آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله**

---

[1] رواه البخاري برقم ٨٤٦ ، ومسلم برقم ٧١ .

ولن يغضب بعده مثله »[1] ، وقوله في الحديث الصحيح : « إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء كجر السلسلة على الصفوان »[2] ، وقوله في الحديث الصحيح : « إن الله يحدث من أمره ما يشاء ومما أحدث أن لا يتكلموا في الصلاة »[3] وقوله ﷺ في حديث التجلي المتفق على صحته من غير وجه : « ويقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون »[4]وقوله في الحديث المتفق عليه : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن ممن أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فنام تحت شجرة ينتظر الموت فلما استيقظ إذا بدابته عليها طعامه وشرابه فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من فرح هذا براحلته »[5].

وقوله في الحديث الصحيح : « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة) وقوله في حديث الرجل هو آخر من يدخل الجنة [6] وهو حديث أبي هريرة ﷺ الذي يقول الله فيه : « أو لست قد أعطيت العهود والمواثيق أن لا تسأل غير الذي أعطيت ؟

فيقول : يارب لا تجعلني أشقى خلقك فيضحك الله منه ثم يأذن له في دخول الجنة »[7].

---

[1] رواه البخاري برقم ٣٣٤ ، ٣٣٦١ ، ومسلم برقم ١٩٤ عن أبي هريرة .

[2] تقدم تخريجه ص٦٨ .

[3] رواه البخاري تعليقاً كتاب التوحيد باب٤٢ ، والنسائي برقم ١٢١٩وأبو داود برقم ٩٢٤، وأحمد ٣٧٧/١ عن ابن مسعود وإسناده صحيح .

[4] رواه أحمد ٢٧٥/٢-٢٧٦، والبخاري ٤٤٥/١١ ، ومسلم ١٦٣/١-١٦٦ .

[5] رواه البخاري برقم ٦٣٠٩ ، ومسلم برقم ٢٧٤٧ عن أنس بن مالك .

[6] رواه البخاري ٢٠٠/٣كتاب الجهاد باب ٣٥ عن أبي هريرة .

[7] رواه البخاري ١٩٥/١ باب ١٢٩ فضل السجود ، ومسلم ١٦٧/١ الإيمان باب ٨١ =

وفي حديث ابن مسعود وهو حديث آخر قال النبي ﷺ «**فيقول الله : يا ابن آدم أترضى أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ؟ فيقول : أي رب أتستهزئ بي وأنت رب العالمين ؟ وضحك رسول الله ﷺ فقال : ألا تسألوني مما ضحكت ؟ فقالوا لم ضحكت ؟ فقال : من ضحك رب العالمين حين قال أتستهزيء بي وأنت رب العالمين ؟ فيقول : إني لا أستهزيء بك ولكني على ما أشاء قادر**»[1].

وفي حديث أبي رزين عن النبي ﷺ قال : «**ينظر إليكم أذلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرحكم قريب ؟ فقال له أبو رزين : أو يضحك الرب ؟ قال : نعم ، قال : لن نعدم من رب يضحك خيراً**»[2].

وفي الحديث الصحيح «**يقول الله تعالى (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال(الرحمن الرحيم) قال الله: أثنى عليَّ عبدي ، فإذا قال (مالك يوم الدين) قال الله : مجدني**

= عن أبي هريرة ﷺ .

[1] رواه مسلم ١٧٤/١ الإيمان باب ٨٣ وأحمد ٣٩١/١ ، وابن أبي عاصم في السنة ٢٤٥/١ ، والأجري في الشريعة ٢٨٢ عن ابن مسعود ، ورواه البخاري (٦٥٧١) بلفظ آخر وفي هذا الحديث إثبات صفة الضحك لله عز وجل .

[2] رواه أبو داود الطيالسي في مسنده برقم ١٠٩٢ ، وأحمد في مسنده ١١/٤، وابن ماجة برقم ١٨١ ، والطبراني في الكبير ٢٠٧/١٩، والأجري في الشريعة ١٧٩ ، وابن أبي عاصم ٥٥٤ عن أبي رزين العقيلي ، وإسناده صحيح .

عبدي) فإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال الله عز وجل: هذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال الله: هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل » [1].

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح المتفق عليه : « **ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فاستجيب له من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فاغفر له حتى يطلع الفجر**» [2].

وقوله في الحديث الصحيح حديث الأنصاري الذي أضاف رجلاً وآثره على نفسه وأهله فلما أصبح الرجل غدا على النبي ﷺ **فقال: « لقد ضحك الله الليلة أو قال عجب من فعالكما أو قال من أفعالكما الليلة وأنزل الله تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾**[3][الحشر:٩]

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال « **الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعلمون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء** »[4].

وفي الصحيح عنه أنه قال : « **إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** »[5].

---

[1] رواه مسلم برقم ٣٩٥ ، ومالك ٨٤/١، وأبو داود برقم ٨٢١، والترمذي برقم ٢٩٥٣، وأحمد ٢٤١/٢ عن أبي هريرة .

[2] تقدم تخريجه ص ٧٧.

[3] أخرجه البخاري ١١٩/٧ ، ومسلم برقم ٢٠٥٤ ، والبيهقي في الأسماء والصفات برقم ٩٧٩ عن أبي هريرة .

[4] رواه مسلم برقم ٢٧٤٢ ، وأحمد ٢٢/٣ ، وابن حبان برقم ٣٢٢١ ، والنسائي كما في تحفة الأشراف ٤٦٣/٣ من حديث أبي سعيد ﷺ .

[5] رواه مسلم برقم ٢٧٤٢ ، وابن ماجة برقم ٤١٤٣ ، وأحمد ٢٨٥/٢ ، وابن حبان =

وفي الصحيحين عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ كان قاعداً في أصحابه إذ جاءه ثلاثة نفر فأما رجل فرأى في الحلقة فرجة فجلس فيها ، وأما رجل فجلس خلفهم ، وأما رجل فانطلق فقال النبي ﷺ : ((**ألا أخبركم عن هؤلاء النفر ؟ أما الرجل الذي جلس في الحلقة فرجل آوى إلى الله فآواه الله، وأما الرجل الذي جلس في خلف الحلقة فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الرجل الذي انطلق فأعرض فأعرض الله عنه**))[1].

وفي صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال : ((يقول الله تعالى : **من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما أفترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه**))[2].

وفي الصحيحين عن البراء عن النبي ﷺ أنه قال : ((**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، من أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله**))[3].

وفي الصحيحين عن عبادة عن النبي ﷺ أنه قال : ((**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، فقالت عائشة رضي الله**

= برقم ٣٩٥ ، والبغوي في شرح السنة برقم ٤١٥٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

[1] رواه البخاري برقم ٦٦ ، ومسلم برقم ٢١٧٦ عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه .

[2] رواه البخاري برقم ٦٥٠٢ والبغوي في شرح السنة برقم ١٢٤٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] رواه البخاري برقم ٣٧٨٣ ، ومسلم برقم ٢٣٧ .

عنها : إنا لنكره الموت قال : ليس ذاك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت يبشر برضوان الله وكرامته فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب الله وسخطه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه))[1].

وفي الصحيحين عن أنس ﷺ قالوا : أنزل علينا ثم كان من المنسوخ : ((**أبلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا**))[2].

وفي حديث عمرو بن مالك الرواسي قال :" أتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله ارض عني ؟ قال : فأعرض عني ثلاثاً .

فقلت : يارسول الله ((إن الله ليرضى فارض عني فرضي عني))[3] .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : ((**اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله**)) وهو حينئذ يشير إلى رباعيته ، وقال: ((**اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله**))[4].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول في

---

[1] رواه البخاري برقم ٦٥٠٧ ، ومسلم برقم ٢٦٨٣ والترمذي برقم ١٠٦٧ والنسائي ٤/١٠ ، وابن ماجة ٤٢٦٤، وابن حبان برقم ٣٠١٠ ، عن عائشة رضي الله عنها ، وأخرجه مسلم ٢٦٨٥عن أبي هريرة ﷺ ورواه أحمد ١٠٧/٣، وأبو يعلى برقم ٣٨٧٧ والبزار ٧٨٠ عن أنس ﷺ .

[2] رواه البخاري برقم ٣٠٦٤ ، ومسلم برقم ٦٧٧، وأحمد ١٠٩/٣-١١١-٢١٠ عن أنس رضي الله عنه .

[3] رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣١٢/٦) وابن سعد في الطبقات (٣٠١/١) وغيرهم.

[4] رواه البخاري ٣٧٢/٧ ، ومسلم برقم ١٧٩٣ ، عن أبي هريرة ، ورواه البخاري من حديث ابن عباس .

وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[1].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ **أنه قال لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي »**[2].

وفي رواية " **سبقت** " وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وفي صلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي ؟**

قالوا أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون »[3].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال : **« ما جلس قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده »**[4].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : **« يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض »**[5].

---

[1] رواه مسلم برقم ٤٨٦ وأبو داود برقم ٨٧٩ ، والترمذي برقم ٣٤٩٣ ، والنسائي ٣٢٩/١، وأحمد ٥٨/٦، والبغوي شرح السنة برقم ١٣٦٦ ، وابن أبي شيبة في المصنف ١٩/٧-٢٠ ، عن أبي هريرة ﷺ .

[2] رواه البخاري ٣٨٤/١٣ ومسلم برقم ٢٧٥١ ، والترمذي برقم ٣٥٤٣ وابن ماجة برقم ١٨٩، وابن خزيمة في التوحيد ١٩/١-١٣٤-١٣٥ عن أبي هريرة ﷺ .

[3] رواه البخاري برقم ٥٥٥ ، ومسلم برقم ٦٣٢ ، ومالك ١٧٠/١، والنسائي ٢٤٠/١ عن أبي هريرة ﷺ .

[4] رواه مسلم برقم ٢٧٠٠، والترمذي برقم ٢٩٤٥ ، وابن ماجة برقم ٢٢٥ عن أبي هريرة ﷺ .

[5] رواه البخاري برقم ٦٥١٩ ، وابن خزيمة في التوحيد ١٦٩/١ ، وأحمد ٣٧٤/٢، =

ويطوي السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض »[1].

وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم عن النبيﷺ أنه قال : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئاً قدمه ، وينظر أمامه فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل فإن لم يجد فبكلمة طيبة »[2].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم .

قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي ؟ قال : تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال : فيقول : هل رأوني؟ قال : فيقولون: لا والله ما رأوك . قال : فيقول : كيف لو رأوني ؟

قال : فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد تمجيداً ، وأكثر تسبيحاً .

قال : يقول : فما يسألوني ؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة .

قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها .

---

[1] رواه البخاري برقم ٦٥١٩ ، وابن خريمة في التوحيد ١٦٩/١ ، وأحمد ٣٧٤/٢، وأبو يعلى ٥٨٥٠، ورواه مسلم برقم ٧٨٧ ، والنسائي في الكبرى برقم ٧٢٩٢ ، والأجري في الشريعة ص ٣٢٠، والبيهقي في الأسماء والصفات برقم ٧٠٤ عن أبي هريرة ﷺ .

[2] رواه البخاري في عدة مواضع عن عدي بن حاتم انظر الفتح ٢٨١/٣ ، ومسلم ٧٠٣/٢-٧٠٤ .

قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً و أشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة .

قال : فمما يتعوذون ؟ قال: يقولون: من النار، قال يقول: وهل رأوها ؟

قال : يقولون : لا والله يارب ما رأوها ؟

قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة .

قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم))[1].

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : ((**ليدنوا أحدكم من ربه حتى ليقفه عليه فيقول : عملت كذا وكذا فيقول : نعم يارب، فيقرره ثم يقول قد سترها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته وهو قوله تعالى : ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾** [الحاقة:١٩] **وأما الكافر والمنافق فينادون: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين))**[2]. فأخبر ﷺ أنه سبحانه يقول قولاً ثم يقول العبد ثم يقول الرب تعالى قولاً آخر .

وهذا الأصل العظيم دلت عليه الكتب المنزلة من الله ــ القرآن والتوراة والإنجيل ــ وكان عليه سلف الأمة وأئمتها بل وعليه جماهير العقلاء وأكابرهم وجميع الطوائف حتى من الفلاسفة .

* * *

---

[1] رواه البخاري برقم ٦٤٠٨ ، ومسلم برقم ٢٦٨٩.

[2] رواه البخاري ٤٨٦/١٠ ، -٤٧٥/١٣ ، ومسلم برقم ٢٧٦٨ والنسائي في التفسير برقم ٢٦٢ وابن حبان ٢٢٤/٩ عن ابن عمر .

فصل

[طريقة إثبات السلف والأئمة كونه متكلماً]

(وأما قوله والدليل على كونه متكلماً أنه آمر وناه لأنه بعث الرسل لتبليغ أوامره ونواهيه ولا معنى لكونه متكلماً إلا ذلك) فنقول : السلف والأئمة وغيرهم لهم في إثبات كونه متكلماً طريقان فإنهم يثبتون ذلك بالسمع تارة وبالعقل أخرى كما يوجد مثل ذلك في كلام الإمام أحمد وغيره من الأئمة وفي كلام متكلمة الصفاتية كعبد العزيز المكي[1] وأبي محمد ابن كلاب[2] وأبي عبد الله بن كرام[3] وأبي الحسن الأشعري[4] ونحوهم ، والطرق التي أظهروها من العقليات قد دل عليها القرآن ، وأرشد إليها كما دل القرآن على الطرق العقلية التي يثبت بها سائر قواعد العقائد المسماة بأصول الدين .

(لكن الدليل) قد تتنوع عباراته وتراكيبه فإنه تارة يركب على وجه الشمول المنقسم إلى قياس تداخل وقياس تلازم وقياس تعاند الذي يسمى بالحملي والشرطي المتصل والشرطي المنفصل وتارة يركب على وجه قياس التمثيل المفيد لليقين بأن يجعل المشترك بين الأصل والفرع الذي يسمى في قياس التمثيل: المناط والوصف والعلة والمشترك والجامع ونحو ذلك من العبارات هو الحد الأوسط في قياس الشمول فإذا قال ناظم القياس الأول : نبيذ الحبوب المسكر حرام قياساً على خمر العنب لأنه خمر فكان حراماً قياساً عليه فهذا كمال في نظم قياس الشمول : هذا خمر وكل خمر حرام ، أو فيه الشدة المطربة وما فيه الشدة المطربه فهو حرام وما يثبت به هذه المقدمة الكبرى يثبت

---

(1) لم أجد ترجمة له في ما بين يدي من المراجع .

(2) تقدمت ترجمته انظر ص٣١ .

(3) تقدمت ترجمته انظر ص٣٠ .

(4) تقدمت ترجمته انظر ص٥٩ .

به كون المشترك علة الحكم .

وبهذا تبين أن قياس التمثيل قد يكون أتم في البيان من قياس الشمول فأما ما يقوله طائفة من النظار من أن قياس الشمول هو الذي يفيد اليقين دون التمثيل فهذا لا يصح إلا بحسب المواد بأن يوجد ذلك في مادة يقينية وهذا في مـــادة ظنية ، وحينئذ فقد يقال : بل ذلك يفيد اليقين دون هذا ، وسبب غلطـــهم أنهم تعودوا كثيراً استعمال التمثيل في الظنيات واستعمال الشمول في اليقينيات عندهم فظنوا هذا من صور القياس ، وليس الأمر كذلك بل هو من المادة .

وقد بسط الكلام على هذا في مواضع غير هذا الموضع كالرد على الغالطين في النطق وغير ذلك ثم القياس تارة يعتبر فيه القدر المشترك من غـــير اعتبـــار الأولوية وتارة يعتبر فيه الأولوية فيؤلف على وجه قياس الأولى وهـــو إن كان قد يجعل نوعاً من قياس الشمول والتمثيل فله خاصة يمتاز بها عن سائر الأنواع وهو أن يكون الحكم المطلوب أولى بالثبوت من الصورة المذكورة في الدليـــل الدال عليه ، وهذا النمط هو الذي كان السلف والأئمة كالإمام أحمد وغيره من السلف يسلكونه من القياس العقلي في أمر الربوبية وهو الذي جـــاء بـــه القرآن وذلك أن الله سبحانه لا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قياس الشمول الذي تستوي أفراده ولا تحت قياس التمثيل الذي يستوي فيه حكم الأصـــل والفرع ، فإن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء لا في نفســـه المذكـــورة بأسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله ولكن يسلك في شأنه قياس الأولى كمـــا قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ ﴾ [النحل:٦٠] .

فإنه من المعلوم أن كل كمال ونعت ممدوح لنفسه لا نقص فيـــه يكـــون لبعض الموجودات المخلوقة المحدثة ، فالرب الخالق الصمـــد القيـــوم القـــديم الواجب الوجود بنفسه هو أولى به، وكل نقص وعيب يجب أن ينزه عنه بعض المخلوقات المحدثة الممكنة فالرب القدوس السلام القديم الواجب وجوده بنفسه

هو أولى بأن ينزه عنه .

[بطلان مسلك المشبهين لله عز وجل]

وأما إذا سلك مسلك المشبهين لله بخلقه المشركين به الذين يجعلون له عدلاً ونداً ومثلاً ، فيسوون بينه وبين غيره في الأمور كما يفعله أهل الضلال من أهل الفلسفة والكلام من المعتزلة وغيرهم ، فإن ذلك يكون قولا باطلاً من وجوه، منها : أن تلك القضية الكلية التي تعمه وغيره قد لا يمكنهما إثباتها عامة إلا بمجرد قياس التمثيل، وقياس التمثيل إن أفاد اليقين في غير هذا الموضع ففي هذا الموضع قد لا يفيد الظن للعلم بانتفاء الفارق .

ومنها : أهُم إذا حكموا على القدر المشترك الذي هو الحد الأوسط بحكم يتناوله والمخلوقات كانوا بين أمرين إما أن يجعلوه كالمخلوقات ، أو يجعلوا المخلوقات مثله فينتقض عليهم طرد الدليل فيبطل .

ومثال ذلك إذا قال الفليسوف : إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وهو واحد فلا يصدر عنه إلا واحد ، فإنه يحتاج أن يعلم أولاً قوله الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، فإن هذه قضية كلية ، وكل قياس شمولي فلابد فيه من قضية كلية ، وعلله بأن كل واحد لا يصدر عنه إلا واحد إما أن يكون باستقراء الآحاد ، وأما بقياس بعضها إلى بعض ، وهذا استقراء ناقص وهذا تمثيل وهما عنده لا يفيدان اليقين. فإن قال : أعلم بالبديهة أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد كان هذا مكابرة لعقله فإن العلوم الكلية المطابقة للأمور الخارجية ليست مغروزة في الفطرة ابتداء بدون العلم بأمور معينة منها .

[الرد على من قال الواحد لا يصدر عنه إلا واحد]

لكن لكثرة العلم بالأمور المعينة الجزئية يجرد العقل الكليات فتبقى القضية العامة ثابتة في العقل لا تحتاج إلى شواهد وأمثلة جزئية إلا أن يكون علم تلك القضية العقلية من تركيب قضايا أخر .

وقوله الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ليس من هذا ولا من هذا ثم إذا قصور مفردات هذه القضية علم يقيناً أنه ليس عنده منها علم بل علم أن الواقع

خلافها .

فإن قوله " الواحد إن عنى به الواحد الذي لا يعلم منه أمران ليس أحدهما الآخر فليس في الوجود واحد بهذا الاعتبار فإنه يعلم أن واجب الوجود موجود ، وأنه عاقل ومعقول وعقل وأن له عناية، وأمثال هذه المعاني التي ليس أحدها هو الآخر فإن الوجوب ليس هو الوجود ولا الوجوب ، والوجود هو العاقل ولا العاقل هو المعقول ولا العاقل الوجود والمعقول هو ذو العناية وإن قال هذه كلها سلوب وإضافات محضة كان مكابراً لعقله ، فإن كون الشيء يعقل ليس هو كونه يعقل ولا كونه عالماً مجرد نسبة محضة إلى المعلوم كالأمور الإضافية التي لا يتغير بها حال المضاف كالتيامن والتياسر ، فإنه من المعلوم أن كون الشيء متيامناً أو متياسراً عنك لا يختلف به حالك في الموضعين .

وأما كون الشيء عالماً فيخالف كونه غير عالم، كما أن كونه محباً يخالف كونه غير محب ، وكونه قادراً يخالف كونه غير قادر ومن جعل الشيء حال كونه عالماً وحال كونه غير عالم سواء فهو مصاب في عقله ، وهذا من أعظم السفسطة[1] وكذلك من جعل كونه ذا عناية هو مجرد كونه عاقلاً فإن هذا من أعظم السفسطة والعقل الصريح يعلم أن كون الشيء عالماً ليس هو مجرد كونه مريداً ، ولا مجرد كونه مريداً هو مجرد كونه عالماً، ولو قيل إن أحدهما يستلزم الآخر فالتلازم لا يوجب كون الملزوم هو اللازم ، وإذا قيل في أي موجود فرض أن علمه هو إرادته، وإرادته هي حياته، وأن ذلك هو وجوده كان فساد هذا من أبين الأمور في العقل كما إذا قيل : إن هذه التفاحة طعمها هو مجرد لونها ، ولونها هو مجرد ريحها ، وريحها هو مجرد شكلها ، وشكلها

---

[1] السفسطة قياس مركب من الوهميات، والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته انظر التعريفات ١٥٧.

هو عين ذاتها . فهذا الكلام من تصوره من الناس وفهمه حتى الصبيان المميزين علم أن قائله من أضل الناس وأجهلهم ، فهذا الواحد الذي يصفونه يمتنع في الموجود الواجب فهو في غيره أشد امتناعاً ، ولهذا يؤول بهم الأمر إلى أن يجعلوه وجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق كما يجعله المعتزلة ذاتاً مجردة من الصفات وكلاهما مما يعلم بصريح العقل انتفاء ثبوته في الخارج بل المطلق لا بشرط يمتنع ثبوته في الخارج وهم يجعلون موضوع العلم الإلهي هذا الموجود المنقسم إلى واجب وممكن[1] وجوهر[2] وعرض[3] وعلة[4] ومعلول ، ويجعلون هذا هو الفلسفة الأولى والحكمة العظمى و لم يعلموا أن الكليات المقسومة سواءً سميت جنساً أو لم تسم جنساً لا توجد في الخارج كلية فليس في الخارج الحيوان المنقسم إلى ناطق وأعجم ولا الوجود المنقسم إلى جوهر وعرض بل كل حيوان يوجد في الخارج فهو من هذا القسم وكل موجود يوجد في الخارج فهو إما قائم بغيره وهو المقسوم الصادق على أقسامه فهو مطلق لا بشرط الإطلاق فإنه لو شرط فيه الإطلاق لم يصدق على المعينات فإن المعين ليس مطلقاً بشرط الإطلاق ، فإذا كان المطلق لا بشرط الإطلاق لا يوجد في الخارج فلا يوجد فيه حيوان مطلق بشرط الإطلاق ولا إنسان مطلق بشرط الإطلاق وهذا بين لجميع العقلاء .

ثم قالوا في الموجود الواجب الوجود إنه وجود مطلق بشرط الإطلاق وقد عُلم بصريح العقل أن الوجود المطلق بشرط الإطلاق لا يكون في الخارج وإنما

---

[1] الممكن ما يقتضي لذاته أن لا يقتضي شيئاً من الوجود والعدم كالعالم انظر التعريفات ٢٨٦.

[2] انظر ص ٥١ .

[3] انظر ص٥١ .

[4] العلة ستة أنواع انظر جامع التعريفات ١٩٩-٢٠٠ .

هو أمر يقدر في العقل لا حقيقة له في الخارج عن الذهن ولا ثبوت له في نفس الأمر وهذا عين التعطيل للموجود الواجب الذي شهد به الوجود من حيث هو وجود فإنَّ الوجود من حيث هو وجود .. يشهد بوجود واجب الوجود كما قال ابن سينا[1] وغيره وأصابوا في ذلك فإنه لا ريب أن ثم وجوداً وأنه إما واجب وإما ممكن والممكن لابد له من واجب فثبت أنه لابد في الوجود من موجود واجب .

فهذا البيان الذي ذكروه في إثبات واجب الوجود حق واضح مبين ولكنهم زعموا مع ذلك أنه وجود مطلق بشرط الإطلاق لا يتعين ولا يتخصص بحقيقة يمتاز بها عن سائر الموجودات بل حقيقتة وجود محض مطلق بشرط نفي جميع القيود والمعينات والمخصصات وهم يعلمون في المنطق وكل عاقل تصور هذا الكلام أن هذا لا حقيقة له ولا وجود له إلا في الذهن لا في الخارج فصار الموجود الواجب الذي يشهد به الوجود في الخارج لا يوجد إلا في الذهن وهذا من أبين التناقض والاضطراب والجمع بين النقيضين حيث جعلوه بموجب البرهان الحق موجوداً في الخارج وبموجب سلب الصفات هو التوحيد الذي تخيلوه معدوماً في الخارج فصار قولهم ، مستلزماً لوجوده وعدمه وكذلك قول من سلك سبيلهم من القرامطة[2] الباطنية كأصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم من الاتحادية أهل وحدة الوجود كابن سبعين[3] وابن عربي[4] ونحوهما ، بل وسبيل نفاة الصفات من أهل الكلام كالمعتزلة وغيرهم

---

[1] تقدمت ترجمته انظر ص٤٢ .

[2] تقدم تعريفها انظر ص٤٢ .

[3] ابن سبعين هو الشيخ عبد الحق بن إبراهيم بن محمد الموسى الصوفي توفي سنة ٦٦٩هـ، انظر العبر٣/٣٢٠ ، والشذرات ٥/٣٢٩ .

[4] هو أبو عبد الله محيي الدين بن عربي الطائي الصوفي الاتحادي الحلولي توفي سنة ٦٣٨هـ =

بل وسبيل سائر من نفي شيئاً من الصفات فإن لازم كلامه تعطيله ونفيه مع إقراره بثبوته فيكون جامعاً بين النقيضين وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

وإنما المقصود هنا التنبيه على مثال أقيستهم الفاسدة التي يجعلونها براهين فيما خالفوا فيه الحق ، ثم إذا تبين أن هذا الواحد ليس له حقيقة في الخارج قيل لمن قال: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد : ما معنى الصدور ؟ أنت لا تعني به حدوثه عنه ولا فعله له بمشيئته وقدرته فعلاً يسبق به الفاعل مفعوله وإنما تعني به لزومه له ووجوبه به ونحن لا نتصور في الموجودات شيئاً صدر عنه وحده شيء منفصل عنه كان لازماً له قبل هذا الوجه بل ما لزمه وحده كان صفة له إما أن يكون اللازم للملزوم وحده شيئاً منفصلاً عنه فهذا بيان غير معقول ومعروف فهذا الصدور الذي ذكرته غير معروف.

فقولك في هذه القضية الكلية للواحد لا يصدر عنه إلا واحد يقتضي الحكم على كل ما يتصور أنه واحد بأنه لا يصدر عنه إلا واحد فإذا لم يتصور هذا الصدور ولا يعلم صدق هذا السلب في صورة معينة من صور هذه القضية الكلية فمن أين تعلم هذه القضية الكلية ؟

وإذا استدلوا على ذلك بالنار التي لا يصدر عنها إلا الإحراق وبسائر الأجسام البسيطة كالماء أو بالشمس التي يصدر عنها الشعاع ، لم يكن شيء من هذه المعينات داخلاً في قضيتهم الكلية ؛ فإن الإحراق لا يصدر عن النار وحدها ، بل لابد من محل قابل للإحراق ولهذا لا يصدر عنها الإحراق في السمندل والياقوت ، ونحوهما من الأجسام التي لا تقبل الإحراق ، وكذلك المبردات .

ثم إن الإحراق له موانع تمنعه فهو موقوف على ثبوت شروط وانتفاء موانع غير النار فلم يصر صادراً عن النار بالمعنى الذي أرادوه بالحجة وهو لزومه

= انظر السير ٤٨/٢٣، والنهاية ١٦٧/١٣ ، والشذرات ١٩٠/٥ .

لذات النار بحيث لا ينفك عنها .

وإنما يعقل هذا اللزوم في صفات الملزوم كاستدارة الشمس والضوء القائم بها ونحو ذلك ، فإن هذا لازم لا يفارق ذاتها بخلاف الضوء القائم بما يقابلها من الأجسام وهو الشعاع المنعكس على الأجسام المسطحة كالأرض والقائمة كأشخاص الجبال والحيوان والنبات والحيطان ، فإن هذا ليس لازماً لذات الشمس بل هو موقوف على وجود هذه الحال التي يقوم بها هذا العرض .

وهو أيضاً ممنوع عنها بالحجب كالسحاب الكثيف والكسوف وغير ذلك وهذا الشعاع كالظل يكون بسبب الحجاب بينها وبين ما يظله الحجاب فيوجد تارة ويعدم أخرى ولهذا يوجد الليل تارة والنهار أخرى .

فهذا بيان أن ما قدروه من الواحد ومن الصدور عنه أمر لا يعقل في الخارج أصلاً فضلاً عن أن يكون قضية كلية عامة ، وأما إذا قدروا واحداً يفرضونه في أنفسهم وصدوراً يفرضونه في أنفسهم فلا ريب أن هذا ملازمة حكم يكون في أنفسهم لكن لا يعلم أنه مطابق للخارج حتى يعلم أن هذا الواجب الوجود هو هذا الواحد وأن إبداعه للعالم هو هذا الصدور ولو علموا ذلك لم يحتاجوا إلى هذا القياس .

فهذا القياس لا يفيدهم شيئاً إذ مطلوبه علم معين بقضية كلية وتلك القضية لا مرد لها أصلاً إلا ما يدعونه في ذلك المعين فهم إن علموا ثبوت الحكم لذلك المعين بدون تلك القضية لم يحتاجوا إليها وإن لم يعلموا ثبوت الحكم للمعين بدون تلك لم يعلم صدق القضية عليه فلا يفيد بل إذا عورضوا بنقيض ما قالوه كان أبين في القياس فيقال لهم ليس في الوجود واحد يصدر عنه واحد بل كل صادر في الوجود فهو عن اثنين فصاعداً فلا حادث عن المخلوقات إلا عن أصلين كالولد بين أبوين والتسخين والتدبير والإحراق والإغراق وغير ذلك لابد فيه من اثنين والشعاع المنبسط لابد فيه من اثنين فإذا لم يكن في

الوجود واحد لا يصدر عنه واحد كان قول القائل : ليس كل واحد لا يصدر عنه إلا واحد أصح في العقل والقياس من قولهم .

بل لو قال: الواحد الذي ذكروه لا يصدر عنه شيء أصلاً لكان قوله أصح في العقل والقياس من قولهم وكذلك إذا قيل: الواحد الذي ذكروه لا يصدر عنه شيء إلا مع غيره لكان قوله أصح من قولهم، وذلك يقتضي أن يكون للرب شريك وولد إذ مقصودهم بالصدور هو لزومه إياه وهذا هو التوليد العقلي وحقيقة قولهم : إن العقول والنفوس متوادة عنه ، وقولهم بالعلة والمعلول هو القول بالتولد والمتولد عنه فاستطرد شيخ الإسلام كلامهم إلى أن قال [1] فإنه يحتاج أن يعلم أولاً أنهم: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٠-١٠٣]

وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع وبينا أن قول هؤلاء أفسد من قول مشركي العرب الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله وقالوا: إن آلهتنا تشفع لنا فإن أولئك كانوا يقولون: إن الرب فاعل مختار والملائكة مخلوقون له ، ولكن ضلوا في بعض ما وصفوه كما ضلت النصارى في بعض ما ذكروه ، وأما هؤلاء أعظم ضلالاً من اليهود والنصارى ومشركي العرب فإنهم في الحقيقة لا

---

[1] وقوله : فاستطرد شيخ الإسلام ... هذا من كلام الناسخ .

يجعلون الرب تعالى خالقاً لشيء ولا يفعل فعلاً بمشيئته واختياره ولا يجعلون الملائكة عباده بل يجعلون العقل الأول هو رب كل ما سوى الله، والشفاعة عندهم ليست سؤالاً من الله تعالى من الشافع، بل توجه إلى الشافع حتى يفيض منه على المستشفع ما ليس لله ولا للشافع به علم عندهم ولا يحصل بقدرته ولا مشيئته .

والمقصود هنا التنبيه على أن طرق السلف والأئمة الموافقة للطرق التي دل القرآن عليها وأرشد إليها هي أكمل الطرق وأصحها وأكثر الناس صواباً في العقليات أقربهم إليهم كما أن أكثرهم صواباً في السمعيات أقربهم إليهم إذ العقل الصريح لا يخالف السمع الصحيح بل يصدقه ويوافقه كما قال تعالى : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ:٦] وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقان:٣٣] .

ولهذا كان المتكلمة الصفاتية كابن كلاب والأشعري وابن كرام خيراً وأصح طريقاً في العقليات والسمعيات من المعتزلة، والمعتزلة خيراً وأصح طريقاً في العقليات والسمعيات من المتفلسفة وإن كان في قول كل من هؤلاء ما ينكر عليه وما خالف فيه العقل والسمع ، ولكن من كان أكثر صواباً وأقوم قيلاً كان أحق بأن يقدم على من هو دونه تنزيلاً وتفضيلاً .

قالت عائشة رضي الله عنها : « أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم »[1] وهذا من القسط الذي أمر الله به وأنزل به كتبه وبعث به رسوله

---

[1] رواه مسلم في المقدمة ١/٥٥ النووي ، وأبو نعيم في الحلية ٤/٣٧٩ ، والحاكم في معرفة علوم الحديث ص ٤٩ ، وأبو داود ٤٨٤٢ ، جميعاً من طريق حبيب عن ميمون =

ﷺ قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ [النساء:١٣٥] وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد:٢٥] .

[طرق الناس في إثبات كونه متكلماً]

والمقصود هنا التنبيه على طرق الناس في إثبات كون الله تعالى متكلماً تنبيهاً مختصراً بحسب ما يحتمله جواب هذا السؤال ، والطرق نوعان: سمعية وعقلية ، وإن كانت العقلية هي أيضاً شرعية سمعية باعتبار أن السمع دل عليها وأرشد إليها وأن الشرع أحبها ودعا إليها[1] لكن صاحب هذا المختصر إنما سلك طريقاً سمعية اتباعاً لمتبوعه أبي عبد الله ابن الخطيب وهذه الطرق مبنية على مقدمتين .

(**إحداهما**) أنه آمر ناه ومن كان كذلك فهو متكلم، والمقدمة الأولى مدلول عليها بأن الرسل بلغّوا أمره ونهيه وكل من المقدمتين واضحة فإن الكلام نوعان: إنشاء وإخبار والإنشاء أمر ونهي وإباحة فإذا ثبت له نوع من أنواع الكلام ثبت مطلق الكلام فثبت أنه متكلم .

و(**أما الثانية**) فقد علم بالاضطرار من دين جميع الرسل أنهم يخبرون عن الله بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا فيلزم من ثبوت الرسالة ثبوت كلام الله تعالى وجحد كون الله متكلماً هو جحد لما بلغت عنه الرسل من الأمر والنهي فإن قيل فما الفرق بين هذه الطرق وبين الطرق التي أثبت بها السمع والبصر وهو السمع ، قيل: هناك أثبت السمع والبصر بنفس الإخبار المنفصل مثل قوله:

= عن عائشة رضي الله عنها . قال أبو داود : ميمون لم يدرك عائشة وقال السخاوي في المقاصد الحسنة ح ١٧٨ : وبالجملة فإن حديث عائشة حسن "

[1] انظر بيان الأدلة السمعية العقلية في: درء تعارض العقل والنقل ٩٨/١ ، ومجموع الفتاوى ١٣٧/١٣ .

﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ وهنا أثبت تكلمه بمجرد إرسال الرسل من غير تعيين نص حيث قال: علمنا أن الله تعالى أرسل رسله بتبليغ أمره ونهيه ولم يتعرض لإخبار السمع بأنه متكلم .

فإن قيل إذا أثبت المثبت تكلمه بالسمع وجب أن يكون السمع قد علمت صحته قبل العلم بكونه متكلماً لكن الرسول إذا قال إن الله أرسلني إليكم يأمركم بتوحيده وينهاكم عن الإشراك به مثلاً فإن لم يعلموا قبل ذلك جواز كونه متكلماً لم يعلموا إمكان إرساله فلا يثبت السمع .

قيل : الجواب من وجهين: أحدهما أن ما علم بالسمع وقوعه يكفي فيه الإمكان الذهني وهو كونه غير معلوم الامتناع بل كل مخبر أخبرنا بخبر ولم نعلم كذبه جوزنا صدقه ومتى كان فيه الصدق ممكناً لم يجز التكذيب بل أمكن أن يقام الدليل الدال على صدقه ووجوب تصديقه فيجب تصديقه وهذا الموضع يغلط فيه كثير من النظار فيظنون أنه يحتاج فيما يطلب الدليل على وقوعه أو فيما قام الدليل على وجوده العلم بإمكانه قبل ذلك وإنما يجب أن لايعلم امتناعه فالرسل صلوات الله عليهم تخبر بمجارات العقول، وما لا تعرفه العقول أو ما تعجز عن معرفته فما علم العقل إمكانه ولم يعلم هل يكون أم لا يكون تخبر الرسل بوقوعه أم عدم وقوعه وما لم يعلم العقل إمكانه تخبر الرسل أيضاً إما بإمكانه وإما بوقوعه المستلزم إمكانه ولكن لا تخبر الرسل بوجوده ولا إمكانه وما علم عدمه لا تخبر بوجوده فلا تأتي الرسل صلوات الله عليهم بما يعلم نقيضه ولكن قد تأتي بما لم يكن يعلم كما قال تعالى : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة:١٥١-

١٥٢] وكذلك الوحي النازل على الأنبياء يعلمهم ما لم يكونوا يعلمون لا يأتيهم بما يعلمون خلافه، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٣] .

(**الوجه الثاني**) أن يقال: إمكان التكلم معلوم بأدنى نظر العقل فإنه إذا عرف أنه حي عليم قدير علم أنه يمكن أن يكون متكلماً ، فإن الكلام من الصفات المشروطة بالحياة ، والصفات المشروطة بالحياة إنما تمتنع عليه سبحانه ما يمتنع منها ، كالنوم والأكل والشرب لتضمنها نقصاً ينزه عنه ، وليس في الكلام نقص ، بل سنبين إن شاء الله أنه من صفات الكمال ، ونبين ما يستحيل اتصافه به ، فهذا تقرير ما ذكره ويمكن أن يسلك في ذلك طريقاً أعم مما ذكره ، فإنه استدل بالأمر والنهي ، خاصة والتحقيق أن الخبر يدل أيضاً على أنه متكلم ، كما أن الأمر يدل على ذلك ، والرسل يبلغون عنه تارة الأمر والنهي ، وتارة الخبر . إما عن نفسه وإما عن مخلوقاته فيبلغون خبره عن نفسه بأسمائه وصفاته، وخبره عن مخلوقاته بالقصص ، كما يبلغون الخبر عن ملائكته وأنبيائه ، ومن تقدم من الأمم المؤمنين والمكذبين ويبلغون خبره عما يكون في القيامة من الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد بل ما تبلغه الرسل من خبره أكثر مما تبلغه من أمره والخبر في القرآن أكثر من الأمر ، وإذا قيل لا معنى لكونه متكلماً إلا أنه مخبر منبيء ، والتحقيق أن يقال: لزم من كونه آمراً ناهياً أن يكون متكلماً ،ويلزم من كونه مخبراً منبئاً أن يكون متكلماً.

(**وأما قول القائل**) لا معنى لكونه متكلماً إلا أنه آمر ناه . وأنه مخبر ففيه نظر فإن المتكلم يكون تارة آمراً وتارة مخبراً ، وهو في حالة كونه مخبراً متكلم

وإن لم يكن آمراً ، وفي حال كونه آمراً متكلم وإن لم يكن مخبراً سواء قدر إمكان انفكاك أحدهما عن الآخر أو قدر تلازمهما في حق بعض المتكلمين .

ولقائل أن يقول: هذا الذي ذكره قليل الفائدة فإنه إن كان المقصود به إثبات كونه متكلماً على من يقر بالرسل فجميع هؤلاء يقرون بأنه متكلم إذ لا يمكن أحداً ممن يؤمن بالتوراة أو الإنجيل أو القرآن أن ينكر أن الله تكلم ، وهذه الكتب مملوءة بذكر ذلك وأهل الملل مطبقون على ذلك وإن كان مقصوده إثبات ذلك على من لا يقر بالرسل ، فتقرير المسألة تقرير لهذا ، فحاصله أن ما ذكره من كونه متكلماً هو حقيقة أن الرسل صادقون فيما أخبروا عنه فإذا أثبت ذلك بصدق الرسل كان إثباتاً للشيء بنفسه .

(**وإنما المقصود**) إثبات أنه متكلم حقيقة بكلام يقوم بنفسه خلافاً للمتفلسفة التي تحمل كلامه إنما هو تعريف فعلي وهو ما يفيض النفوس من التعريفات وللجهمية من المعتزلة وغيرهم الذين يجعلون كلامه ما يخلقه في غيره من الحروف والأصوات ، وهذا الذي اعتنى به السلف في الرد على من يقول القرآن مخلوق خلقه الله في الهواء ، لم يقم به كلام فكيف بمن يقول ليس كلامه إلا ما يحدث في النفوس من التعريف والإعلام من غير أن يكون له كلام منفصل عن نفوس الأنبياء والمرسلين ، وقد بسطنا القول في مسألة الكلام واضطراب الناس فيها في غير هذا الموضع .

(**ولا ريب**) أنه سلك في هذا الاعتقاد مسلك الصفاتية المخالفين للمعتزلة، ولهذا عد الصفات السبع . وأما المعتزلة فيقتصرون على أنه حي عالم قادر . وقد يزيد البصريون الإدراك كالسمع والبصر .

(**وأما كونه متكلماً ومريداً**) فهذا عندهم من باب المفعولات لا من باب الصفات ، إذ معنى كونه متكلماً عندهم أنه خلق كلاماً في غيره كسائر ما يخلقه من المخلوقات بخلاف كونه حياً عالماً قادراً أو مدركاً عند البصريين ،

فإن ذلك ثبت له لذاته سواء خلق شيئاً أو لم يخلقه ، ولهذا كان عام التعلــق لا يختص بمعلوم دون معلوم كما تختص الإرادة والكلام بمراد دون مــراد ومـأمور دون مأمور . وهذا القدر الذي أثبته من كونه متكلماً آمراً ناهياً لا ينازعه فيه معتزلي بل ولا متفلسف إلهي يقر بالنبوات في الجملة كما يقر بها المتفلســـفة الذين حقيقة أمرهم أنهم يؤمنون ببعض الصفات ويكفرون ببعض ، كمـــا أن اليهود والنصارى يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض .

(**ولقائل أن يقول**) إن هذا السؤال ليس لازماً له في مسألة الكلام بل وفي سائر المسائل فإنه لم يثبت شيئاً من الصفات القائمة بنفسه ، وإنما أثبت أحكام الصفات وأثبت الأسماء . والمعتزلة توافق على الأسماء والأحكام بل والفلاسفة أيضاً توافق على إطلاق ما ذكره من الأسماء والصفات فلا يكـــون في هـــذا الاعتقاد فرق بين مذهب الصفاتية أهل الإثبات ، كابن كلاب والأشـــعري وأتباعهما ولا بين المعتزلة كأبي علي وأبي هاشم وأبي الحسين البصري وأمثالهم بل هذا الاعتقاد مشترك بين المعتزلة والأشعرية وغيرهم من الطوائف يبين هـذا أنه لم يذكر في اعتقاده ما تتميز به الأشعرية عن المعتزلة ولا ذكر أن القـــرآن كلام الله غير مخلوق ، ولا ذكر مسألة الرؤيــة ، وأن رؤيـة الله جـائزة في الدنيا واقعة في الآخرة ، ولا ذكر أيضاً مسائل القدر . وأن الله خالق أفعال العبـــاد وإنه مريد للكائنات ولا ذكر أيضاً مسائل الأسماء والأحكـام ، وأن الفاسق لا يخرج عن الإيمان بالكلية . ولا يجب إنفاذ الوعيد ، بل يجوز العفو عن أهـــل الكبائر . ولا ذكر مسائل الإمامة والتفضيل . وكل هذه الأصول تذكـــر في مختصرات المعتقدات التي يصنفها متأخرو الأشاعرة كالعقيدة القدســـية لأبي حامد ، والعقيدة البرهانية المختصرة من إرشاد أبي المعالي ونحوهما فضلاً عـــن الاعتقاد الذي تذكره أئمة الأشعرية كالقاضي أبي بكر وذويه فإنهم يزيـــدون

على ذلك إثبات الصفات الخبرية ، وإثبات العلو[1] وأمثال ذلك فضلاً عن الاعتقاد الذي ذكره الأشعري في المقالات عن أهل السنة وأصحاب الحديث فإن فيه جملاً مفصلة فضلاً عما يذكره السلف والأئمة الكبار من الإثبات والتفصيل المبين للسنة الفاصل بينها وبين كل بدعة ، ولهذا كان أصحاب هذا المصنف مع انتسابهم إلى الأشعري إنما هم في باب الصفات مقرون بما تقر به المعتزلة ولا يقرون بما تقر به الأشعرية من الزيادات ، وبحوث أبي عبد الله ابن الخطيب تعطيهم ذلك فإن الوقف والحيرة [2] ظاهر على كلامه في إثبات الصفات ، ومسألة الرؤيا والكلام وأمثالها بخلاف مسائل القدر فإنه جازم فيها بمخالفة المعتزلة ، وهذه الطريقة تشبه من بعض الوجوه طريقة ضرار بن عمرو وحسين النجار وأمثالهما ممن كان يقر بالقدر ولكنه في الصفات بين المعتزلة والأشعرية أو تشبه طريقة الواقفية الذين كانوا يقفون في القرآن ، فلا يقولون هو مخلوق ولا غير مخلوق .

وكلام أئمة السنة في ذم هؤلاء ، وكلام متكلمة الصفاتية كالأشعري ، وغيره في ذلك مشهور معروف[3].

(فإن قيل) فالمعتزلة لا تقر بمنكر ونكير، والصراط والميزان ، ونحو ذلك مما ذكره هذا المصنف ؟

(قيل المعتزلة) في ذلك على قولين منهم من يثبت ذلك ومنهم من ينفيه

---

[1] انظر اضطراب أئمة الأشاعرة في جميع أبواب العقيدة ، كتاب منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في التوحيد ٦٣٢/٢ ، ٦٥٧ ، والكتاب رسالة علمية لخالد ابن عبد اللطيف بن محمد نور .

[2] انظر حيرة وشك أئمة الأشاعرة واعترافهم بذلك : كتاب منهج السلف والمتكلمين ٩٥١/٣ ، ٩٦٧ ، والكتاب رسالة علمية تأليف جابر إدريس علي أمير .

[3] انظر آثار السلف في ذلك ، كتاب السنة للخلال ١٢٩ ، ١٤٦ .

على أن ما ذكره ليس فيه ما يدل على إثبات هذه الأمور ، وإنما فيه الإقرار بكل ما أخبر به الرسول[1] ﷺ من هذه الأمور ، ليس في المعتزلة ولا غـيرهم من المسلمين من يقول لا أقر بما أخبر به الرسول ، بـل كل مسلم يقول إن ما أخبر به الرسول فهو حق يجب تصديقه به .

وكل المسلمين من أهل السنة والبدعة يقولون آمنت بالله ، وما جاء عـن رسول الله على مراد رسول الله فإنه متى لم يقر بهذا فهو كافر كفراً ظاهراً ولا يتميز بهذا القـول المجـمل مذهب أهل السنة عن غيرهم ، ولهذا لا يكتفـي إمام من أئمة السنة بمجرد هذا ومن نقل عن الشافعي وغيره أنه اكتفى بهـذا فقد كذب عليه وإنما هذا قول بعض المتأخرين وهو قول صحيح لا يخالف فيه إلا كافر لكن العلم بالسنة مفصلاً مقام آخر ، فالمبتدع إذا نـازع السـني لا ينازعه في تصديق الرسول في كل ما أخبر به لكن ينازعه هل أخـبر بذلـك الرسول أم لا ؟

وهل خبره على ظاهره أم لا ؟ ، وهو لم يثبت لا هذا ولا هذا ، إذ هما من علم النقل ودلالة الألفاظ وليس فيما ذكره شيء من هذا وهذا .

كما أن كلامه في التوحيد ليس مبنياً على أصول الأشـعرية ولا أصـول المعتزلة بل على أصول المتفلسفة فهو متردد بين الفلسفة والاعتزال وأخذ مـن بحوث المنتسبين إلى الأشعرية كالرازي ونحوه ما قد يقوله هؤلاء وهؤلاء .

وكذلك يحكي عنه خواص أصحابه أنه كان في الباطن يميل إلى ذلك وقـد ظهر ذلك في خواص المحدثين من أصحابه كالقشيري وغيره ، ومعلـوم أنـه تكلم بمبلغ علمه وحسب اجتهاده ونهاية عقله وغاية نظره .

---

[1] بل وجد منهم من رد خبر الرسول ﷺ نهاراً جهاراً انظر في ذلـك تـاريخ بغـداد ١٧٢/٢، والصواعق المرسلة ١٠٣٨/٣ وما قبلها وما بعدها .

ولكن المقصود أن تعرف المقالات والمذاهب وما هي عليه من الدرجات والمراتب ليعطي كل ذي حق حقه ويعرف المسلم أين يضع رجله .

[ما يتميز به أهل السنة عن المعتزلة في هذا الكلام]

(**إذا تبين هذا**) فنحن ننبه على ما يتميز به أهل السنة عن المعتزلة ومن هو أبعد عن الحق منهم كالمتفلسفة (فنقول) إذا ثبت بهذا الدليل أنه سبحانه متكلم وثبت أن الرسل أخبروا بذلك فنقول الذي أخبرت به الرسل أنه متكلم بكلام قائم بنفسه هذا هو الذي نبينه وهذا هو الذي فهمه عنهم أصحابهم ثم تابعوهم بإحسان بل علموا هذا من دين الرسل بالاضطرار ولم يكن في صدر الأمة وسلفها من ينكر ذلك وأول من ابتدع خلاف ذلك الجعد بن درهم ثم صاحبه الجهم بن صفوان وكلاهما قتل .

أما الجعد بن درهم الذي كان يقال إنه معلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وكان يقال له الجعدي نسبة إلى الجعد فإنه قتله خالد القسري؛ ضحى به بواسط يوم النحر وقال (أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحايكم فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً و لم يكلم موسى تكليماً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً) ثم نزل فذبحه[1] وكانوا أول ما أظهروا بدعتهم قالوا : إن الله لا يتكلم ولا يكلم كما حكى عن الجعد وهذه حقيقة قولهم .

فكل من قال القرآن مخلوق فحقيقة قوله إن الله لم يتكلم ولا يكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يحب فلما رأوا ما في ذلك من مخالفة القرآن والمسلمين قالوا : إنه يتكلم مجازاً ، يخلق شيئاً يعبر عنه لا أنه في نفسه يتكلم فلما شنع المسلمون عليهم قالوا يتكلم حقيقة ولكن المتكلم هو من أحدث الكلام وفعله ولو في غيره، فكل من أحدث كلاماً ولو في غيره كان متكلماً بذلك الكلام حقيقة

---

[1] تقدم بيان ضعف هذه القصة انظر ص٢٩ .

وقالوا : المتكلم من فعل الكلام لا من قام به الكلام ، وهذا الذي استقر عليه قول المعتزلة وهم يموهون على الناس فيقولون أجمع المسلمون على أن الله متكلم ولكن اختلفوا في معنى المتكلم هل هو مَنْ فَعَلَ الكلام أو من قام به الكلام وما زعموه من أن المتكلم يكون متكلماً بكلام قائم بغيره قول خرجوا به عن العقل والشرع واللغة .

وكان قدماء الصفاتية من السلف والأئمة والكلابية والكرامية والأشعرية يحققون هذا المقام ، ويثبتون ضلال الجهمية من المعتزلة وغيرهم فيه ، ولكن الرازي ونحوه أعرض عنه وقال: هذا بحث لفظي وزعم أنه قليل الفائدة ثم سلك مسلكاً ضعيفاً في الرد عليهم قد بيناه في غير هذا الموضع .

[الرد على الرازي]

وهذا غلط عظيم جداً من وجهين (أحدهما) أن المسألة إذا كانت سمعية وأنت إنما أثبت إنه متكلم بأن الرسل بلغت أمره ونهيه الذي هو كلامه كان من تمام ذلك البحث عن مراد الرسل بكونه آمراً ناهياً متكلماً هل مرادهم بذلك أنه خلق كلاماً في غيره أو أنه قام به كلام تكلم به والدلائل السمعية مقرونة بالبحث عن ألفاظ الرسل ولغاتهم التي بها خاطبوا الخلق فصارت هذه المقدمة هي الركن المعتمد في الرد على المعتزلة كما سلكه قدماء الصفاتية وأئمتهم بل هي الركن المعتمد في معنى كونه متكلماً إذا ثبت ذلك بالطرق السمعية .

(الثاني) إن المسألة ليست لغوية فقط بل كون الصفة إذا قامت بمحل هل يعود حكمها على ذلك المحل أو على غيره، هو من البحوث العقلية النافعة في هذا المقام، والسلف رضي الله عنهم عرفوا حقيقة المذهب وردوه بناء على هذا الأصل كما ذكره البخاري في كتاب خلق العباد وقال : قال ابن مقاتل سمعت ابن المبارك يقول: من قال ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾

مخلوق فهو كافر ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك[1] ، وقال : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية[2] ، وقال سليمان ابن داود الهاشمي : من قال إن القرآن مخلوق فهو كافر ، وإن كان القرآن مخلوقاً كما زعموا فلم صار فرعون أولى بأن يخلد في النار إذ قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ؟ وزعموا أن هذا مخلوق ومن قال: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ مخلوق فهذا أيضاً قد ادعى ما ادعى فرعون فلم صار فرعون أولى بأن يخلد في النار من هذا وكلاهما عنده مخلوق ، فأُخبر بذلك أبو عبيد فاستحسنه وأعجبه[3].

قال البخاري قال أبو الوليد : سمعت يحيى بن سعيد وذكر له أن قوماً يقولون: القرآن مخلوق فقال كيف يصنعون بـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾ [الإخلاص:١-٢] وبقوله : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾[4] [طه:١٤].

[الرد على من قال كلام الله مخلوق]

وروي عن وكيع بن الجراح أنه قال : لا تستخفوا بقولهم القرآن مخلوق فإنه من شر قولهم إنما يذهبون إلى التعطيل[5].

ومعنى كلام السلف أن من قال " إن كلام الله مخلوق فحقيقة قوله أن الله تعالى لا يتكلم وأن المحل الذي قام به ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ هو

---

[1] رواه عبد الله بن أحمد في السنة برقم ١٥ ، وإسناده صحيح .

[2] رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٣١ طبعة دار الجيل .

[3] رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٣٦ .

[4] رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٣٣ .

[5] رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٣٧.

المدعى الإلهية كما أن فرعون لما قام به [النازعات:٢٤]" أنا ربكم الأعلى " كان مدعياً للربوبية وكلام السلف مبني على ما يعلمونه من أن الله خالق أفعـــال العبـــاد وأقوالهم وإذا كان كلامه ما خلقه في غيره كان كل كلام كلامـــه وكان كلام فرعون كلامه إذ المتكلم من قام به الكلام فلا يكـــون متكلمـــاً بكلام يكون في غيره كسائر الصفات والأفعال فإنه لا يكون عالماً بعلم يقـــوم بغيره ولا قادراً بقدرة تقوم بغيره ، ولا حياً بحياة تقـــوم بغـــيره . وكســـائر الموصوفين فإن الشيء لا يكون حياً عالماً قادراً بحياة أو علم أو قـــدرة تقـــوم بغيره ولا يكون متحركاً أو ساكناً بحركة أو سكون يقوم بغيره كما لا يكون متلوناً بلون يقوم بغيره ".

(وهنا) أربع مسائل، مسألتان عقليتان ومسألتان سمعيتان لغويتان :

(الأولى) : أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها إلى ذلك المحل فكان هو الموصوف بها فالعلم والقدرة والكلام والحركة والسكون إذا قام بمحل كـــان ذلك المحل هو العالم القادر المتكلم أو المتحرك أو الساكن .

(الثانية) أن حكمها لا يعود على غير ذلك المحل فلا يكون عالماً بعلـــم يقوم بغيره ولا قادراً بقدرة تقوم بغيره ولا متكلماً بكلام يقـــوم بغـــيره ولا متحركاً بحركة تقوم بغيره وهاتان عقليتان

(الثالثة) أنه يشتق لذلك المحل من تلك الصفة اسم إذا كانت تلك الصفـة مما يشتق لمحلها منها اسم ، كما إذا قام العلم أو القدرة أو الكلام أو الحركـــة بمحل، قيل: عالم أو قادر أو متكلم أو متحرك بخلاف أصناف الروائح الـتي لا يشتق لمحلها منها اسم .

(الرابعة) أنه لا يشتق الاسم لمحل لم يقم به تلك الصفة ، فلا يقال لمحل لم يقم به العلم أو القدرة أو الإرادة أو الكلام أو الحركة إنه عـــالم أو قـــادر أو مريد أو متكلم أو متحرك .

والجهمية والمعتزلة عارضوا هذا بالصفات الفعلية ، فقالوا : إنه كما أنه خالق عادل بخلق وعدل لا يقوم به بل هو موجود في غيره ، فكذلك هو متكلم مريد بكلام وإرادة ، لا تقوم به بل يقوم الكلام بغيره ممن سلم لهم هذا النقص ، كالأشعري ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد أظهر تناقضهم و لم يجيبوهم بجواب مستقيم[1] .

وأما السلف وجمور المسلمين من جميع الطوائف فإنهم طردوا أصلهم وقالوا: بل الأفعال تقوم به كما تقوم به الصفات والخلق ليس هو المخلوق ، وذكر البخاري أن هذا إجماع العلماء ، ومن قال الصفات تنقسم إلى صفات ذاتية وفعلية ، و لم يجعل الأفعال تقوم به، فكلامه فيه تلبيس فإنه سبحانه لا يوصف بشيء لا يقوم به وإن سلم أنه يتصف بما لا يقوم به ، فهذا هو أصل الجهمية الذين يصفونه بمخلوقاته يقولون: إنه متكلم ومريد وراض وغضبان ومحب ومبغض وراحم لمخلوقات يخلقها منفصلة عنه لا بأمور تقوم بذاته .

(**إذا تبين ذلك**) فالسلف لما علموا هذا علموا أن قول من قال: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ مخلوق يوجب أن يكون هذا الكلام كلاماً للشجرة لا كلاماً لله لأنه قام بالشجرة لم يقم بالله . كما أن كلام فرعون قام به ، وإن كان الله خالق ذلك كله فإنه خالق العباد وأفعالهم وكلامهم وهذا أيضاً مما يبين أنه لو كان من يخلق الكلام في غيره متكلماً لوجب أن يكون كل كلام في الوجود كلامه وهذا يقوله غالية الجهمية الاتحادية كصاحب الفصوص[2] ونحوه فإنه يقول:

---

[1] انظر مخالفة أتباع الأئمة لأئمتهم ، كتاب الاستقامة (١٣/١) وما بعدها .

[2] هو ابن عربي الطائي تقدمت ترجمته ص١٠١ .

وكل كلام في الوجود كلامه سواءً علينا نثره ونظامه

ومعلوم أن هذا الكلام أعظم من كفر عباد الأصنام ، كما ذكر ابن المبارك وغيره من السلف ، وأيضاً فإن الله تعالى قد أنطق أشياء كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور:٢٤-٢٥] وقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت:٢٠-٢١]

وقال : فهو منطق كل شيء وخالق نطقه ولا نزاع أنه خالق النطق في غير الحي المختار ، وإنما تنازعت القدرية في خلق أقوال الأحياء وأفعالهم ، فإن كان حقيقة كلامه ما خلقه في غيره من الكلام فهذا جميعه كلامه وما في هذا الكلام المخلوق من ضمير المتكلم إما أن يعود إلى خالقه أو إلى محله ، فإن عاد إلى خالقه كانت شهادة الأعضاء شهادة الله وكان قول فرعون: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ؟ قولاً لله وكان قولهم لجلودهم " لم شهدتم علينا " قولاً لله وكان قول الجلود " أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء " بمعنى أنطقت نفسي .

ولم يكن فرق عندهم بين نطق وأنطق ، وإن عاد الضمير إلى محله كان الكلام المخلوق في الشجرة ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ كلاماً للشجرة فتكون الشجرة هي القائلة : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ ، وهذا حقيقة قولهم لما ثبت من أن الكلام كلام لمن قام به ، فيكون ضمير المتكلم فيه عائداً إلى محله ، ولما كان هذا المعنى مستقراً في فطر الناس وعقولهم كان السلف يقصدون بمجرد قولهم : القرآن كلام الله . الرد

على هؤلاء الجهمية الذين حقيقة قولهم إن القرآن ليس كلام الله وإنما هو كلام لجسم مخلوق ، وحقيقة قولهم إن الله لم يكلم موسى وإنما كلمه مخلوق من مخلوقاته ، قال البخاري: قال عبد الرحمن ابن عفان سمعت سفيان بن عيينة[1] في السنة التي ضرب فيها المريسي ، فقام ابن عيينة من مجلسه مغضباً ، قال ويحكم القرآن كلام الله قد صحبت الناس وأدركتهم هذا عمرو بن دينار[2] وهذا ابن المنكدر[3] حتى ذكر منصور[4] والأعمش[5] ومسعر بن كدام[6] ، فقال ابن عيينة: قد تكلموا في الاعتزال والرفض والقدر وأمرونا باجتناب القوم فما نعرف القرآن إلا كلام الله ومن قال غير هذا فعليه لعنة الله ، وما أشبه هذا القول بقول النصارى ، لا تجالسوهم ولا تسمعوا كلامهم .

وابن عيينة أخرج هذا القول عن الرفض والاعتزال لأن المعتزلة أولا الذين كانوا في زمن عمرو بن عبيد[7] وأمثاله لم يكونوا جهمية ، وإنما كانوا

---

(1) تقدمت ترجمته .

(2) هو عمرو بن دينار ، أبو محمد الجمحي مولاهم المكي أحد الأعلام توفي سنة ١٢٦هـ ، انظر السير ٣٠٠/٥ تهذيب التهذيب ٢٨/٨ ، النهاية ٢٣/١٠ .

(3) هو محمد بن المنكدر شيخ الإسلام القرشي التيمي المدني ، توفي سنة ١٣٠هـ ، انظر السير ٣٥٣/٥ ، العبر ١٣١/١ ، الشذرات ١٧٧/١ ، النهاية ٣٩/١٠ ، التاريخ الصغير ٣٢/٢ .

(4) تقدمت ترجمته .

(5) هو الحافظ الأعمش ، أبو محمد سليمان بن مهران شيخ المقرئين والمحدثين ، توفي سنة ١٤٨هـ ، انظر تاريخ بغداد ٣/٩ ، الشذرات ٢٢٠/١ ، الميزان ٢٢٤/٢ .

(6) هو مسعر بن كدام ، أبو سلمة الهلالي الكوفي الإمام الثبت ، توفي سنة ١٥٥هـ ، انظر السير ١٦٣/٧ ، النهاية ١١٦/١٠ ، العبر ١٧٢/١ .

(7) هو عمرو بن عبيد بن باب ويقال كيسان أبو عثمان شيخ المعتزلة ، توفي سنة ١٤٢هـ، انظر النهاية ٨٠/١٠ ، السير ١٠٤/٦ ، الميزان ٢٧٣/٣ .

يتكلمون في الوعيد وإنكار القدر ، وإنما حدث فيهم نفي الصفات بعد هـــذا ولهذا لما ذكر الإمام أحمد بن حنبل في رده على الجهمية قول جهم قال فاتبعه قوم من أصحاب عمرو بن عبيد وغيره واشتهر هذا القول عـــن أبي الهذيـــل العلاف[1] والنظام وأشباههم من أهل الكلام .

[قدمـــاء الرافضـة لا تقول بنفـي الصفات]

وأما الرافضة فلم يكن في قدمائهم من يقول بنفي الصفات بـــل كـــان الغلو في التجسم مشهوراً عن شيوخهم هشام بن الحكم[2] وأمثاله .

وقال البخاري حدثني الحكم بن محمد الطبري[3] كتبت عنه بمكـــة قـــال حدثنا سفيان بن عيينة[4] قال أدركت مشيختنا منذ سبعين سنة منهم عمرو بن دينار[5] ، يقولون: القرآن كلام الله وليس بمخلوق . قلت كان المريسي قـــد صنف كتاباً في نفي الصفات وجعل يقرؤه بمكة في أواخر حياة ابن عيينـــة ، فشاع بين علماء أهل مكة ذلك ، وقالوا صنف كتاباً في التعطيل فســـعوا في عقوبته وحبسه ، وذلك قبل أن يتصل بالمأمون ويجري من المحنة ما جـــرى . وقول ابن عيينة ما أشبه هذا الكلام بكلام النصارى هو كما قال كمـــا قـــد بسط في غير هذا الموضع فإن عيسى مخلوق ، وهم يجعلونه نفس الكلمـــة لا يجعلونه المخلوق بالكلمة ، وأيضاً فأئمة نصارى كغشتكين أحد فضلائـــهم

---

[1] رأس المعتزلة أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبيد الله البصري العملاق ، تـــوفي ســـنة ٢٢٧هـــ ، انظر لسان الميزان ٤١٣/٥ ، النهاية ٣١٢/١٠ ، السير ٥٤٢/١٠ ، تـــاريخ بغداد ٣٦٦/٣ .

[2] هو أبو محمد شيخ الإمامية في وقته ، توفي ١٩٠هـــ ، انظر منهج المقـــال ص٢٥٩، وسفينة البحار ٧١٩/٢.

[3] هو الحكم بن محمد أبو مروان الطبري توفي سنة ٢١١هــ، وانظر الثقات لابن حبان .

[4] تقدمت ترجمته .

[5] تقدمت ترجمته انظر ص ١١٩.

الأكابر يقولون إن الله ظهر في صورة البشر متراثياً لنا كما ظهر كلامه لموسى في الشجرة فالصوت المسموع هو كلام الله وإن كان خلقه في غيره وهـذا المرئي هو الله وإن كان قد حل في غيره .

قال البخاري وقال علي بن عاصم[1] ما الذين قالوا بأن لله ولد أكفر مـن الذين قالوا إن الله لا يتكلم .

قال وقال علي بن عبد الله يعني ابن المديني[2] : القرآن كلام الله من قال إنـه مخلوق فهو كافر لا يصلى خلفه[3].

قال وقال أبو الوليد : من قال القرآن مخلوق فهو كافر ومن لم يعقد قلبه على أن القرآن ليس بمخلوق فهو خارج عن الإسلام[4].

قال وقال أبو عبيد : نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس فما رأيـت قوماً أضل في كفرهم منهم وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلا مـن لا يعـرف كفرهم [5].

---

[1] هو أبو الحسن علي بن عاصم بن صهيب القرشي التيمي ، توفي سنة ٢٠١هـ ، انظر العبر ٣٢٩/١ ، السير ٤١/١١ ، الميزان ١٣٨/٣ ، الشذرات ٨١/٢ ، تـاريخ بغـداد ٤٥٨/١١ .

[2] هو الإمام الحجة أحد الأعلام أبو الحسن علي بن عبد الله بن جعفـر بـن نجيـح الحـافظ المعروف بابن المديني ، توفي سنة ٢٣٤هـ ، انظر العـبر ٣٢٩/١ ، السـير ٤١/١١ ، الميزان ١٣٨/٣ ، الشذرات ٨١/٢ ، تاريخ بغداد ٤٥٨/١١ .

[3] أخرجه ابن الطبري في السنة برقم ٤٥٣ ، والخطيب في تاريخ بغداد ٤٧٢/١١ بسند صحيح .

[4] رواه أبو داود في المسائل ص ٢٦٦ بسند صحيح .

[5] رواه البخاري في خلق أفعال العباد .

قال وقال معاوية بن عمار : سمعت جعفر بن محمد يقول : القرآن كلام الله ليس بمخلوق[1] .

وهذا باب واسع كبير منتشر في كتب السنة والحديث : فهذا تمام ما قرره في مسألة الكلام[2].

---

[1] رواه البخاري في خلق أفعال العباد ١٠٩ ، والدارمي في الرد على الجهمية برقم ٣٤٥، وعبد الله بن أحمد في السنة برقم ١٣٢ ، ١٣٤ ، وأبو داود في المسائل ص ٢٦٥، والآجرى في الشريعة ص ٧٧ ، وإسناده صحيح .

[2] محمد بن إسماعيل البخاري ، وكتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية تأليف / عبد الله بن يوسف الجديع .

فصل

[طرق الناس في إثبات كونه متكلماً]

وللناس طرق أخرى في إثبات كون الله متكلماً، منها ما في القرآن من الإخبار عن ذلك كقوله تعالى: (قال الله) — (ويقول الله) وقوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤] وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣] وما ذكره في القرآن من كلمة وكلماته كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ [يونس:١٩] وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥] وما فيه من ذكر مناداته ومناجاته كقوله: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم:٥٢] وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [القصص:٦٢] ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [القصص:٦٥] ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشعراء:١٠] وما في القرآن من ذكر إنبائه وقصصه كقوله: ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ [التوبة:٩٤] وقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف:٣] وما في القرآن من ذكر حديثه كقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [النساء:٨٧] وقوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [الزمر:٢٣] من القول منه وقوله: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣] .

وقوله تعال : ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الأنعام:٧٣] .

وما ذكر في القرآن أنه منه أو ما أضيف إليه فإن كان عيناً قائمة بنفسها أو أمراً قائماً بتلك العين كان مخلوقاً كقوله في عيسى (وروح منه) وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ ﴾ [الجاثية:١٣] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ [النحل:٥٣] .

وأما ما كان صفة لا تقوم بنفسها و لم يذكر لها محل غير الله كان صفة له فكالقول والعلم والأمر إذا أريد به المصدر كان المصدر من هذا الباب كقوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف:٥٤] وإن أريد به المخلوق المكون بالأمر كان من الأول كقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ ﴾ [النحل:١] .

وبهذا يفرق بين كلام الله سبحانه ، وعلم الله ، وبين عبد الله وبيت الله وناقة الله وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم:١٧] وهذا أمر معقول في الخطاب فإذا قلت: علم فلان وكلامه ومشيئته لم يكن شيئاً بائناً عنه ، والسبب في ذلك أن هذه الأمور صفات لما تقوم به فإذا أضيفت إليه كان ذلك اضافة صفة لموصوف إذ لو قامت بغيره لكانت صفة لذلك الغير لا لغيره .

وأعلم أن الاستدلال على الكلام بمثل هذه السمعيات أكمل من الاستدلال على السمع والبصر بالسمعيات لأن ما أخبر الله به عن نفسه من قوله وكلامه وإنبائه وقصصه وأمره ونهيه وتكليمه وندائه ومناجاته وأمثال ذلك أضعاف وأضعاف ما أخبر به من كونه سميعاً بصيراً .

وأيضاً فإنه نوع الإخبار عن كل نوع من أنواع الكلام وثنى ذلك وكرره في مواضع ولا يحصى ما في القرآن من ذلك إلا بكلفة ، ومن المعلوم

بالاضطرار أن المخاطبين لا يفهمون من هذا الكلام عند الإطلاق أنه خلق صوتاً في غيره وإنما يفهمون منه أنه هو الذي تكلم بذلك وقاله كما قالت عائشة في حديث الإفك " ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يتلى "[1] فلو كان المراد بهذه الجمل الكثيرة العظيمة البينة الصريحة خلاف مفهومها ومقتضاها لوجب بيان ذلك إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، ثم لا يقدر أحد أن يحكي عنهم أنهم جعلوا الكلام كلاماً لمن أحدثه في غيره بل لا يوجد في كلامهم ، قال ويقول، تكلم ويتكلم إلا إذا كان الكلام قائماً بذاته .

وإذا احتجت الجهمية من المعتزلة ونحوهم بأن أحدنا إنما كان متكلماً لأنه فعل الكلام . قيل هو لم يحدثه في غيره و لم يباين كلامه نفسه وأنتم تجعلون الكلام البائن للمتكلم كلاماً له . فإن قالوا: ولا نعقل الكلام إلا كلاماً لمن فعله بمشيئته وقدرته فإن كلام أحدنا لم يكن كلاماً له بمجرد قيامه بذاته بل لكونه فعله . قيل أما كلام أحدنا فهو قائم به وهو تكلم به بذاته ومشيئته وقدرته فهو قد جمع الوصفين أنه قائم بذاته وأنه تكلم به بمشيئته وقدرته فليس جعلكم الكلام كلامه لمجرد كونه فعله بأولى من جعل غيركم الكلام كلاماً له لمجرد كونه قام بذاته .

وهذا موضع تنازعت فيه الصفاتية بعد تفاقهم على تضليل الجهمية من الفلاسفة والمعتزلة ونحوهم على قولين مشهورين، حتى القائلين بأن الكلام معنى قائم بنفس المتكلم وراء الأصوات تنازعوا في ذلك كما ذكره أبو محمد ابن كلاب[2] فيما حكاه عنه أبو بكر ابن فورك[3] .

---

[1] الحديث قطعة من قصة الإفك ، رواه البخاري برقم ٤٧٥٠ ، ومسلم برقم ٢٧٧٠.

[2] تقدمت ترجمته ص٣١.

[3] هو أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني ، توفي سنة ٤٠٦هـ ، انظر العبر=

قال ابن فورك : فأما صريح عبارته وما نص عليه في كتـــاب الصفـــات الكبيرة في تحقيق الكلام فإنه قال فأما الكلام فإنه على ما شاهدناه منه معـــنى قائم بالنفس فقوم يزعمون أنه نعت لها ، وقوم يزعمون أنه فعل من أفعالها إلا الهم يعبرون عنه بالألفاظ والكتاب والإيماء ، وكل ذلك قد يســـمى كلامـــاً وقولاً لأدائه ما يؤدى عن تلك المعاني الخفيات .

وكذلك أبو بكر عبد العزيز[1] ذكر في كتابه ما ذكره القاضي أبو يعلى[2] عنه أن أصحاب الإمام أحمد تنازعوا في معنى قولهم: القرآن غير مخلوق، هـــل المراد به أنه صفة لازمة له كالعلم والقدرة أو أنه يتكلم إذا شاء ويســـكت إذا شاء ؟ وهذه المسألة متعلقة بمسألة قيام الأفعال بذاته المتعلقة بمشيئته، هـل يجوز أم لا ؟ كالإتيان والمجيء والاستواء ونحو ذلك ، وتســـمى مســـألة حلـــول الحوادث ، وكل طائفة من طوائف الأمة وغيرهم فيها علـــى قولـــين حـــتى الفلاسفة لهم فيها قولان لمتقدميهم ومتأخريهم .

وذكر أبو عبد الله الرازي[3] أن جميع الطوائف تلزمهم هذه المسألة وإن لم يلتزموها وأول من صرح بنفيها الجهمية من المعتزلة ونحوهم ووافقهم علـــى ذلك أبو محمد ابن كلاب وأتباعه كالحـــارث المحاســـبي[4] ، وأبي العبـــاس القلانسي وأبي الحسن الأشعري[5] ، ومن وافقهم من أتباع الأئمة كالقاضي

= ٢١٣/٢ ، الشذرات ١٨١/٣ ، السير ٢٤١/١٧ .

(١) لم أجد من ترجمه .

(٢) تقدمت ترجمته ص٣٠ .

(٣) تقدمت ترجمته ص٣٠.

(٤) تقدمت ترجمته ص٣١.

(٥) تقدمت ترجمته ص٥٩.

أبي يعلى وأبي الوفاء ابن عقيل[1] وأبي الحسن ابن الزاغوني[2] وهو قول طائفة من متأخري أهل الحديث كأبي حاتم البستي[3] ، والخطابي[4] ونحوهما ، وكثير من طوائف أهل الكلام يثبتها كالهشامية[5] والكرامية[6] والزهيرية[7] ، وأبي معاذ التومني وأمثالهم كما ذكره الأشعري عنهم في المقالات وهو قول أساطين فلسفة المتقدمين ، كأبي البركات صاحب المعتبر وأمثاله من المتفلسفة وهو قول جمهور أئمة الحديث كما ذكره عثمان بن سعيد الدارمي وإمام الأئمة أبو بكر ابن خزيمة وغيرهما عن مذهب السلف والأئمة ، وكما ذكره شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري ، وأبو عمر ابن عبد البر النميري .

وقاله طوائف من أصحاب أحمد كالخلال وصاحبه ، وأبي حامد وأمثالهم وقاله داود بن علي الأصفهاني وأتباعه ، وهو مقتضى ما ذكروه عن السلف والأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاري صاحب الصحيح وأمثالهم ، وعليه يدل كلام السلف فهؤلاء إذا قالوا : المتكلم من قام به الكلام وهو يتكلم بمشيئته وقدرته خصموا المعتزلة

---

[1] تقدمت ترجمته ص٧٢ .

[2] تقدمت ترجمته ص٧٣.

[3] هو الحبر العلامة أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ التميمي البستي ، توفي سنة ٣٥٤هـ ، انظر السير١٦/٩٢ ، والميزان ٣/٥٠٦، والعبر٢/٩٤.

[4] هو الفقيه الأديب حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي ، أبو سليمان الخطابي، توفي سنة ٣٨٨هـ ، انظر السير ١٧/٢٣ ، العبر ٢/١٧٤ ، الدول ١/١١٣ ، الشذرات ٣/١٢٧ .

[5] تقدم تعريفها ص٥٢ .

[6] تقدم تعريفها ص٣٠.

[7] لم أجد لها تعريفاً في كتب الفرق التي بين يدي ، الفرق بين الفرق ، الملل والنحل، معجم الفرق ، والله أعلم .

وانقطعت حجتهم عنهم فإنهم اعتبروا الوصفين جميعاً ، فمن جعل المتكلم من قام به الكلام ، وإن لم يكن متكلماً بمشيئته وقدرته ، أو جعله من فعله بمشيئته وقدرته وإن لم يكن قائماً به لحذف أحد الوصفين .

[الطرق الدالة على النفي والإثبات]

ولا ريب أن الطرق الدالة على الإثبات والنفي إما السمع وإما العقل (أما السمع) فليس مع النفاة منه شيء بل القرآن والأحاديث هي من جانب الإثبات كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٦٥] وقوله : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:١٠٥] وقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤] وقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت:١١] وقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام:١٥٨] .

وأمثال ذلك مما في القرآن فإنه كثير جداً .

وكذلك الأحاديث الصحيحة كقوله عليه الصلاة والسلام ، لما صلى بهم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل « **أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال : فإنه قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكوكب** »[1] وما يذكره من خطابه للعباد يوم القيامة وخطابه للملائكة ، وأمثال ذلك بل كل ما تحتج به المعتزلة على أن القرآن

[1] تقدم تخريجه ص ٨٧.

مخلوق من نحو هذا فإنه لا يدل على أنه بائن منه . وإنما يدل على أنه يتكلم بمشيئته وقدرته فيمكن هؤلاء التزامه ويكون قولهم متضمناً للإيمان بجميع ما أنزل الله مما يدل على أنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وعلى أن كلامه غير مخلوق بخلاف غيرهم ، فإنه يقرر بعض النصوص ويرد بعضها بتحريف أو تفويض ومن جعله متكلماً بمشيئته وقدرته وقال إن كلامه قائم به زال عنه هذا كله والمنازع لهم يحتاج أن يقرر بالعقل امتناع ذلك ثم يبين أنه يمكن تأويله .

[الطرق العقلية في مسألة الكلام]

(فأما الطرق العقلية) فالمثبتون يقولون إنها من جانبهم دون جانب النفاة كما تزعم النفاة أنها من جانبهم ، وذلك أنهم قالوا إن قدرته على ما يقوم به من الكلام ، والفعل صفة كمال كما أن ما يقوم به من العلم والقدرة صفة كمال ومن المعلوم أن من قدر على أن يفعل ويتكلم أكمل ممن لا يقدر على ذلك ، كما أن قدرته على أن يبدع الأشياء صفة كمال والقادر على الخلق أكمل ممن لا يقدر على الخلق .

وقالوا: الحي لا يخلو عن هذا، والحياة هي المصححة لهذا كما هي المصححة لسائر الصفات وإذا قدر حي لا يقدر على أن يفعل بنفسه ويتكلم بنفسه كان عاجزاً بمنزلة الزمن والأخرس كما أنه إذا قدر حي لا يسمع ولا يبصر كان أصم أعمى ، فما من طريق يسلكه الصفاتية في إثبات صفاته إلا يسلك هؤلاء نظيره من إثبات ذلك .

[أنواع النفاة]

ولا ريب أن النفاة نوعان (أحدهما) ـ وهم الأصل ـ المعتزلة ونحوهم من الجهمية فهؤلاء ينفون الصفات مطلقاً وحجتهم على نفي قيام الأفعال به من جنس حجتهم على نفي الصفات به ، وهم يسوون في النفي بين هذا وهذا كما صرحوا بذلك وليس لهم حجة تختص بنفس قيام الحوادث . وأما مثبتة الصفات الذين ينفون الأفعال الاختيارية القائمة به كابن كلاب والأشعري فإنهم فرقوا بين هذين بأنه لو جاز قيام الحوادث به لم يخل منها لأن القابل

للشيء لا يخلو عنه وعن ضده وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، وبهـــذا استدلوا على حدوث الأجسام لأنها لا تخلو من الأعراض الحادثة كالحركـــة والسكون والاجتماع والافتراق (فأجابهم الأولون) بثلاثة أجوبة :

(**أحدها**) أن استدلالكم بقيام الأفعال به على حدوثه هو نظير اســتدلال المعتزلة بقيام الصفات به على حدوثه . وقالوا: الصفات أعراض والأعراض لا تقوم إلا بجسم ففرقتم أنتم بين الصفات ـ وهي اللازمة ـ وبين الأعراض وهو فرق صوري يرجع في الحقيقة إلى الاصطلاح فإن جاز أن تقوم به الصفـــات التي هي أعراض في غيره ولا يكون جسماً محدثاً جاز أن تقوم به الأفعال التي هي حركات في غيره ولا يكون جسماً محدثاً وهذا إلزام .

(**الثاني**) قالوا لهم: لا نسلم أن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده وقــد اعترف أبو عبد الله الرازي وأبو الحسن الآمدي[1] ونحوهما بفساد هذا الأصـــل وعليه بنى الأشعري وأصحابه كلامهم في مسألة امتناع قيام الحوادث به ومسألة القرآن ونحوهما من المسائل .

(**الثالث**) هب أنه لا يخلو عنه وعن ضده وأن ذلــك يســتلزم تعــاقب الحوادث لكن لا نسلم أن ذلك يستلزم حدوث ما قام به ، قــالوا والدليـــل الــذي ذكرتموه على حدوث العالم من هذا الوجه دليل ضعيف وقد ألزمكـم الفلاسفة فيه إلزاماً لم تنفصلوا عنه ولا يمكنكم الانفصال عنه إلا بتجويز ذلك على القديم فإنهم قالوا : ما حدث بعد أن لم يكن فلا بد له من سبب حادث فإن ذلك الحادث ممكن والممكن لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح والمرجح إن لم يجب حصول الممكن عند حصوله لم يكن مرجحاً تاماً فـافتقر

---

[1] هو السيف الآمدي أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد ، تـــوفي ســـنة ٦٣١هـ ، انظـــر السير ٣٦٤/٢٢ ، الدول ١٣٦/٢ ، العـــبر ٢١٠/٣ ، الشـــذرات ١٤٤/٥ ، النهاية ١٥١/١٣ .

إلى تمامه ، ثم القول في حدوث ذلك التمام كالقول في حدوث الأول فلابد من مرجح تام يجب عنده الحادث فلا بد لكل حادث من سبب تام يحصل الحادث عند تمام ذلك السبب فإذا كان العالم محدثاً بعد أن لم يكن و لم يحدث سبب يقتضي حدوثه فلم يكن حين ابداعه أمر يوجب ترجيحه لم يكن قبل إبداعه بل الحالان سواء فيلزم ترجيح الحدوث بلا مرجح .

[مسألة حدوث العالم]

وهذا الموضع هو أصعب المواضع على المتكلمين في بحثهم مع الفلاسفة في مسألة حدوث العالم . وهذه الشبهة أقوى شبه الفلاسفة فإنهم لما رأوا أن الحدوث يمتنع إلا بسبب حادث قالوا : والقول في ذلك الحادث كالقول في الأول .

وقال هؤلاء المثبتة لقيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى: وعلى أصلنا يبطل كلام الفلاسفة فإنه يقال لهم أنتم تجوزون قيام الحوادث بالقديم إذ الفلك قديم عندكم والحركات تقوم به ، وتجوزون حوادث لا أول لها وتعاقب الحركات على الشيء لا يستلزم حدوثه وإذا كان كذلك فلم يجوز أن يكون الخالق للعالم له أفعال اختيارية تقوم به يحدث بها الحوادث ولا يكون تسلسلها وتعاقبها دليلاً على حدوث ما قامت به .

قال هؤلاء لأصحابهم الذين أثبتوا حدوث العالم بهذه الطرق تسلط عليكم الفلاسفة في مسألة حدوث العالم فإنكم إذا أثبتم حدوث العالم وقلتم المحدث لا بد له من محدث لأن تخصيص الحوادث ببعض الأوقات دون بعض لابد من مخصص قال لكم الدهرية[1] : فأنتم تجوزون الحدوث من غير سبب حادث

---

[1] الدهرية هم الذين عطلوا المصنوعات عن صانعها وقالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية:٢٤]، انظر الملل والنحل للشهرستاني ٥٨٢ وما بعدها ط ١١ ـــ المعرفة .

يقتضي التخصيص ببعض الحوادث دون بعض .

فإن قلتم: القديم يخصص مثلاً عن مثل بلا سبب أصلاً جوزتم تخصيص أحد المثلين على الآخر بغير مخصص وهذا يفسد عليكم إثبات العلم بالصانع وهو المقصود بطريقكم فسلكتم طريقاً لم تحصل المقصود من العرفان ، وسلطتم عليكم أهل الضلال والعدوان ، كمن أراد أن يغزو العدو بغير طريق شرعي فلا فتح بلادهم ولا حفظ بلاده بل سلطهم حتى صاروا يحاربونه بعد أن كانوا عاجزين عنه .

ولهذا ذم السلفُ والأئمةُ أهلَ الكلام المحدث المخالف للكتاب والسنة إذ كان فيه من الباطل في الأدلة والأحكام ما أوجب تكذيب بعض ما أخبر به الرسول وتسلط العدو على أهل الإسلام وليس هذا موضع بسط الكلام في هذه الأمور الكبيرة العظيمة[٢] بل نبهنا عليها تنبيهاً مختصراً بحسب ما يحتمله هذا المقام فإن الكلام في مسألة الكلام حير عقول أكثر الأنام الذين ضعفت معرفتهم واتباعهم لما بعث الله به رسله الكرام ، ولهم طرق سمعية في تقريره يطول ذكرها .

(**وأما الطرق العقلية**) فمن وجوه :

[الطرق العقلية للسلف في تقرير مسألة الكلام]

(**أحدها**) أن الحي إذا لم يتصف بالكلام لزم اتصافه بضده كالسكوت والخرس وهذه آفة يتنزه الله عنها فتعين اتصافه بالكلام وهذا المسلك يسلكونه في إثبات كونه سميعاً بصيراً أيضاً فإنه إذا كان حياً و لم يكن سميعاً بصيراً لزم اتصافه بضد ذلك من الصمم والعمى .

(**الثاني**) أن الكلام صفة كمال وهنالك من جعله صفة لا تتعلق بمشيئته واختياره جعله كالعلم والقدرة ومن قال إنه يتعلق بمشيئته وقدرته قال كونه

---

[٢] انظر في ذم الكلام ، كتاب ذم الكلام وأهله ، وصون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام ، وإلجام العوام عن علم الكلام .

متكلماً يتكلم إذا شاء صفة كمال وقد يقول بطرد ذلك في كونه فاعلاً الأفعال الاختيارية القائمة بنفسه ويجعل هذا كله من صفات الكمال وقد يقول القدرة على ذلك هي صفة الكمال إذ الكمال لا يجوز أن يفارق الذات فإنه لم يزل ولا يزال كاملاً مستحقاً لجميع صفات الكمال ، فالقدرة على كونه يقول ما شاء ويفعل ما شاء صفة كمال فالقدرة وحدها غير القدرة مع ما يقترن بها من المقدورية ، وهذا ينبني على أن ما يقوم به من ذلك هل كله مسبوق بالعدم أو لم يزل ذلك يقوم به؟ وفيه لهم قولان ، أحدهما أنه مسبوق بالعدم كما تقوله الكرامية وغيرهم .

(**الثالث**) أنه ليس مسبوقاً بالعدم وهو مذهب أكثر أهل الحديث وكثير من أهل الكلام والفقه والتصوف .

(**الرابع**) أن يقال: المخلوق ينقسم إلى متكلم وغير متكلم والمتكلم أكمل من غير المتكلم وكل كمال هو في المخلوق مستفاد من الخالق فالخالق به أحق وأولى ومن جعله لا يتكلم فقد شبهه بالموات الجماد الذي لا يتكلم وذلك صفة نقص إذ المتكلم أكمل من غيره ، قال تعالى في ذم من يعبد من لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه:٨٩] وقال في الآية الأخرى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا ﴾ [الأعراف:١٤٨] وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل:٧٦] .

فعاب الصنم بأنه أبكم لا يقدر على شيء إذ كان من المعلوم أن العجز عن النطق والفعل صفة نقص فالنطق والقدرة صفة كمال .

والفرق بين هذه الطريق وبين التي قبلها أن هذه استدلال بما في المخلوق من الكمال على أن الخالق أحق به وأنه يمتنع أن يكون مضاهياً للناقص والأولى أنه مستحق لصفات الكمال من حيث هي مع قطع النظر عن كونها ثابتة في المخلوقات لامتناع النقص عليه بوجه من الوجوه سبحانه وتعالى .

فصل

(قال) والدليل على كونه سميعاً بصيراً: السمعيات (قلت) إثبات كونه سميعاً بصيراً وأنه ليس هو مجرد العلم بالمسموعات والمرئيات هو قول أهل الإثبات قاطبة من أهل السنة والجماعة من السلف والأئمة وأهل الحديث والفقه والتصوف والمتكلمين من الصفاتية كأبي محمد ابن كلاب وأبي العباس القلانسي وأبي الحسن الأشعري وأصحابه وطائفة من المعتزلة البصريين بل قدماؤهم على ذلك ويجعلونه سميعاً بصيراً لنفسه كما يجعلونه عالماً قادراً لنفسه . وإثبات ذلك كإثبات كونه متكلماً بل هو أقوى من بعض الوجوه فإن المعتزلة البصريين يثبتونه مدركاً مثل كونه عليماً قديراً بخلاف كونه متكلماً فإنه من باب كونه خالقاً .

وللناس في إثبات كونه سميعاً بصيراً طرق :

[طرق الناس في إثبات كونه سميعاً بصيراً]

(**أحدها**) السمع كما ذكره وهو ما في الكتاب والسنة من وصفه بأنه سميع بصير ولا يجوز أن يراد بذلك مجرد العلم بما يسمع ويرى لأن الله فرق بين العلم وبين السمع والبصر . وفرق بين السمع والبصر وهو لا يفرق بين علم وعلم لتنوع المعلومات قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠] وفي موضع آخر ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ قال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٢٧] ذكر سمعه لأقوالهم وعلمه ليتناول باطن أحوالهم وقال لموسى وهارون ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قرأ على المنبر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ

﴿ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝ ﴾ [النساء:٥٨] ووضع إبهامه على أذنه وسبابته على عينه[1] ولا ريب أن مقصوده بذلك تحقيق الصفة لا تمثيل الخالق بالمخلوق فلو كان السمع والبصر: العلم لم يصح ذلك .

[ضرورة اتصاف الرب بصفتي السمع والبصر]

(**الطريق الثاني**) إنه لو لم يتصف بالسمع والبصر لاتصف بضد ذلك وهو العمى والصمم كما قالوا مثل ذلك في الكلام وذلك لأن المصحح لكون الشيء سميعاً بصيراً متكلماً هو الحياة فإذا انتفت الحياة امتنع اتصاف المتصف بذلك فالجمادات لا توصف بذلك لانتفاء الحياة فيها وإذا كان المصحح هو الحياة كان الحي قابلاً لذلك فإن لم يتصف به لزم اتصافه بأضداده بناء على أن القابل للضدين لا يخلو من اتصاف بأحدهما إذ لو جاز خلو الموصوف عن جميع الصفات المتضادة لزم وجود عين لا صفة لها وهو وجود جوهر بلا عرض يقوم به .

وقد علم بالاضطرار امتناع خلو الجواهر عن الأعراض وهو امتناع خلو الأعيان والذات عن الصفات وذلك بمنزلة أن يقدر المقدر جسماً لا متحركاً ولا ساكناً ولا حياً ولا ميتاً ولا مستديراً ولا ذا جوانب ولهذا أطبق العقلاء من أهل الكلام والفلسفة وغيرهم على إنكار زعم تجويز وجود جوهر خال عن جميع الأعراض وهو الذي يحكى عن قدماء الفلاسفة من تجويز وجود مادة خالية عن جميع الصور ويُذكر هذا عن شيعة أفلاطون[2]وقد رد ذلك عليهم

---

[1] رواه أبو داود برقم ٤٧٢٨ ، وابن خزيمة في التوحيد ص ٤٢ ، وابن حبان في صحيحه برقم ٢٦٥ ، والحاكم في المستدرك ٢٤/١ ، والدارمي في الرد على المريسي ص ٤٧ ، واللالكائي ٤١٠/٣ ، والبيهقي في الأسماء والصفات برقم ٣٦٠ ، وإسناده صحيح ، ولزاماً راجع تعليق البيهقي على الحديث ٤٦٢/١ ، وبرقم ٣٩٠ .

[2] انظر ترجمة أفلاطون في الملل والنحل ص ٤٠٧وما بعدها ، وترجمة مشاهير الفلاسفة ص ٩٦، والفهرست ص٣٠٤ .

أرسطو[1] وأتباعه . وقد بسطنا الكلام في الرد على هؤلاء في غير هذا الموضع وبينا أن ما يدعيه شيعة أفلاطون من إثبات مادة في الخارج خالية عن جميع الصور ومن إثبات خلاء موجود غير الأجسام وصفاتها ومن إثبات المثل الأفلاطونية وهو إثبات حقائق كلية خارجة عن الذهن غير مقارنة للأعيان الموجودة المعينة فظنوها ثابتة في الخارج عن أذهانهم كما ظن قدماؤهم الفيثاغورية[2] أن العدد أمر موجود في الخارج بل وما ظنه أرسطو وشيعته من إثبات مادة في الخارج مغايرة للجسم المحسوس وصفاته وإثبات ماهيات كلية للأعيان مقارنة لأشخاصها في الخارج هو أيضاً من باب الخيال حيث اشتبه عليه ما في الذهن بما في الخارج وفرق بين الوجود والماهية في الخارج .

[الرد على أرسطو وأفلاطون]

وأصل ذلك أن الماهية في غالب اصطلاحهم اسم لما يتصور في الأذهان والوجود اسم لما يوجد في الأعيان ، والفرق بين ما في الذهن وبين ما في الخارج لا ينازع فيه عاقل فهمه ، لكنهم بعدها ظنوا أن في الخارج ماهية للشيء الموجود مغايرة للشخص الموجود في الخارج .

وهذا غلط ما في النفس سواء سمي وجوداً ذهنياً أو ماهية ذهنية أو غير ذلك هو مغاير لما في الخارج سواء سمي ذلك وجوداً أو ماهية أو غير ذلك .

وأما أن يقال أن في الخارج في الجوهر المعين الموجود كالإنسان مثلاً جوهرين أحدهما ماهيته والآخر وجوده فهذا باطل كبطلان قولهم أن فيه جوهرين أحدهما مادته والآخر صورته وكقولهم أنه مركب من الحيوانية والناطقية فإن الحيوانية والناطقية إن أرادوا إنها جوهران وهما الحيوان والناطق فالشخص المعين هو الحيوان وهو الناطق ، وليس هنا شخصان أحدهما حيوان والآخر

---

[1] انظر أخبار أرسطو وترجمته الفهرس ص ٣٠٥ .

[2] انظر الملل والنحل ص ٣٩٨، ٤٠١ .

ناطق وإن أرادوا نفس الحياة والنطق فهذان صفتان قائمتان بالإنسان وصفة الموصوف قائمة به قيام العرض بالجوهر ، والجوهر لا يتركب من أعراضه القائمة به ، ولا يكون وجود أعراضه سابقاً لذاته والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع[1].

والمقصود هنا أن أرسطو وأتباعه وأمثاله من أهل الفلسفة أنكروا على من جوز منهم وجود مادة بلا صورة ، فهم مع أصناف أهل الكلام وسائر العقلاء متفقون على امتناع خلو الجسم عن جميع الصفات والأعراض ، وإن جوز ذلك الصالحي ابتداء فلم يجوزه دواماً ، والجمهور منعوه ابتداء ودواماً ، وإنما تنازع الناس في استلزامه لجميع أجناس الأعراض فقيل إنه لابد أن يقوم به من الأعراض المتضادة واحد منها ، وما لا ضد له لا بد أن يقوم به واحد من جنسه ، وهذا قول الأشعري ومن اتبعه ، وقيل لابد أن يقوم به الأكوان وهي الحركة أو السكون والاجتماع والافتراق ، ويجوز خلوه عن غيرها وهو قول البصريين من المعتزلة ، وقيل يجوز خلوه عن الأكوان دون الألوان كما يذكر الكعبي وأتباعه من البغداديين منهم وهؤلاء قد يتنازعون في قبول الشيء من الأجسام بكثير من الأعراض ، ويتفقون على امتناع خلو الجسم عن العرض وضده بعد قبوله له ، وذلك لأن خلو الموصوف عن الضدين اللذين لا ثالث لهما مع قبوله لهما ممتنع في العقول ، وبهذا يتبين أن الحي القابل للسمع والبصر والكلام إما أن يتصف بذلك ، وإما أن يتصف بضده وهو الصمم والبكم والخرس ، ومن قَدَّر خلوه عنهما فهو مشابه للقرامطة الذين قالوا لا يوصف بأنه حي ولا ميت ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز، بل قالوا: لا يوصف بالإيجاب ولا بالسلب

---

[1] وقد بسط المصنف الكلام في ذلك في كتاب درء تعارض العقل والنقل ونقض المنطق، والمجلد الثاني من مجموع الفتاوى ولله دره .

يقال هو حي عالم ولا يقال ليس بحي عالم ، ولا يقال هو عليم قدير ولا يقال ليس بقدير عليم ، ولا يقال هو متكلم مريد ولا يقال ليس بمتكلم مريد .

قالوا لأن من الإثبات تشبيهاً بما تثبت له هذه الصفات وفي النفي تشبيه له بما ينفي عنه هذه الصفات ، وقد قاربهم في ذلك من قال من متكلمة الظاهرية[1] كابن حزم[2] أن أسماءه الحسنى كالحي والعليم والقدير بمنزلة أسماء الأعلام التي لا تدل على حياة ولا علم ولا قدرة وقال : لا فرق بين الحي وبين العليم وبين القدير في المعنى أصلاً ومعلوم أن مثل هذه المقالات سفسطة في العقليات وقرمطة في السمعيات فإنا نعلم بالاضطرار الفرق بين الحي والقدير والعليم والملك والقدوس والغفور .

[مذهب الظاهرية في أسماء الله الحسنى]

وإن العبد إذا قال: رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور كان قد أحسن في مناجاة ربه وإذا قال: اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت الجبار المتكبر الشديد العقاب لم يكن محسناً في مناجاته ، وإن الله أنكر على المشركين الذين امتنعوا من تسميته بالرحمن فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الفرقان:٦٠] وقال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٠] و قال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن

---

(1) الظاهرية تنسب إلى داود بن علي الأصبهاني أبو سليمان الظاهري ، انظر ترجمته في السير ٩٧/١٣ ، تاريخ بغداد ٣٦٦/٨ ، الشذرات ١٥٨/٢ ، النهاية ٥١/١١ .

(2) هو العلامة أبو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الأموي الفارسي الأندلسي القرطبي الظاهري ، توفي سنة ٤٥٦هـ ، انظر العبر ٣٠٦/٢، الشذرات٢٩٩/٣، لسان الميزان ١٩٨/٤ ، والدول ٢٦٨/١، السير ١٩٨/١٨ .

قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد: ٣٠]
وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الإسراء: ١١٠] .

ومعلوم أن الأسماء إذا كانت أعلاماً وجامدات لا تدل على معنى لم يكن فرق فيها بين اسم واسم فلا يلحد أحد في اسم دون اسم ولا ينكر عاقل اسماً دون اسم بل قد يمتنع عن تسميته مطلقاً و لم يكن المشركون يمتنعون عن تسمية الله بكثير من أسمائه وإنما امتنعوا عن بعضها وأيضاً فالله له الأسماء الحسنى دون السوآى وإنما يتميز الاسم الحسن عن الاسم السيء بمعناه فلو كانت كلها بمنزلة الأعلام الجامدات التي لا تدل على معنى لا تنقسم إلى حسنى وسوآى بل هذا القائل لو سمى معبوده بالميت والعاجز والجاهل بدل الحي والعالم والقادر لجاز ذلك عنده .

[قرب الظاهرية من المعتزلة والفلاسفة]

فهذا ونحوه قرمطة ظاهرة من هؤلاء الظاهرية الذي يدعون الوقوف مع الظاهر وقد قالوا بنحو مقالة القرامطة الباطنية في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته مع ادعائهم الحديث ومذهب السلف وإنكارهم على الأشعري وأصحابه أعظم إنكار[1] . ومعلوم أن الأشعري وأصحابه أقرب إلى السلف والأئمة ومذهب أهل الحديث في هذا الباب من هؤلاء بكثير . وأيضاً فهم يدعون أنهم يوافقون أحمد بن حنبل ونحوه من الأئمة في مسائل القرآن والصفات وينكرون على الأشعري وأصحابه ، والأشعري وأصحابه أقرب إلى

---

[1] انظر إنكار ابن حزم الظاهري على الأشاعرة في كتاب الفصل في الملل والنحل ١١١/٢ ـ ١١٢ ، و ٦٣/٤ ، و ٢/٥ ، وبالجملة انظر كتاب موقف ابن حزم من مذهب الأشعري تأليف / عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية .

أحمد بن حنبل ونحوه من الأئمة في مسائل القرآن والصفات منـــهم تحقيقـــاً وانتساباً . أما تحقيقاً فمن عرف مذهب الأشعري وأصحابه ومذهب ابن حزم وأمثاله من الظاهرية في باب الصفات تبين له ذلك وعلم هو وكل من فـــهم المقالتين أن هؤلاء الظاهرية الباطنية أقرب إلى المعتزلة بل إلى الفلاســـفة مـــن الأشعرية[1] .

وأن الأشعرية أقرب إلى السلف والأئمة وأهل الحديث منهم وأيضاً فـــإن إمامهم دواد وأكابر أصحابه كانوا من المثبتين للصفات على مذهـــب أهـــل السنة والحديث ولكن من أصحابه كانوا من المثبتين الصفات على مذهب أهل السنة والحديث، ولكن من أصحابه طائفة سلكت مسلك المعتزلـــة وهـــؤلاء وافقوا المعتزلة في مسائل الصفات وإن خالفوهم في القدر والوعيـــد . وأمـــا الانتساب فانتساب الأشعري وأصحابه إلى الإمام أحمد خصوصاً وسائر أئمـــة أهل الحديث عموماً ظاهر مشهور في كتبهم كلها .

وما في كتب الأشعري مما يوجد مخالفاً للإمام أحمد وغيره من الأئمة فيوجد في كلام كثير من المنتسبين إلى أحمد كأبي الوفاء ابن عقيل وأبي الفرج ابـــن الجوزي وصدقه بن الحسين وأمثالهم ما هو أبعد عن قول أحمد والأئمة مـــن قول الأشعري وأئمة أصحابه ومن هو أقرب إلى أحمد والأئمة من مثل ابـــن عقيل وابن الجوزي ونحوهما كأبي الحسن التميمي وابنه أبي الفضل التميمـــي وابن ابنه رزق الله التميمي ونحوهم وأئمة أصحاب الأشعري كالقـــاضي أبي بكر ابن الباقلاني وشيخه أبي عبد الله ابن عبد الله بن مجاهد وأصحابه كـــأبي علي بن شاذان وأبي محمد بن اللبان بل وشيوخ شيوخه كأبي العباس القلانسي

---

[1] ومع هذا الكلام من المصنف في ابن حزم فقد أثنى عليه وأنصفه في كتابه الفتـــاوى ، ونقض المنطق ١٧ـــ ١٨، وانظر كلام الذهبي فيه ، سير أعـــلام النبـــلاء ١٨/١٨٤ — ٢١٢ .

وأمثاله ، بل والحافظ أبو بكر البيهقي وأمثاله أقرب إلى السنة من كثير من أصحاب الأشعري المتأخرين الذين خرجوا عن كثير من قوله إلى قول المعتزلة أو الجهمية أو الفلاسفة .

فإن كثير من متأخري أصحاب الأشعري خرجوا عن قوله إلى قول المعتزلة أو الجهمية أو الفلاسفة إذ صاروا واقفين في ذلك كما سننبه عليه[1] .

وما في هذا الاعتقاد المشروح هو موافق لقول الواقفة[2] الذين لا يقولون بقول الأشعري وغيره من متكلمة أهل الإثبات وأهل السنة والحديث والسلف بل يثبتون ما وافقه عليه المعتزلة البصريون فإن المعتزلة البصريين يثبتون ما في هذا الاعتقاد ولكن الأشعري وسائر متكلمة أهل الإثبات مع أئمة السنة والجماعة يثبتون الرؤية ويقولون: القرآن غير مخلوق ويقولون : إن الله حي بحياة عالم بعلم، قادر بقدرة ، وليس في هذا الاعتقاد شيء من هذا الإثبات .

[ميل صاحب المصنف إلى الجهمية في مسألة القرآن]

وقد رأيت اعتقاداً مختصراً لصاحب مصنف هذا الاعتقاد المشروح وهو مشهور بالعلم والحديث ، وهو في الظاهر أشعري عند الناس ورأيت اعتقاده على هذا النمط ذكر فيه أن الله متكلم آمر ناه كما يوافق عليه المعتزلة ، و لم يذكر أن القرآن غير مخلوق ، ولا أثبت الرؤية بل جعلها مما تأول وكان يميل إلى الجهمية الذين ناظروا أحمد بن حنبل وسائر أئمة السنة في القرآن ويرجح جانبهم ، وحكى عنهم ذم وسب لأحمد بن حنبل وهو بنى اعتقاده وركبه من قول الجهمية ومن قول الفلاسفة القائلين بقدم العقول والنفوس وهو من جنس القول المضاف إلى ديمقراطيس وليس هذا مذهب الأشعرية بل هم متفقون على

---

[1] انظر لزاماً كتاب موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، ومنهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى .

[2] انظر ذم السلف للواقفة في مسائل العقيدة ، كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية ١٤٩/١٥٦ .

أن القرآن غير مخلوق وعلى أن الله يُرى في الآخرة ، وإن قيل إن في ذلك تدليساً أو خطئاً أو غير ذلك ، فليس المقصود هنا تصويب قائل معين ولا تخطئتة ولا بيان ما في مقالته من الخطأ والصواب وموافقة السلف ومخالفتهم ، بل أن يعلم مقالة كل شخص على حقيقتها، ثم الحق يجب اتباعه بما أقام الله عليه من البرهان ، ثم هذا الاعتقاد المشروح مع أنه ليس فيه زيادة على اعتقاد المعتزلة البصريين فاعتقاد المعتزلة البصريين خير منه فإن في هذا المعتقد من اعتقاد المتفلسفة في التوحيد ما لايرضاه المعتزلة كما نبهنا عليه فيما تقدم وبيناه أن ما ذكره من التوحيد ودليله هو مأخوذ من أصول الفلاسفة وأنه من أبطل الكلام ، وهذه الجمل نافعة فإن كثيراً من الناس ينسب إلى السنة أو الحديث أو اتباع مذهب السلف أو الأئمة أو مذهب الإمام أحمد أو غيره من الأئمة أو قول الأشعري أو غيره ويكون في أقواله ما ليس بموافق لقول من انتسب إليهم[1] .

فمعرفة ذلك نافعة جداً كما تقدم في الظاهرية الذين ينتسبون إلى الحديث والسنة حتى أنكروا القياس الشرعي[2] المأثور عن السلف والأئمة ودخلوا في الكلام الذي ذمه السلف والأئمة حتى نفوا حقيقة أسماء الله وصفاته وصاروا مشابهين للقرامطة الباطنية بحيث تكون مقالة المعتزلة في أسماء الله أحسن من مقالتهم فهم مع دعوى الظاهر يقرمطون في توحيد الله وأسمائه .

وأما السفسطة في العقليات فظاهرة، فإنه من المعلوم بصريح العقل امتناع ارتفاع نقيضين جميعاً وإنه لا واسطة بين النفي والإثبات فمن قال إن لا يصف الرب بالإثبات فلا يقول إنه حي عليم قدير ولا يصفه بالنفي فلا يقول ليس بحي عليم قدير فقد امتنع عن النقيضين جميعاً ، والامتناع عن النقيضين

---

[1] انظر في صدق هذا الكلام مع بيان الأمثلة "الاستقامة ص ١٣ وما بعدها" للمصنف نفسه.

[2] كابن حزم في كتاب " الإحكام في أصول الأحكام "

كالجمع بين النقيضين فإن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ، وهذا مما رأيتـه قد اعتمد عليه أئمة القرامطة كصاحب" كتاب الأقاليد الملكوتية " أبي يعقوب السجستاني فإنهم قالوا نحن لم نجمع بين النقيضين فنقول أنه حي وليس بحي بل رفعنا النقيضين فقلنا لا موصوف ولا لا موصوف .

قال هذا القرمطي المصنف الذي رأيته أفضل هؤلاء القرامطـة: (الإقليد العاشر) في أن من عبد الله بنفي الصفات والحدود لم يعبده حق عبادتـه ، إذ عبادته واقعة لبعض المخلوقين فإن قوماً من الأوائل وجماعة من فـرق الإسلام لم يعبدوا الله حق عبادته و لم يعرفوه بحقيقة المعرفـة فقـالوا إن الله غـير موصوف ولا محدود ولا منعوت ولا مرئي ولا في مكان وتوهموا أن هـذا المقدار تمجيـد لله عز وجل وتعظيم له وأنهم قد تخلصوا من الشرك والتشبيه ، وإذا هم قد وقعوا في الحيرة والتيه لأنهم نفوا الصفات والحدود والنعوت عـن الباري ـ تقدست عظمته ـ لئلا يكـون بينه وبين خلقـه مشابهـة ولا ممـاثلة[٢] فنحن نسألهم بعد عن الموصوف من خلقه أهو الصفة والحـد والنعـت أم الموصوف غير صفته والمحدود غير حده والمنعوت غير نعته .

فإن قالوا : إن الصفة هي الموصوف والحد هو المحدود والنعت هو المنعوت لزمهم أن يقولوا إن السواد هو الأسود ، والبياض هو الأبيض .

وإن قالوا : الموصوف غير صفته ، والمنعوت غير نعته والمحدود غير حـده وهو ــ أعني الموصوف والمحدود والمنعوت جميعاً ــ مخلوق هذا الخالق الـذي نزهتموه عن الصفة والحد والنعت أشركتم الخالق بالمخلوق الذي هو الصفـة والحد والنعت في باب أنها غير الموصوف عندكم وإن جاز أن يشارك المخلوق الخالق في وجه من الوجوه لم لا يجوز أن يشاركه في جميع الوجوه ، قال : فإذاً

---

[٢] ما ذكر هنا هو حال كثير من المسلمين ، يعبدون عدماً ، والله المستعان .

من عبد الله بنفي الصفات عنه واقع في التشبيه الخفي كما أن من عبده بسمة الصفات واقع في التشبيه الجلي .

ثم أخذ يرد على المعتزلة لكن رده عليهم ما أثبتوه من الحق واحتج عليهم بما وافقوه فيه من النفي ، فإنه بهذا الطريق تمكنت القرامطة الزنادقة الملاحدة من إفساد دين الإسلام حيث احتجوا على كل مبتدع بما وافقهم عليه من البدعة من النفي والتعطيل وألزموه لازم قوله حتى قرروا التعطيل المحض قال القرمطي : ومن أعظم ما أتت به طائفة من أهل هذه النحلة في إقامة رأيهم من أن المبدع سبحانه غير موصوف ولا منعوت أنهم أثبتوا له الأسامي التي لا تتعرى عن الصفات والنعوت فقالوا إنه سميع بالذات بصير بالذات عالم بالذات ونفوا عنه السمع والبصر والعلم و لم يعلموا أن هذه الأسامي إذا لزمت ذاتاً من الذوات لزمته الصفات التي من أجلها وقعت الأسامي ، إذ لو جاز أن يكون عالماً بغير علم أو سميعاً بغير سمع أو بصيراً بغير بصر لجاز أن يكون الجاهل مع عدم العلم عالماً ، والأعمى مع فقد البصر بصيراً والأصم مع غيبوبة السمع سميعاً، فلما لم يجز ما وصفناه صح أن العالم إنما صار عالماً لوجود العلم والبصير لوجود البصر والسميع لوجود السمع .

قال : فإن قال قائل منهم : إنما نفينا عن البصير البصر إذ كان اسم البصير متوجهاً نحو ذات الخالق لأنا هكذا شاهدنا أن من كان اسمه البصير لزمه من أجل البصر أن يجوز عليه العمى ، ومن كان اسمه السميع يلزمه من أجل السمع أن يجوز عليه الصمم ، ومن كان اسمه العالم يلحقه من أجل العلم أن يجوز عليه الجهل ، والله تعالى لا يلحق به الجهل والعمى والصمم فنفينا عنه ما يلزم بزواله ضده ، يقال له : ليس علة وجوب العمى البصر ، ولا علة وجوب الصمم السمع ، ولا علة وجوب الجهل العلم ، ولو كانت العلة فيه ما ذكرناه كان واجباً أنه متى وجد البصر وجد العمى ، أو متى وجد السمع وجد

الصمم أو متى وجد العلم وجد الجهل ، فلما وجد البصـــر في بعـــض ذوي البصر من غير ظهور عمى به ، ووجد السمع كذلك في بعض ذوي الســـمع من غير وجود صمم يتبعه ووجد العلم في بعضهم من غير وجود جهل بـــه صح أن العلة في ظهور الجهل والصمم والعمى ليس هو العلم والسمع والبصر بل في قبول إمكان الآفة في بعض ذوي العلم والســـمع والبصر، والله تعـــالى ذكره ليس بمحل الآفات ، ولا الآفات بداخلة عليه فهو إذا كان اسم العـــالم والسميع والبصير يتوجه نحو ذاته ذا علم وسمع وبصر فتعالى الله عما أضـــاف إليه الجهلة المغترون من هذه الأسامي بأنها لازمة له لزوم الذوات بـــل هـــذه الأسامي مما تتوجه نحو الحدود المنصوبة من العلوي والســـفلي والروحـــاني والجسماني لمصلحة العباد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال : ويقال لهم إن كان الاستشهاد الذي استشهدتموه صحيحـــاً فـــإن الاستشهاد الآخر الذي لا يفارق الاستشهاد الأول مثله في بـــاب الصحـــة لأنكم إن كنتم هكذا شاهدتم أن من كان عالماً من أجل علمه أو سميعاً مـــن أجل سمعه أو بصيراً من أجل بصره جاز عليه الجهل والعمى والصمم ، فنحن كذلك شاهدنا أن من كان عالماً فإن العلم سابقه ، ومن كان بصـــيراً فـــإن البصر قرينه ، ومن كان سميعاً كان السمع شهيده ، فإن جاز لكم أن تتعـــدوا حكم الشاهد على الغائب في أحدهما فتقولوا جاز أن يكون في الغائب عـــالم بغير علم وبصير بغير بصر وسميع بغير سمع جاز لنا أن نتعدى حكم الشـــاهد على الغائب في الباب الآخر فنقول إنا وإن كنا لم نشاهد عالماً بعلم إلا وقـــد جاز عليه الجهل ، وبصيراً ببصر إلا وقد جاز عليه العمى ، وسميعاً بالسمع إلا وقد جاز عليه الصمم أن يكون في الغائب عالم بعلم لا يجوز عليـــه الجـــهل وبصير بالبصر لا يجوز عليه العمى وسميع بالسمع لا يجوز عليـــه الصمـــم ، وإلا فما الفصل ولا سبيل لهم إلى التفصيل بين الاستشهادين فاعرفه .

فليتدبر المؤمن العليم كيف ألزم هؤلاء الزنادقة الملاحدة المنافقون الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب كالمعتزلة ونحوهم من نفاة الصفات نفي أسماء الله الحسنى ، وأن تكون أسماؤه الحسنى لبعض المخلوقات فيكون المخلوق هو المسمى بأسمائه الحسنى كقولهم في الأول والآخر والظاهر والباطن أن الظاهر هو محمد الناطق ، والباطن هو علي الأساس ، ومحمد هو الأول وعلي هو الآخر ، وتأويلهم قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤] أن اليد الواحدة هو محمد والأخرى علي ، وقوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد:١]، أن يديه هما أبو بكر وعمر ، لكونهما كانا مع أبي لهب في الباطن ، فأمرهما بقتل النبي ﷺ فعجزا عن ذلك ، فأنزل الله ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ وأمثال هذا من التأويلات المعروفة عن القرامطة، وأصل كلامهم استدلالهم بما يزعمونه من نفي التشبيه وإلزامهم لكل من وافقهم على شي من النفي بطرد مقالته واتباع لوازمها ولازمها التعطيل الذي يقصدونه .

[قول القرمطي في مسألة الصفات]

وقال القرمطي : وأيضاً فمن نزه خالقه عن الصفة والحد والنعت و لم يجرده عما لا صفة له ولا حد ولا نعت فقد أثبته بما لم يجرده عنه ، وإذا كان إثباته لمعبوده ينفي الصفة والحد والنعت فقد كان إثباته مهملاً غير معروف لأن ما لا صفة له ولا حد ولا نعت ليس هو الله بزعمه فقط بل هو والنفس والعقل وجميع الجواهر البسيطة من الملائكة وغيرهم .

والله تعالى أثبت من أن يكون إثباته مهملاً غير معلوم ، فإذا الإثبات الذي يليق بمجد المبدع ولا يلحقها الإهمال هو نفي الصفة ونفي أن لا صفة ونفي الحد ونفي أن لا حد ، لتبقى هذه العظمة لمبدع العالمين إذ لا يحتمل أن يكون معه لمخلوق شركة في هذا التقديس وامتنع أن يكون الإثبات من هذه الطريق مهملاً فاعرفه .

قال : فإن قال إن من شريطة القضايا المتناقضة أن يكون أحد طرفيها صدقاً والآخر كذباً فقولكم لا موصوفة ولا لا موصوفة قضيتان متناقضتان لابد لأحداهما من أن تكون صادقة والأخرى كاذبة .

يقال له غلطت في معرفة القضايا المتناقضة وذلك أن القضايا المتناقضة أحد طرفي النقيض منه موجب والآخر سالب ، فإن كانت القضية كلية موجبة كان نقيضها جزئية سالبة كقولنا كل إنسان حي وهي قضية كلية موجبة ، نقيضة لا كل إنسان حي فلما كان من شرط النقيض من أنه لا بد من أن يكون أحد طرفيها موجبة والآخر سالبة رجعنا إلى قضيتنا في المبدع هل نجد فيها هذه الشريطة فوجدناها في كلتا طرفيها لم يوجب له شيئاً بل كلتا طرفيها سالبتان وهي قولنا لا موصوف ولا لا موصوف ، فهي إذا لم يناقض بعضها بعضاً وإنما تناقض القضية في هذا الموضع أن نقول له صفة وأن ليس له صفة أو نقول له حد وأن لا حد له ، أو إنه في مكان وإنه لا في مكان ، فيلزمنا حينئذ إثبات لاجتماع طرفي النقيض على الصدق ، فأما إذا كانت القضيتان سالبتين إحداهما سلب الصفة اللاحقة بالجسمانيين والأخرى نفي الصفة اللازمة للروحانيين كان من ذلك تجريد الخالق عن سمات المربوبين وصفات المخلوقين .

قال : فقد صح أن من نزه خالقه عن الصفة والحد والنعت ، واقع في التشبيه الخفي كما أن من وصفه وحده ونعته واقع في التشبيه الجلي .

[الرد على القرمطي]

قلت : فهذا حقيقة مذهب القرامطة وهو قد رد على من وصفه منهم بالنفي دون الإثبات ونفي النفي قال :" لأن في الإثبات تشبيهاً له بالجسمانيين وفي النفي تشبيهاً له بالروحانيين" ، وهي العقول والنفوس عندهم أنها موصوفة عندهم بالنفي دون الإثبات ولهذا يقولون: بسائط ليس فيها تركيب عقلي من الجنس والفصل ، كما أنه ليس فيها تركيب الأجسام .

وظن هذا الملحد وأمثاله أنهم بذلك خلصوا من الإلزامات ومعلوم عند من عرف حقيقة قولهم أن هذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً وأبعدها عن مذاهب المسلمين واليهود والنصارى ، بل مع ما قد حققوه من الفلسفة وعرفوه من مذهب أهل الكلام وادعوه من العلوم الباطنة ومعرفة التأويل ودعوى العصمة في أئمتهم ، وقد قرروا أنا لا نقول الجمع بين النقيضين ، فليس في قولنا محال ، فيقال لهم : ولكن سلبتم النقيضين جميعاً وكما أنه يمتنع الجمع بين النقيضين فيمتنع الخلو من النقيضين ، فالنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ولهذا كان المنطقيون يقسمون الشرطية المنفصلة إلى مانعة الجمع ومانعة الخلو ومانعتي الجمع والخلو ، فالمانعة من الجمع والخلو كقول القائل: الشيء إما أن يكون موجوداً وإما أن يكون معدوماً ، وإما أن يكون ثابتاً وإما أن يكون منفياً فتفيد الاستثناءات الأربعة أنه موجود فليس بمعدوم أو هو معدوم فليس بموجود أو ليس بموجود فهو معدوم ، أو ليس بمعدوم فهو موجود ، وكذلك ما كان من الإثبات بمنزلة النقيضين كقول القائل : هذا العدد إما شفع وإما وتر فكونه شفعاً ووتراً لا يجتمعان ولا يرتفعان وهؤلاء ادعوا إثبات شيء يخلو عنه النقيضان فإن جوزوا خلوه عن النقيضين جاز اجتماع النقيضين فيه ، وهذا مذهب أهل الوحدة القائلين بوحدة الوجود كصاحب الفصوص وابن سبعين[1] وابن أبي المنصور[2] وابن الفارض[3] والقونوي وأمثالهم فإن قولهم وقول القرامطة من مشكاة واحدة والاتحادية[4]

---

[1] تقدمت ترجمته انظر ص .

[2] تقدمت ترجمته انظر ص .

[3] هو ابن الفارض شرف الدين أبو القاسم عمر بن علي بن مرشد الحموي توفي سنة ٦٣٢هـ انظر السير ٣٦٨/٢٢، والشذرات ١٤٩/٥، والميزان ٢١٤/٣ .

[4] الاتحادية يعني أن الموجود واحد أي أن الله تعالى والخلق واحد والحاكم والمحكوم واحد=

قد يصرحون باجتماع النقيضين .

وكذلك يذكرون مثل هذا عن الحلاج[1] والحلاج لما دخل بغداد كانوا ينادون عليه هذا داعي القرامطة ، وكان يظهر للشيعة أنه منهم ، ودخل على ابن نوبخت رئيس الشيعة ليتبعه فطالبه بكرامات عجز عنها ، ومقالات أهل الضلال كلها تستلزم الجمع بين النقيضين أو رفع النقيضين جميعاً ، لكن منهم من يعرف لازم قوله فيلتزمه ، ومنهم من لا يعرف ذلك ، وكل أمرين لا يجتمعان ولا يرتفعان فهما في المعنى نقيضان لكن هذا ظاهر في الوجود والعدم .

وقول مثبتة الحالين الذين يقولون لا موجودة ولا معدومة هو شعبة من مذهب القرامطة وإنما التحقيق إنها ليست موجودة في الأعيان ولا منتفية في الأذهان ، ومن الأمور الثبوتية ما يكونان بمنزلة الوجود والعدم كقولنا إن العدد إما شفع وإما وتر ، وقولنا أن كل موجودين إما أن يقترنا في الوجود أو يتقدم أحدهما على الآخر ، وكل موجود إما قائم بنفسه وإما قائم بغيره وكل جسم إما متحرك وإما ساكن ، وإما حي وإما ميت ، وكل حي إما عالم وإما جاهل ، وإما قادر وإما عاجز ، وإما سميع وإما أصم ، وإما أعمى وإما بصير ، بل وكذلك كل موجودين فإما أن يكونا متجانسين ، وإما أن يكونا متباينين وأمثال هذه القضايا .

وكل من رام سلب هذين جميعاً كان من جنس القرامطة الرافعة للنقيضين لكن التناقض قد يظهر باللفظ كما إذا قلنا إما أن يكون وإما أن لا يكون وقد يظهر بالمعنى كما إذا قلنا إما قائم بنفسه وإما قائم بغيره ، وهذا كله

= وهو مذهب ابن عربي والسهروردي وابن الفارض والحلاج انظر معجم الفرق ص١٠٠.

[1] هو الحلاج أبو عبد الله ويقال أبو الغيث الحسين بن منصور بن محمي الفارسي ، قُتل سنة ٣٠٩هـ، انظر السير ٣١٣/١٤، والعبر ٤٥٤/١، والدول ١٨٧/١، والنهاية ١٤١/١١ .

مبسوط في غير هذا الموضع ، بل وقد زدنا في جواب السائل عما هو مقصوده لكن نبهنا على أصول نافعة جامعة .

(**الطريق الثالث**) لأهل النظر في إثبات السمع والبصر أن السمع والبصر من صفات الكمال فإن الحي السميع البصير أكمل من حي ليس بسميع ولا بصير كما أن الموجود الحي أكمل من موجود ليس بحي ، والموجود العالم أكمل من موجود ليس بعالم ، وهذا معلوم بضرورة العقل ، وإذا كانت صفة كمال فلو لم يتصف الرب بها لكان ناقصاً والله منزه عن كل نقص ، وكل كمال محض لا نقص فيه فهو جائز عليه ، وما كان جائزاً عليه من صفات الكمال فهو ثابت له فإنه لو لم يتصف به لكان ثبوته له موقوفاً على غير نفسه فيكون مفتقراً إلى غيره في ثبوت الكمال له وهذا ممتنع إذا لم يتوقف كمال إلا على نفسه فيلزم من ثبوت نفسه ثبوت الكمال لها وكل ما ينزه عنه فإنه يستلزم نقصاً يجب تنزيهه له .

وأيضاً فلو لم يتصف بهذا الكلام لكان السميع البصير من مخلوقاته أكمل منه .

ومن المعلوم في بداهة العقول أن المخلوق لا يكون أكمل من الخالق إذ الكمال لا يكون إلا بأمر وجودي والعدم المحض ليس فيه كمال وكل موجود للمخلوق فالله خالقه ويمتنع أن يكون الوجود الناقص مبدعاً وفاعلاً للوجود الكامل إذ من المستقر في بداهة العقول أن وجود العلة أكمل من وجود المعلول دع وجودِ الخالق الباري الصانع فإنه من المعلوم بالاضطرار أنه أكمل من وجود المخلوق المصنوع المفعول .

[مذهب السلف في صفات الكمال]

وقد بسطنا الكلام على مثل هذه الطريقة في غير هذا الموضع وبينا أن الله سبحانه وتعالى يستعمل في حقه قياس الأولى كما جاء بذلك القرآن وهو الطريق التي كان يسلكها السلف والأئمة كأحمد وغيره من الأئمة فكل كمال

ثبت للمخلوق فالخالق أولى به وكل نقص ينزه عنه المخلوق فالخالق أولى أن ينزه عنه كما قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الروم:٢٨] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل:٥٨-٦٠] وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل:٦٢] .

وذلك لأن صفات الكمال أمور وجودية أو أمور سلبية مستلزمة لأمور وجودية كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ [البقرة:٢٥٥] فنفي السنة والنوم استلزم كمال صفة الحياة والقيومية وكذلك قوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦] استلزم ثبوت العدل، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سبأ:٣] استلزم كمال العلم ونظائر ذلك كثيرة . وأما العدم المحض فلا كمال فيه وإذا كان كذلك فكل كمال لا نقص فيه بوجه ثبت للمخلوق فالخالق أحق به من وجهين :

أحدهما: أن الخالق الموجود الواجب بذاته القديم أكمل من المخلوق القابل للعدم المحدث المربوب .

الثاني: أن كل كمال فيه فإنما استفاده من ربه وخالقه فإذا كان هو مبدعاً للكمال وخالقاً له كان من المعلوم بالاضطرار أن معطي الكمال وخالقه ومبدعه أولى بأن يكون متصفاً به من المستفيد المبدع المعطي وقد قال الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل:٧٥-٧٦] .

وهذا المثل وإن كان يفيد الدعاء إلى عبادة الله وحده ودون عبادة ما سواه ونفي عبادة الأوثان لوجود هذا الفرقان . فإذا علم انتفاء التساوي بين الكامل والناقص وعلم أن الرب اكمل من خلقه وجب أن يكون أكمل منهم وأحق منهم بكل كمال بطريق الأولى والأحرى .

(الطريق الرابع في إثبات السمع والبصر والكلام) أن نفي هذه الصفات نقائص مطلقاً سواء نفيت عن حي أو جماد وما انتفت عنه هذه الصفات لا يجوز أن يحدث عنه شيء ولا يخلقه ولا يجيب سائلاً ولا يعبد ولا يُدعى كما قال الخليل : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم:٤٢] وقال إبراهيم لقومه : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء:٧٢-٧٤] وقال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٨] وقال

تعـــــالى : ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝ ﴾ [طه:٨٨-٨٩] .

وهذا لأنه من المستقر في الفطر أن ما لا يسمع ولا يبصـــر ولا يتكلـــم لا يكون رباً معبوداً كما أن ما لا يغني شيئاً ولا يهدي ولا يملك ضراً ولا نفعاً لا يكون رباً معبوداً ومن المعلوم أن خالق العالم هو الذي ينفع عبـــاده بـــالرزق وغيره ويهديهم وهو الذي يملك أن يضرهم بأنواع الضرر فإن هذه الأمور من جملة الحوادث التي يحدثها رب العالمين فلو قدر أنه ليس محدثاً لها كانت حادثة بغير محدث أو كان محدثها غيره ، وإذا كان محدثها غيره فالقول في إحـــداث ذلك الغير كالقول في سائر الحوادث فلا بد أن تنتهي إلى قـــديم لا محـــدث ولذلك من المستقر في العقول أن ما لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ناقص عن صفات الكمال لأنه لا يسمع كلام أحد ولا يبصر أحداً ولا يأمر بـــأمر ولا ينهى عن شيء ولا يخبر بشيء فإن لم يكن كالحي الأعمى الأصم كان بمنزلة ما هو شر منه وهو الجماد الذي ليس فيه قبول أن يسمع ويبصر ويتكلم ونفي قبول هذه الصفات أبلغ في النقص والعجز وأقرب إلى إنصاف المعدوم ممـــن يقبلها واتصف بأضدادها إذ الإنسان الأعمى أكمل من الحجـــر والإنســـان الأبكم أكمل من التراب ونحو ذلك مما لا يوصف بشيء من هذه الصفـــات وإذا كان نفي هذه الصفات معلوماً بالفطرة أنه من أعظم النقائص والعيـــوب وأقرب شبهاً بالمعدوم كان من المعلوم بالفطرة أن الخالق أبعـــد عـــن هـــذه النقائص والعيوب من كل ما ينفي عنه وأن اتصافه بهذه العيوب من أعظـــم الممتنعات . وهذه الطريق ليست الثانية ولا الثالثة فإن الثانية مبنية على أنه حي فلا بد من انصافه بها أو بضدها . والثالثة مبنية على أنها صفات كمال فيجب اتصاف الرب بها وأما هذه فمبنية على أن نفي هذه الصفات نقائص ومعايب ومذام يمتنع وصف الرب بها . والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل

ثم قال المصنف : (والدليل على نبوة الأنبياء المعجزات والدليل على نبوة محمد ﷺ القرآن المعجز نظمه ومعناه)

[طرق العلم بالرسالة]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : هذه الطريقة هي من أعظم الطرق عند أهل الكلام والنظر حيث يقررون نبوة الأنبياء بالمعجزات ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح لتقرير نبوة الأنبياء لكن كثير من هؤلاء كل من بنى إيمانه عليها يظن أن لا نعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات . ثم لهم في تقرير دلالة المعجزة على الصدق طرق متنوعة وفي بعضها من التنازع والاضطراب ما سننبه عليه ، والتزم كثير من هؤلاء إنكار خرق العادات لغير الأنبياء حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك[1] .

[المعجزات ليست هي الدليل على نبوة الأنبياء كما قال الأصفهاني]

وللنظار هنا طرق متعددة؛ منهم من لا يجعل المعجزة دليلاً بل يجعل الدليل استواء ما يدعو إليه وصحته وسلامته من التناقض كما يقول طائفة من النظار، ومنهم من يوجب تصديقه بدون هذا وهذا ، ومنهم من يجعل المعجزة دليلاً ويجعل أدلة أخرى غير المعجزة وهذا أصح الطرق ومن لم يجعل طريقها إلا المعجزة اضطر لهذه الأمور التي فيها تكذيب لحق أو تصديق لباطل وهذا كان السلف والأئمة يذمون الكلام المبتدع فإن أصحابه يخطئون إما في مسائلهم وإما في دلائلهم فكثيراً ما يثبتون دين المسلمين في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله على أصول ضعيفة بل فاسدة يلتزمون لذلك لوازم يخالفون بها السمع الصحيح والعقل الصريح[2] .

---

[1] ولذلك كان الإيمان بكرامات الأولياء أصل من أصول أهل السنة والجماعة انظر في ذلك العقيدة الطحاوية ٤٩٤، وشرح أصول أهل السنة للالكائي وخصص له فصلاً كاملاً .

[2] وربما كانت بعض تلك اللوازم ليس بمذهب إلا بالتزامه انظر في ذلك القواعد النورانية=

وهذا حال الجهمية من المعتزلة وغيرهم حيث أثبتوا حدوث العالم بحدوث الأجسام وأثبتوا ذلك بحدوث صفاتها التي هي الأعراض فاضطرهم ذلك إلى القول بحدوث كل موصوف فنفوا عن الله الصفات وقالوا بأن القرآن مخلوق وأنه لا يرى في الآخرة وقالوا إنه لا مباين ولا محايث وأمثال ذلك من مقالات النفاة التي تستلزم التعطيل كما قد بسطناه في غير هذا الموضع ، وليس الأمر كذلك بل معرفتها بغير المعجزات ممكنة فإن المقصود إنما هو معرفة صدق مدعي النبوة أو كذبه فإنه إذا قال إني رسول الله فهذا الكلام إما أن يكون صدقاً وإما أن يكون كذباً ، وإن شئت قلت : هذا خبر فإما أن يكون مطابقاً للمخبر وإما أن يكون مخالفاً له، سواء كانت مخالفته له على وجه العمد أو الخطأ ، إذ قد يظن الرجل في نفسه أو غيره أنه رسول الله غير متعمد للكذب بل خطأ وضلال مثل كثير ممن يتمثل له الشيطان ويقول إني ربك ويخاطبه بأشياء وقد يقول له: أحللت لك ما حرمت على غيرك[1] وأنت عبدي ورسولي وأنت أفضل أهل الأرض ، وأمثال هذه الأكاذيب ، فإن مثل هذا قد وقع لكثير من الناس فإذا كان مدعي الرسالة لم يكن صادقاً فلا بد أن يكون كاذباً عمداً أو ضلالاً فالتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما هو دون دعوى النبوة فكيف بدعوى النبوة .

ومعلوم أن مدعي الرسالة أما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم ، ولهذا قال أحد أكابر ثقيف للنبي ﷺ لما بلغهم الرسالة ودعاهم إلى الإسلام : والله لا أقول لك كلمة واحدة ، إن

= ص ١٢٨-١٢٩ ومجموع الفتاوى ٣١٧/٢٠، ٨٨/٣٥ ، وطريق الهجرتين ٢٣٧-٢٣٨ والقواعد المثلى ١٢-١٣ .

[1] للمصنف كتاب نفيس بعنوان النبوات فصل فيه ما هو بصدده .

كنت صادقاً فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك وإن كنت كاذباً فأنت أحقر من أن أرد عليك فكيف يشتبه أفضل الخلق وأكملهم بأنقص الخلق وأرذلهم ، وما أحسن قول حسان :

لو لم تكن فيه آيات مبينة … كانت بديهته تأتيك بالخبر

[الصدق من دلائل النبوة]

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز .

ومن من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن له أدنى تمييز فإن الرسول لابد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور ولا بد أن يفعل أمور .

والكذاب في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة ، والصادق يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه ويفعله ما يظهر به صدقه من وجوه كثيرة بل كل شخصين ادعيا أمراً من الأمور أحدهما صادق في دعواه والآخر كاذب فلا بد أن يبين صدق هذا وكذب هذا من وجوه كثيرة إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور كما في الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال : ((**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**))[1].

ولهذا قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ

---

[1] رواه البخاري برقم ٦٠٩٤ ، ومسلم برقم ٢٦٠٧ ، وأبو داود برقم ٤٩٨٩ ، والترمذي برقم ١٩٧١ عن ابن مسعود ﷺ .

كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الشعراء ٢٢١-٢٢٦] بين سبحانه أنه ليس بكاهن تنزل عليه الشياطين ولا شاعر حيث كانوا يقولون ساحر وشاعر ، فبين أن الشياطين تنزل على الكاذب الفاجر يلقون إليهم السمع وأكثرهم كاذبون فهؤلاء الكهان ونحوهم وإن كانوا يخبرون أحياناً بشيء من المغيبات ويكون صدقاً فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن مَلَكٍ وليسوا بأنبياء .

ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد قد خبأت لك خبيئاً ، قال : هو الدخ ، قال له النبي ﷺ « **اخسأ فلن تعدو قدرك** »[1] يعني إنما أنت كاهن ، كما قال للنبي ﷺ يأتيني صادق وكاذب ، وقال : أرى عرشاً على الماء، وذلك هو عرش الشيطان كما ثبت مثل ذلك في الصحيح[2] عن النبي ﷺ ، وبين الله تعالى أن الشعراء يتبعهم الغاوون ، والغاوي الذي يتبع هواه وشهوته ، وإن كان ذلك مضراً له في العاقبة قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الشعراء:٢٢٥-٢٢٦] .

فهذه صفة الشعراء كما أن تلك صفة من تنزل عليه الشياطين ، فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم علماً يقينياً أنه ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب ، والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة حتى في المدعين للصناعات والمقالات كالفلاحة والنساجة والكتابة ،

---

[1] رواه البخاري برقم ١٣٥٤ ، ومسلم برقم ٧٣٤٥ ، وأبو داود برقم ٤٣٢٩، وأحمد ٣٨٠/١ ، ١٤٨/٢ ، ٣٦٨/٣ ، عن ابن عمر رضي الله عنهما .

[2] رواه مسلم برقم ٢٨١٣ ، وأحمد ٣١٤/٣ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك ، فما من أحد يدعي العلم بصناعة أو مقالة إلا والتفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له وجوه كثيرة ، وكذلك من أظهر قصداً وعملاً كمن يظهر الديانة والأمانة والنصيحة والمحبة وأمثال ذلك من الأخلاق فإنه لا بد أن يتبين صدقه وكذبه من وجوه متعددة .

[اشتمال النبوة على علوم وأعمال لا يتصف بها إلا النبي]

والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال ، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب ، ولا يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب من وجوه كثيرة لا سيما والعالَم لا يخلو من آثار نبي من لدن آدم إلى زماننا ، وقد علم جنس ما جاءت به الأنبياء والمرسلون وما كانوا يدعون إليه ويأمرون به ، ولم تزل آثار المرسلين في الأرض ولم يزل عند الناس من آثار الرسل ما يعرفون به جنس ما جاءت به الرسل ويفرقون به بين الرسل وغير الرسل .

فلو قدر أن رجلاً جاء في زمان إمكان بعث الرسل وأمر بالشرك وعبادة الأوثان وإباحة الفواحش والظلم والكذب ، ولم يأمر بعبادة الله ولا بالإيمان باليوم الآخر هل كان مثل هذا يحتاج أن يطالب بمعجزة أو يشك في كذبه أنه نبي ، ولو قدر أنه أتى بما يظن أنه معجزة لعلم أنه من جنس المخاريق أو الفتن والمحنة ، ولهذا لما كان الدجال يدعي الإلهية لم يكن ما يأتي به دالاً على صدقه للعلم بأن دعواه ممتنعة في نفسها وأنه كذاب ، وكذلك من نشأ في بني إسرائيل معروفاً بينهم بالصدق والبر والتقوى بحيث قد خبر خبرة باطنة يعلم منها تمام عقله ودينه ، ثم أخبر بأن الله نبأه وأرسله إليهم فإن هذا لا يكون أولى بالرد من أن يخبرنا الرجل الذي لا يشك في عقله ودينه وصدقه إنه رأى رؤيا .

وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه تنازع الناس في أن خبر الواحد هل يجوز أن يقترن به من القرائن والضمائم ما يفيد معه العلم، ولا ريب أن

المحققين من كل طائفة على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضروري بخبر المخبر ، بل القرائن وحدها قد تفيد العلم الضروري كما يعرف الرجل رضاء الرجل وغضبه وحبه وبغضه وفرحه وحزنه وغير ذلك مما في نفسه بأمور تظهر على وجهه قد لا يمكنه التعبير عنها كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ [محمد:٣٠] ثم قال ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد:٣٠] فأقسم أنه لابد أن يعرف المنافقين في لحن القول ، وعلق معرفتهم بالسيما على المشيئة لأن ظهور ما في نفس الإنسان من كلامه أبين من ظهوره على صفحات وجهه وقد قيل : ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، فإذا كان مثل هذا يعلم به ما في نفس الإنسان من غير إخبار فإذا اقترن بذلك إخباره كان أولى بحصول العلم ولا يقول عاقل من العقلاء : إن مجرد خبر الواحد أو خبر كل واحد يفيد العلم بل ولا خبر كل خمسة أو عشرة ، بل قد يخبر ألف أو أكثر من ألف ويكونون كاذبين إذا كانوا متواطئين ، وإذا كان صدق المخبر أو كذبه يعلم بما يقترن به من القرائن بل في لحن قوله وصفحات وجهه ، ويحصل بذلك علم ضروري لا يمكن للمرء أن يدفعه عن نفسه فكيف بدعوى المدعي إنه رسول الله ؟ كيف يخفى صدقه وكذبه أم كيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة لا تعد ولا تحصى ؟

وإذا كان الكاذب إنما يأتي من وجهين إما أن يتعمد الكذب وإما أن يلبس عليه كمن يأتيه الشيطان، فمن المعلوم الذي لا ريب فيه أن من الناس من يعلم منه إنه لا يتعمد الكذب بل كثير ممن خبره الناس وجربوه من شيوخهم

ومعامليهم يعلمون منهم علماً قاطعاً إنهم لا يتعمدون الكذب وإن كانوا يعلمون أن ذلك ممكن فليس كل ما علم إمكانه جوز وقوعه فإنا نعلم أن الله قادر على قلب الجبال ياقوتاً والبحار دماً ونعلم إنه لا يفعل ذلك ونعلم من حال البشر من حيث الجملة إنه يجوز أن يكون أحدهم يهودياً ونصرانياً ونحو ذلك .

ونعلم مع هذا أن هذا لم يقع بل ولا يقع من الأشخاص وإن من أخبرنا بوقوعه منهم كذبناه قطعاً .

ونحن لا ننكر أن الرجل قد يتغير ويصير متعمد الكذب بعد أن لم يكن كذلك لكن إذا استحال وتغير ظهر ذلك لمن يخبره ويطلع على أموره .

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النبي ﷺ إنه الصادق البار قال لها لما جاءه الوحي ((**إني قد خشيت على عقلي**)) فقالت ((**كلا والله لا يخزيك الله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق**))[1] فهو لم يخف من تعمد الكذب فإنه يعلم من نفسه ﷺ إنه لم يكذب لكن خاف في أول الأمر أن يكون قد عرض له عارض سوء ، وهو المقام الثاني فذكرت خديجة ما ينفي هذا وهو ماكان مجبولاً عليه من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم والأعمال ، وهو الصدق المستلزم للعدل والإحسان إلى الخلق ومن جُمع فيه الصدق والعدل والإحسان لم يكن مما يخزيه الله ، وصلة الرحم وقرى الضيف وحمل الكل وإعطاء المعدوم والإعانة على نوائب الحق هي من أعظم أنواع البر والإحسان وقد علم من سنة الله أن من جبله الله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن

---

[1] رواه البخاري برقم ٣، ٣٣٩٢، ٤٩٥٣ ، ٤٩٥٥ ، ٤٩٥٦ ، ٤٩٥٧ عن عائشة رضي الله عنها .

الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه ، وأيضاً فالنبوة في الآدميين هي من عهد آدم عليه السلام فإنه كان نبياً وكان بنوه يعلمون نبوته وأحواله بالاضطرار .

وقد علم جنس ما يدعو إليه الرسل وجنس أحوالهم فالمدعي للرسالة في زمن الإمكان إذا أتى بما ظهر به مخالفته للرسل علم أنه ليس منهم .

وإذا أتى بما هو من خصائص الرسل علم أنه منهم لا سيما إذا علم أنه لابد من رسول منتظر ، وعلم أن لذلك الرسول صفات متعددة تميزه عمن سواه ، فهذا قد يبلغ بصاحبه إلى العلم الضروري بأن هذا هو الرسول المنتظر ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٤٦] .

[استدلال النجاشي على نبوة نبينا محمد ﷺ]

(والمسلك الأول): النوعي، هو مما استدل به النجاشي على نبوته فإنه لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤه عليه قال : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة[1]، وكذلك قبله ورقة بن نوفل لما أخبره النبي ﷺ بما رآه وكان ورقة قد تنصر وكان يكتب الانجيل بالعبرانية ، فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ما يقول ، فأخبره النبي ﷺ بخبره فقال : هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى ، وإن قومك سيخرجونك ؟ فقال النبي ﷺ : أومخرجي هم ؟ فقال : نعم ، لم يات أحد بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي[2] .

(المسلك الثاني: الشخصي) استدل به هرقل ملك الروم ، فإن النبي لما كتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام طلب هرقل من كان هنا من العرب وكان

---

[1] انظر الروض الأنف ٩٣/٢ للسهيلي ، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ٢٠٨

[2] تقدم تخريجه انظر ص١٦١ .

[استدلال هرقل على نبوة نبينا محمد ﷺ]

أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى غزة فطلبهم وسألهم عن أحوال النبي ﷺ [1] فسأل أبا سفيان وأمر الباقين أن كذب أن يكذبوه ، فصار يجدهم موافقين له في الإخبار ، فسألهم : هل كان في آبائه من ملك ؟

قالوا : لا. وهل قال هذا القول أحد قبله ؟ قالوا : لا. وسألهم أهو ذو نسب فيكم ؟ قالوا : نعم ، وسألهم : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقالوا : لا ما جربنا عليه كذباً ، وسألهم : هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم ؟ فذكروا أن الضعفاء اتبعوه ، وسألهم هل يزيدون أم ينقصون ؟ فذكروا إنهم يزيدون ، وسألهم هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه ، فقالوا : لا ، وسألهم : هل قاتلتموه ؟ قالوا : نعم ، وسألهم عن الحرب بينهم وبينه ؟ فقالوا يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى ، وسألهم هل يغدر ؟ فذكروا أنه لا يغدر ، وسألهم بماذا يأمركم فقالوا : يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً وينهانا عما كان يعبد أباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ، فهذه أكثر من عشر مسائل

ثم تبين لهم ما في هذه المسائل من الدلالة وأنه سألهم عن أسباب الكذب وعلاماته فرآها منتفية ، وسألهم عن علامات الصدق فوجدها ثابتة ، فسألهم هل كان في آبائه من ملك فقالوا : لا ، قال : قلت : فلو كان في آبائه ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل قال هذا القول فيكم أحد قبله ؟ فقلت : لا ، فقلت : لو قال هذا القول أحد قبله لقلت رجل ائتم بقول قيل قبله ، ولا ريب أن اتباع الرجل لعادة آبائه واقتدائه بمن كان قبله كثيراً ما يكون في الآدميين ، بخلاف الابتداء بقول لم يعرف في تلك الأمة قبله، وطلب

---

[1] أخرجه البخاري (٢٩٤٠) ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان .

أمر لا يناسب حال أهل بيته ، فإن هذا قليل في العادة لكنه قد يقع .

ولهذا أردفه بقوله : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فقالوا : لا ، قال : فقد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله ، وذلك أن مثل هذا يكون كذباً محضاً يكذبه لغير عادة جرت ، وهذا لا يفعله إلا من يكون من شأنه أن يكذب ، فإذا لم يكن من خلقه الكذب قط بل لم يعرف منه إلا الصدق وهو يتورع أن يكذب على الناس كان تورعه عن أن يكذب على الله أولى وأحق ، والإنسان قد يخرج عن عادته في نفسه إلى عادة بني جنسه ، فإذا انتفى هذا وهذا كان هذا أبعد عن الكذب وأقرب إلى الصدق .

[سؤاله عن اتهامهم له بالكذب]

ثم أردف ذلك بالسؤال عن علامات الصدق فقال : وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم ؟ فقلتم ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل ، وقال : فهذه علامات من علامات الرسل ، وهو اتباع الضعفاء له ابتداءً .

[سؤاله عن علامات الصدق]

قال تعالى حكاية عن قوم نوح ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ [الشعراء:١١١] وقالوا ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ ﴾ [هود:٢٧] وقال تعالى في قصة صالح: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦] وقال تعالى في قصة شعيب : ﴿ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩] .

ثم قال هرقل : وسألتكم أيزيدون أم ينقصون فقلتم بل يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه فقلتم لا ، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ، فسألهم عن زيادة أتباعه وداومهم على اتباعه ، فأخبروه أهم يزيدون ويدومون ، وهذا من علامات الصدق والحق ، فإن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف في آخر الأمر ، فيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه .

ولهذا أخبرت الأنبياء المتقدمون أن المتنبئ الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة وهذه من بعض حجج ملوك النصارى الذين يقال لهم إنهم من ولد قيصر هذا أو غيرهم حيث رأى رجلاً يسب النبي ﷺ من رءوس النصارى ويرميه بالكذب فجمع علماء النصارى وسألهم عن المتنبيء الكذاب كم تبقى نبوته؟

فأخبروه بما عندهم من النقل عن الأنبياء : إن الكذاب المفتري لا يبقى إلا كذا وكذا سنة لمدة قريبة ، إما ثلاثين سنة أو نحوها ، فقال لهم : هذا دين محمد له أكثر من خمسمائة سنة أو ستمائة سنة وهو ظاهر مقبول متبوع فكيف يكون هذا كذاباً ثم ضرب عنق ذلك الرجل .

[سؤال هرقل عن حروب النبي ﷺ]

وسألهم هرقل عن محاربته ومسألته فأخبروه أنه في الحرب تارة يغلب كما غلب يوم بدر وتارة يغلب كما غُلب يوم أحد ، وإنه إذا عاهد لا يغدر فقال لهم : وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه ، فقلتم إنها دول ، يدال علينا المرة

وندال عليه الأخرى ، وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها ، قال : وسألتكم هل يغدر فقلتم إنه لا يغدر ، وكذلك الرسل لا تغدر ، فهو لما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله فيهم أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وأنهم لا يغدرون علم أن هذا من علامات الرسل فإن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أنه يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له** »[1] والله تعالى قد بين في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة فقال : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٩-١٤١] .

[ابتلاء الله تعالى الأنبياء والمؤمنين بالسراء والضراء]

فمن الحكم تمييز المؤمن عن غيره ، فإنهم إذا كانوا دائماً منصورين لم يظهر لهم وليهم وعدوهم إذ الجميع يظهرون الموالاة فإذا غلبوا ظهر عدوهم قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ

---

[1] رواه مسلم برقم ٢٩٩٩ ، وأحمد ٣٣٢/٤ ، ٣٣٣ ، وابن حبان برقم ٢٨٩٦ عن صهيب الرومي ﷺ .

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٨] وقال تعالى ﴿ الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:١-٣] إلى قوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت: ١١] وقال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ ﴾ [آل عمران:١٧٩] وأمثال ذلك .

ومن الحكم أن يتخذ منكم شهداء فإن منزلة الشهادة منزلة علية في الجنة ، ولا بد من الموت فموت العبد شهيداً أكمل له وأعظم لأجره وثوابه ويكفر عنه بالشهادة ذنوبه وظلمه لنفسه، والله لا يحب الظالمين .

ومن ذلك أن يمحص الله الذي آمنوا فيخلصهم من الذنوب فإنهم إذا انتصروا دائماً حصل للنفوس من الطغيان وضعف الإيمان ما يوجب لها العقوبة والهوان قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ ﴾ [آل عمران:١٧٨] وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق:٦-٧] وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ((**مثل المؤمنون كمثل الخامة من الزرع تقيمها الرياح تقومها تارة وتميلها أخرى ، مثل المنافق**

كمثل الأرزة لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجفافها مرة واحدة »[1]

وسئل ﷺ أي الناس أشد بلاءً ؟ فقال : « **الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه رقة خفف عنه وإن كان في دينه صلابة زيد له في بلائه ولا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وأهله وماله حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة** »[2].

وقد قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة:٢١٤] . وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٢]

وفي الأثر فيما روي عن الله تعالى « **يا ابن آدم البلاء يجمع بيني وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك** » ، وفي الأثر أيضاً « **إنهم إذا قالوا للمريض اللهم ارحمه يقول الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه** » .

وقد شهدنا أن العسكر إذا انكسر خشع لله وذل وتاب إلى الله من الذنوب وطلب النصر من الله وبرئ من حوله وقوته متوكلاً على الله ولهذا ذكرهم الله بحالهم يوم بدر وبحالهم يوم حنين فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٣] وقال تعالى :

---

[1] رواه البخاري برقم ٧٤٦٦ ومسلم برقم ٢٨٠٩ ، من حديث أبي هريرة ﷺ ، وعند البخاري (٥٦٤٣) ومسلم (٢٨١٠) من حديث كعب بن مالك ﷺ .

[2] رواه الترمذي برقم ٢٣٩٨ ، وابن ماجة برقم ٤٠٢٣ ، وأحمد ١٧٤/١ ، وابن أبي الدنيا في المرض ٣ ، وابن حبان برقم ٢٩٠١ ، الحاكم ٤١/١ ، من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة:٢٥-٢٦] .

وشواهد هذا الأصل كثيرة وهو أمر يجده الناس بقلوبهم ويحسونه ويعرفونه من أنفسهم ومن غيرهم وهو من المعارف الضرورية الحاصلة بالتجربة لمن جربها ، والأخبار المتواترة لمن سمعها ، ثم ذكر حكمة أخرى فقال تعالى: ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤١] ذلك أن الله سبحانه إنما يعاقب الناس بأعمالهم ، والكافر إذا كانت له حسنات أطعمه الله بحسناته في الدنيا فإذا لم تبقى له حسنة عاقبه بكفره ، والكفار إذا أديلوا يحصل لهم من الطغيان والعدوان وشدة الكفر والتكذيب ما يستحقون به المحق ففي إدالتهم ما يمحقهم الله به .

[الرسل منزهون عن الغدر]

وأما الغدر فإن الرسل لا تغدر أصلاً إذ الغدر قرين الكذب كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ((**آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان**))[1]. وفي الصحيحين أيضاً عن النبي ﷺ ((**أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر**))[2].

[1] رواه البخاري برقم ٣٣ ، ومسلم برقم ٥٩ ، عن أبي هريرة ﷺ .

[2] رواه البخاري برقم ٢٤ ، ومسلم برقم ٥٨ ، وأبو داود برقم ٤٦٨٨ ، والنسائي ١١٦/٨ ، والترمذي برقم ٢٦٣٢ ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

قلت : الغدر ونحوه داخل في الكذب كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحشر:١١-١٢] فالغدر يتضمن كذباً في المستقبل والرسل صلوات الله عليهم منزهون عن ذلك فكان هذا من العلامات .

قال : وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، يأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم وهذه صفة نبي ، وقد كنت أعلم أن نبياً يبعث و لم أكن أظن أنه منكم ولوددت أن أخلص إليه ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه ، وإن يكن ما يقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين وكان المخاطب بذلك أبو سفيان بن حرب وهو حيئنذ كافر من أشد الناس بغضاً وعداوة للنبي ﷺ .

قال أبو سفيان : فقلت لأصحابي ونحن خروج لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة أنه يخافه ملك بني الأصفر ، وما زلت موقناً بأن أمر رسول الله ﷺ سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام وأنا كاره .

(قلت) فمثل هذا السؤال والبحث أفاد هذا العاقل اللبيب علماً جازماً بأن هذا هو النبي الذي ينتظره .

وقد اعترض على هذا بعض من لم يدرك غور كلامه وسؤاله، كالمازري ونحوه ، وقال : إنه بمثل هذا لا تعلم النبوة ، وإنما تعلم بالمعجزة . وليس الأمر على ما قال ، بل كل عاقل سليم الفطرة إذا سمع هذا السؤال والبحث علم أنه من أدل الأمور على عقل السائل وخبرته واستنباطه مما يتميز به هل هو صادق أو كاذب ، وأنه بهذه الأمور تميز له ذلك ، ومما ينبغي أن يعرف أن ما يحصل في القلب بمجموع أمور قد يستقل بعضها به ، بل كل ما يحصل للإنسان من شبع وري وسكن وفرح وغم بأمور مجتمعة لا يحصل ببعضها لكن بعضها قد يحصل بعض العلم .

[العلم من دلائل النبوة]

وكذلك العلم بمجرد الإخبار وبما جربه من المجربات وبما في نفس الإنسان من الأمور فإن الخبر الواحد يحصل في القلب نوع ظن ثم الآخر يقويه إلى أن ينتهي إلى العلم حتى يتزايد فيقوى وكذلك ما يجربه الإنسان من الأمور وما يراه من أحوال الشخص .

[ذكر القرآن للآثار الدالة على كرامة الله للمؤمنين وعقابه للمكذبين]

وكذلك ما يستدل به على كذبه وصدقه ، وأيضاً فإن الله سبحانه وتعالى أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة وذلك أيضاً معلوم بالتواتر كتواتر الطوفان وإغراق فرعون وجنوده .

والله تعالى كثيراً ما يذكر ذلك في القرآن كقوله ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ

خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٢-٤٦] وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق:٣٦-٣٧] وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ [غافر:٥] إلى قوله ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [غافر:٢١-٢٢]إلى قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر:٥١] إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر:٧٨] إلى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر:٨٢-٨٥]

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء نبياً بعد نبي كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده يقول في آخر كل قصة ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الشعراء:١٣٩-١٤٠] كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء:٦١-٦٨] وكذلك قال في آخر كل قصة إلى أن قال في قصة شعيب ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾ [الشعراء:١٨٩-١٩١] وقال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ص:١٢-١٤] وقال تعالى في قوم شعيب ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ

فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٣٧-٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحقاف:٢٧-٢٨].

فهو سبحانه يذكر ما ظهر للموحدين من مساكنهم التي كانت حول أهل مكة فإن عامة من قص الله نبأه من الرسل وأممهم بعثوا حول مكة كهود في اليمن وصالح بالحجر من ناحية الشام ،وإبراهيم وموسى وعيسى ويونس ولوط وأنبياء بني إسرائيل بأرض الشام ومصر والجزيرة وما يليها من العراق .

وقد قال تعالى لما قص قصة قوم لوط ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي

ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر:٧٣-٧٩] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:١٣٣-١٣٨] وقال تعالى : ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٧] وقال تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ﴿٢﴾ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل:١-٥] وقال تعالى ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش:١-٤] وقال تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٣] وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي

ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر:٢] وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف:١٠٩-١١١]

ومثل هذا في القرآن متعدد في غير موضع يذكر الله تعالى قصص رسله ومن آمن بهم وما حصل لهم من النصر والسعادة وحسن العاقبة وقصص من كفر بهم وكذبهم وما حصل لهم من البلاء والعذاب وسوء العاقبة ،وهذا من أعظم الأدلة والبراهين على صدق الرسل وبرهم وكذب من خالفهم وفجوره ثم إنه سبحانه بين أن ذلك يعلم بالبصر أو السمع أو بهما .

فالبصر والمشاهدة لمن رآهم أو رأى آثارهم الدالة عليهم كمن شاهد أصحاب الفيل وما أحاط بهم ومن شاهد آثارهم بأرض الشام واليمن والحجاز وغير ذلك كآثار أصحاب الحجر وقوم لوط ونحو ذلك .

والسمع فبالأخبار التي تفيد العلم كتواتر الأخبار بما جرى في قصة موسى وفرعون وغرق فرعون في القلزم ،وكذلك تواتر الأخبار بقصة الخليل مع االنمروذ، وتواتر الأخبار بقصة نوح وإغراق أهل الأرض ، وأمثال ذلك من الأخبار المتواترة عند أهل الملل وغير أهل الملل مع أن في بعض قصص من تواترت به هذه الأخبار ما يحصل العلم بخبرهم ،واشتراك البصر والسمع كما يشاهد بعض الآثار من تواتر الأخبار ، ومما يبين الحال كما نشاهد السفن

ويعلم بالخبر أن ابتداءها كان سفينة نوح كما قال تعالى قال تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝ ﴾ [يس:٤١-٤٢] وقوله تعالى قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝ ﴾ [الحاقة:١١-١٢] ، وكذلك نشاهد أرض الحجر وما فيها من البيوت المنقورة في الجبال ،ونعلم بالخبر تفصيل الحال وأمثال ذلك .

[العلم من دلالات النبوة والرسالة]

وبالجملة فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول بأنهم رسل الله ، وأن أقواماً اتبعوهم وأن أقواماً خالفوهم ، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم وعاقب أعداءهم ، هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها ، ونقل هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار ملوك الفرس والعرب في جاهليتها وأخبار اليونان وعلماء الطب والنجوم والفلسفة اليونانية كبقراط[1] وجالينوس[2] وبطليموس[3] وسقراط[4]وأفلاطون[5] وأرسطو[6] وأتباعه .

---

(1) بقراط ولد في جزيرة كوس اليونانية نحو ٤٦٠ ق . م وهو أشهر الأطباء الأقدمين نقلت بعض مصنفاته إلى العربية منها مقدمة المعرفة وطبيعة الإنسان ، وكتاب الأجنة ، وتوفي سنة ٣٧٧ ق.م انظر عيون الأنباء ص ٢٤، والملل والنحل ٤٣٢،والفهرست ٣٤٨ .

(2) جالينوس طبيب يوناني بعد بقراط انتصب إلى الرئاسة انظر ترجمته في الفهرس ٣٥٠، وما بعدها .

(3) بطليموس من مشاهير علماء اليونان ولد في بيلوسيوم نشأ في الاسكندرية وقد انتهى إليه علم حركات النجوم انظر الفهرست ٣٧٤ .

(4) ولد سقراط في أثينا نحو ٤٩٦ ق . م انظر أخباره في الملل والنحل ٤٠١ .

(5) تقدمت ترجمته انظر ص١٣٧ .

(6) تقدمت ترجمته انظر ص ١٣٧.

فكل عاقل يعلم أن نقل أخبار الأنبياء وأتباعهم ينقلها من أهل الملل من لا يحصى عدده إلا الله ويدونونها في الكتب وأهلها من أعظم الناس تديناً بوجوب الصدق وتحريم الكذب ففي العادة المشتركة بينهم وبين سائر بني آدم ما يمنع اتفاقهم وتواطأهم على الكذب ،بل ما يمنع اتفاقهم على كتمان ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ، وفي عادتهم الخاصة ودينهم الخاص برهان آخر أخص من الأول وأكمل وهذا معلوم على سبيل التفصيل من حال أمتنا فإنا نعلم علماً ضرورياً بالنقل المتواتر من عادة سلف الأمة ودينهم الموجب للصدق والبيان المانع من الكذب والكتمان ما يوجب علماً ضرورياً لنا بما تواتر لنا عنهم وبانتفاء أمور لو كانت موجودة لنقلوها ، وأهل الكتابين قبلنا عندهم من التواتر بجمل أمور ما يحصل به المقصود في هذا الموضع ، وإن كان قد يجيء كذب أو كتمان في بعض التفاصيل من أهل الكتابين قبلنا ، وفي بعض أمتنا فهذا أقل بكثير مما يقع من الكذب والكتمان بأخبار الفرس واليونان والهند وغيرهم ممن ينقل أخبار ملوكهم وعلمائهم ونحو ذلك ، وما من عاقل يسمع الخبر عن هؤلاء وعن وهؤلاء كما هو موجود في هذا الزمان في الكتب والألسنة إلا ما ويحصل له من العلوم الضرورية بأحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم أعظم مما يحصل من العلوم بأحوال ملوك الفرس والروم وعلمائهم وأوليائهم وأعدائهم وهذا بين ولله الحمد .

ولولا أن هذا الجواب إنما كان القصد به الكلام على هذه العقيدة المختصرة لكان البسط لي في هذا الموضع أولى من ذلك ، فإن هذه المقامات تحتمل بسطاً عظيماً لكن نبهنا على مقدمات نافعة فإن أكثر أهل الكلام مقصرون في حجج الاستدلال على تقرير ما يجب تقريره من التوحيد والنبوة تقصيراً كثيراً جداً ، كما أنهم كثيراً ما يخطئون فيما يذكرونه من المسائل ومن لا يعرف الحقائق يظن أن ما ذكروه هو الغاية في أصول الدين، والنهاية في دلائله

ومسائله فيورثه ذلك مخالفة الكتاب والسنة بل وصريح العقل في مواضع ، ويورثه استضعافاً لكثير من أصولهم وشكاً فيما ذكروه من أصول الدين استرابة بل قد يورثه ترجيحاً لأقوال من يخالف الرسل من متفلسفة وصابئين ومشركين ونحوهم حتى يبقى في الباطن منافقاً زنديقاً وفي الظاهر متكلماً يذب عن النبوات[1].

ولهذا قال أحمد وغيره ممن قال من السلف : علماء الكلام زنادقة ، وما ارتدى أحد بالكلام إلا كان في قلبه غل على أهل الإسلام لأنهم بنوا أمرهم على أصول فاسد أوقعتهم في الضلال ،وليس هذا موضع بسط هذا ، وقد بسطناه في غير هذا الموضع .

[تنوع طرق العلم بالنبوة والرسالة]

(والمقصود هنا) أن طرق العلم بالرسالة كثيرة جداً متنوعة ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر بأحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا علماً يقيناً أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة .

(منها) أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم أخباراً كثيرة في أمور كثيرة هي كلها صادقة لم يقع في شيء منها تخلف ولا غلط بخلاف من يخبر به من ليس متبعاً لهم ممن تنزل عليه الشياطين أو يستدل على ذلك بالأحوال الفلكية وغيره .

وهؤلاء لابد أن يكونوا كثيراً بل الغالب من أخبارهم الكذب وإن صدقوا أحياناً .

(ومن ذلك) أن ما أحدثه الله تعالى من نصرهم وإهلاك عدوهم إذا عرف الوجه الذي حصل عليه كحصول الغرق لفرعون وقومه بعد أن دخل البحر

---

[1] للأهمية انظر الاستقامة ١/١٤-١٦، ومنهاج السنة ٥/٢٦١، ودرء تعارض العقل والنقل ٨/٣-٤ .

خلف موسى وقومه كان هذا مما يورث علماً ضرورياً أن الله تعالى أحدث هذا نصراً لموسى عليه السلام وقومه ونجاة لهم وعقوبة لفرعون وقومه ونكالاً لهم ، وكذلك أمر نوح والخليل عليهما السلام وكذلك قصة الفيل وغير ذلك .

(ومن الطرق أيضاً) أن من تأمل ما جاء به الرسل عليهم السلام فيما أخبرت به وما أمرت به علم بالضرورة أن مثل هذا لا يصدر إلا عن أعلم الناس وأصدقهم وأبرهم وأن مثل هذا يمتنع صدوره عن كاذب متعمد للكذب مفتر على الله يخبر عنه بالكذب الصريح ، أو مخطئ جاهل ضال يظن أن الله تعالى أرسله ولم يرسله ، وذلك لأن فيما أخبروا به وما أمروا به من الإحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدى الخلائق وبيان ما يعلمه العقل جملة ويعجز عن معرفته تفصيلاً ما يبين أنهم من العلم والمعرفة والخبرة في الغاية التي باينوا بها أعلم الخلق ممن سواهم فيمتنع أن يصدر مثل ذلك عن جاهل ضال وفيها من الرحمة والمصلحة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين أن ذلك صدر عن راحم بار يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق ، وإذا كان ذلك يدل على كمال علمهم وكمال حسن قصدهم ، فمن تم علمه وتم حسن قصده امتنع أن يكون كاذباً على الله يدعي عليه هذه الدعوى العظيمة التي لا يكون أفجر من صاحبها إذا كان كاذباً متعمداً ، ولا أجهل منه إن كان مخطئاً .

وهذه الطريق تُسلك جملة في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتفصيلاً في حق واحد واحد بعينه فيستدل المستدل بما يعلمه من الحق والخير جملة على علم صاحبه وصدقه ثم يستدل بعلمه وصدقه على ما لم يعلمه تفصيلاً والعلم بجنس الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب معلوم بالفطرة والعقل الصريح بل جملة ذلك مما اتفق عليه بنو آدم ، ولذلك يسمى ذلك معروفاً

ومنكراً ، فإذا علم أنه فيما علم الناس أنه الحق وأنه خير هو أحق منهم به وأنصح الخلق فيه وأصدقهم فيما يقول علم بذلك أنه صادق عالم ناصح لا كاذب ولا جاهل ولا غاش .

(وهذه الطريق) يسلكها كل أحد بحسبه ولا يحتاج في هذه الطريق إلى أن يعلم أولاً خواص النبوة وحقيقتها وكيفيتها بل أن يعلم أنه صادق بار فيما يخبر به ويأمر به ثم من خبره يعلم حقيقة النبوة والرسالة .

[مذهب الفلاسفة والمتكلمين والصوفية في معرفة النبي ﷺ]

وقد سلك آخرون من المتكلمين والمتفلسفة والمتصوفة وغيرهم طريق أخرى تشبه هذه من وجه دون وجه وهو أن يعلم النبوة أولاً وأنها موجودة في بني آدم وأنهم محتاجون إليها ويعلم صفاتها ثم يعلم عين النبي ﷺ ثم المتكلمون من المعتزلة وغيرهم يوجبون النبوة على الله على طريقتهم في إيجاب ما يوجبونه عليه ، والمتفلسفة قد يوجبون ذلك على طريقتهم فيما يجب وجوده في العالم وغيرهم يوجب ذلك لما علم من عادته في حكمته ورحمته وإعطائه الخلق ما يحتاجون إليه .

(وبالجملة) **فيعلمون نوعها في العالم ثم يعلمون الواحد من الجنس بثبوت** حقيقة النوع فيه ، وهذه الطريقة يسلكها كثير من المتكلمة والمتصوفة والمتفلسفة والعامة غيرهم ، لكن المتفلسفة كابن سينا[1] وأمثاله أدركوا من النبوة بقدر ما أعطتهم موادهم الفلسفية التي علموا بها أن النبي يكون له كمال القوة العلمية وكمال قوة السمع والبصر وكمال قوة النفس بحيث يعلم ويسمع ويبصر ما يقصر غيره عنه ، ويفعل في العالم بهمته ما يعجز غيره عنه ، وهؤلاء يجعلون نفس النبوة ثلاثة أمور :

أحدها : أن تكون له قوة عقلية بل نسبة ينال بها العلم من غير تعلم .

---

[1] انظر أخبار ابن سينا وزندقته في الملل والنحل ٤٩٠ .

الثاني : أن تكون له قوة خيالية يتخيل بها الحقائق العقلية موجودة خالية وثقة من أجناس منام النائم فيرى في نفسه ضوءاً وذلك هو الرسالة عندهم ويسمع وذلك هو كلام الله عندهم .

الثالث : أن تكون لنفسه قوة على أن تؤثر في العالم .

وهذه الأقوال الثلاثة تحصل لخلق كثير هم دون رتبة الصالحين فضلاً عن النبوة ، ولهذا كانت النبوة عندهم مكتسبة فصار كثير منهم يطلب أن يصير نبياً كما جرى للسهروردي المقتول[1] ولابن سبعين[2] ، ولهذا كان ابن سبعين يقول لقد زدت في حديث قال: ((**لا نبي بعد نبي عربي**)) وهؤلاء يجعلون النبوة إنما هي من جنس واحد وقوة الناس في العلم والقدرة لكن يقول بينهما من الفصل بإرادة النبي الخير ، وإرادة الساحر الشر ، ويقولون الملك والشيطان قوى لكن قوة الملك قوة صالحة وقوة الشيطان قوة فاسدة ، وأما من يقول الملائكة والجن هم جنس واحد لا فرق بينهما في الصفات فهولاء يقولون إن هذا القدر يحصل نوع منه لغيرهم من الأولياء لكن يحصل لهم ماهو دون ذلك وهذا على طريقة عقلاء المتفلسفة الذين يفضلون النبي على الفليسوف والولي كابن سينا وأمثالهم .

وأما غلاتهم كالفارابي[3] وأمثاله الذين قد يفضلون الفليسوف على النبي كما

---

(1) هو الشيخ شهاب الدين السهروردي أبو حفص أو أبو عبد الله عمر بن محمد التيمي البكري الصوفي توفي سنة ٦٣٢هـ انظر العبر ٢١٣/٣، والشذرات ١٥٣/٥، والدول ١٣٦/٢، والسير ٣٧٣/٢٢.

(2) تقدمت ترجمته ص ١٠١.

(3) هو أبو نصر الفارابي محمد بن محمد بن طرخان ذو المصنفات المشهورة والتي من ابتغى الهدى فيها أضله الله توفي سنة ٣٩٩هـ، انظر السير ٤١٦/١٥، والنهاية ٢٣٨/١١ والشذرات٣٥٠/٢، والعبر ٥٨/٢، والدول ٢١١/١ .

يفضل أشبهاهم كابن عربي الطائي[1] صاحب الفتوحات المكية وفصوص الحكم وغيرهما فإنهم يفضلون الولي على النبي .

وكان يدعي أنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى النبي ، وإن الملك على أصلهم هو الخيال الذي في نفس النبي ، والنبي بزعمهم يأخذ عن ذلك الحال ، والخيال يأخذ عن العقل ، ثم زعم هذا أنه يأخذ عن العقل الذي في هذا الخيال ، فلهذا قال إنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك ما يوحي به إلى النبي ، فهؤلاء شاركوهم في أصل طريقهم لكن عظم ضلالهم وجهلهم بقدر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أن أصل معرفة هؤلاء بقدر النبوة معرفة ناقصة بتراء ، بل من عرف ما جاءت به الأنبياء وما يذكرونه في قدر النبوة علم أنهم آمنوا ببعض ما جاءت به الرسل وكفروا ببعض ، فكما أن اليهود والنصارى آمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض فهؤلاء آمنوا ببعض صفات النبوة وكفروا ببعض ، ولهذا قد يكون فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى ، وقد يكون في اليهود والنصارى من هو أكفر منهم بحسب ما آمن به كل من هؤلاء بما جاءت به الرسل وما كفروا به .

[مذهب أبي حامد في معرفة النبي]

وأبو حامد كثيراً ما يسلك هذا الطريق في كتبه لكنه لا يوافق المتفلسفة على كل ما يقولونه بل يكفرهم ببعض ويضللهم في موضع[2] ، وإن كان في الكتب المضافة إليه ما قد يوافق بعض أصولهم بل في الكتب التي يقال إنها مضنون بها على غير أهلها ما هو فلسفة محضة مخالفة لدين المسلمين . واليهود والنصارى ، وإن كانت قد عبر عنها بعبارات إسلامية لكن هذه الكتب في الناس من يقول إنها مكذوبة على أبي حامد ومنهم من يقول بل رجع عنها ، ولا ريب أنه صرح في مواضع ببعض ما قاله في هذه الكتب

---

(1) تقدمت ترجمته ص ١٠١ .

(2) وله كتاب في ذلك بعنوان تهافت الفلاسفة .

وأخبر في المنقذ من الضلال[1] وغيره من كتبه بما في ذلك من الضلال ، وذكر كيف كان طلبه للعلوم أولاً حتى قال: أقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات وانظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها فانتهى بي طول التسلسل إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً .

وأخذ يتبع الشك فيها وذكر بعض شبه السوفسطائية في الحسيات إلى أن قال : فلما خطر لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر إذ لم يمكن دفعه إلا بدليل ، و لم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية وإذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل فأعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين أنا فيها على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال حتى شفى الله تعالى عني ذلك المرض والإعلال وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على إيمان ويقين ، و لم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى في الصدور وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، قال فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة إلى أن قال :

والمقصود من هذه الحكاية أن يعلم أنه كمل الجد في الطلب حتى انتهى إلى طلب ما لا يطلب لأن الأوليات ليست مطلوبة فإنها حاضرة والحاضر إذا طُلِبَ بَعُدَ واختفى قال :" ولما كفاني الله تعالى هذا المرض انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

(**المتكلمون**) وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر .

---

[1] هو اسم كتاب للغزالي .

(**والباطنية**) وهم يدعون أهم أصحاب التعليم والمخصصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

(**الفلاسفة**) وهم يزعمون أهم أصحاب المنطق والبرهان .

(**والصوفية**) وهم يدعون أنهم خاصة الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة .

فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة فهؤلاء السالكون سبيل طلب الحق فإن شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع .

إلى أن قال : فابتدأت لسلوك هذه الطرق واستقصاء ما عند هؤلاء الفرق مبتدئاً بعلم الكلام ومثنياً بطريق الفلسفة ومثلثاً بتعليمات الباطنية ومربعاً بطريق الصوفية .

قال: ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علماً وافياً بمقصوده غير واف بمقصودي ،وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش المبتدعة فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله ﷺ عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمقدماته القرآن والأخبار ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة أهل الحق على أهلها .

فأنشأ الله تعالى طائفة من المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة على خلاف السنة المأثورة ...

إلى أن قال : وكان أكثر حرصهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤخذاتهم بلوازمهم ومسلماتهم .

إلى أن قال : فلم يكن الكلام في حقي كافياً ولا لدائي الذي أشكوه شافياً

إلى أن قال : فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيري بل لا أشك في حصول ذلك

لطائفة ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات

إلى أن قال : ثم إني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من المعلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة

إلى أن قال : لم أزل حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس وتحقيق تخييل إطلاعاً لم أشك فيه فاستمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم فإني رأيتهم أصنافاً ورأيت علومهم أقساماً ، وهم على كثرة أصنافهم تلزمهم وصمة الكفر والإلحاد وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه .

ثم قال اعلم أنهم على كثرة فرقهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام (**الدهريون**) و(**الطبائعيون**) و(**الإلهيون**) [1].

[أقسام الفلاسفة عند أبي حامد]

(**الصنف الأول الدهريون**) وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر للعالم القادر وزعموا أن العالم، ولم يزل موجوداً كذلك، ولم يزل الحيوان من نطفة والنطفة من حيوان كذلك كان وكذلك يكون أبداً وهؤلاء الزنادقة .

(**الصنف الثاني الطبيعيون**) وهم قوم أكثر بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات

إلى أن قال: إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به فظنوا أن القوة العاقلة من

---

[1] انظر المراد من هذه المصطلحات كتاب التعريفات والملل والنحل ٥١٠-٥٤٤ .

الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً وأنها تبطل ببطلان مزاجه فتنعدم ثم إذا انعدمت فلا تعقل إعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة وأنكروا الجنة والنار والقيامة والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام .

وهؤلاء أيضاً زنادقة لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله تعالى وصفاته .

(**والصنف الثالث الإلاهيون**) وهم المتأخرون مثل سقراط وهو أستاذ أفلاطون ،وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس ،وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق وهذب لهم العلوم وخمر لهم ما لم يكن مخمراً من قبل ، وأوضح لهم ما كان أحجى من علومهم وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم وكفى الله المؤمنين القتال بقتالهم ، ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبله من الإلاهيين رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها فوجب تكفيرهم وتكفير متبعيهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهما ، على أنه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم ومن لا يفهم كيف يرد أو يقبل .

ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس بحسب نقل هذين الرجلين ينحصر في أقسام : قسم يجب التكفير به ، وقسم يجب التبديع به ، وقسم لا يجب إنكاره أصلاً فلنفصله ...

ثم ذكر أنها ستة أقسام : رياضية ومنطقية وطبيعية وإلاهية وسياسية وخلقية وتكلم على ذلك بما ليس هذا موضعه .

وقد بينا الكلام على ذلك في غير هذا الموضع .

إلى أن قال : ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف ما تزيف منه علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض فإن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات .

[مذهب الباطنية]

ثم ذكر مذهب الباطنية وتلبيسهم وأنه ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء ثم هم مع عجزهم عن إقامة البرهان عن تعيين الإمام المعصوم صدقناهم في الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم المعصوم وأنه هو الذي عينوه .

ثم سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلاً عن القيام بحلها ، فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب ، وقالوا لابد من السفر إليه ، والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم والنجاح في الظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً كالمتضمخ بالنجاسة يتعب في طلب الماء فإذا وجد ما يستعمله بقى مضمخاً بالنجاسة .

ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم وكان حاصل ما ذكره من ركيك فلسفة فيثاغورس وهو رجل من قدماء الأوائل ومذهبه أول مذاهب الفلاسفة وقد رد عليه أرسطاطاليس بل استدرك كلامه واسترذله وهو المحكي في كتاب رسائل إخوان الصفا وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طول العمر في طلب العلم ثم يتبع لمثل ذلك العلم الركيك المستغث ويظن أنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم فهؤلاء أيضاً جربناهم وسبرنا باطنهم وظاهرهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ومجادلتهم في إنكارهم الحاجة إلى التعليم بكلام قوي مفحم ، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد ، وقال هات علمه وأفدنا من تعليمه ، وقف فقال: الآن إذا سلمت لي هذا فاطلبه فإنما

غرضي هذا القدر فقط ، إذ علم أنه لو زاد على ذلك لا فتضح ولعجز عن حل أدنى المشكلات بل عجز عن فهمه فضلاً عن جوابه .

(ثم قال): ثم إني لما فرغت من هذه أقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان العلم أيسر عليَّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المنثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام المشائخ حتى اطلعت على كثير من مقاصدهم العلمية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع وظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحاً شبعان ، وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل عن استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة إلى معادن الفكر وبين أن يكون سكراناً بل السكران لا يعرف حد السكر وأركانه وهو سكران وما معه من علمه شيء ، والطبيب يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء ، والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأدويتها وهو فاقد الصحة .

[ميل أبي حامد لطريقة الصوفية]

فكذلك الفرق بين من يعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين من هو يكون حالة الزهد عزوف النفس عن الدنيا ،فعلمت يقيناً أهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم قد حصلته .

ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالتعلم والسماع بل بالذوق والسلوك وكان قد

حصل معي من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها في تفتيشي عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر .

وهذه الأصول الثلاثة كانت رسخت في نفسي بلا دليل محرر بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها ، وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وإن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا والتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى وإن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال .

(**وذكر حاله**) في خروجه عن ذلك ومجيئه إلى الشام ثم الحجاز .

إلى أن قال : وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها والقدر الذي أذكره لينتفع به أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطرق الله تعالى الخاصة وأن سيرهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشريعة من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في باطنهم وظاهرهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، فليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

[كلام أبي حامد في حقيقة النبوة]

إلى أن قال ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقهم حقيقة النبوة وخاصتها ثم تكلم في حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها[1] .

فقال : اعلم أن جوهر الإنسان من أول الفطرة خلق خالياً ساذجاً لا خبر معه من عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله كما قال سبحانه:

---

[1] التصوف الذي يمجده أبو حامد الغزالي ما هو إلا ضلالة وبطالة وجهالة كذلك قال القرطبي في تفسيره لآية السامري من سورة طه نقلاً عن غيره .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١]ثم ذكر ما يدركه بالحواس ثم بالتمييز ثم يترقى في طور آخر فيخلق له العقل ، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات وأموراً لا توجد في الأطوار التي قبله وراء العقل طور آخر يتفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأمور أخرى العقل معزول عنها لعزل قوة الحس عن مدركات التمييز وكما أن المميز لو عرض عليه مدركات العقل لأباه واستبعده ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة فاستبعدوها، وذلك عين الجهل إذ لا مستند له إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه ، فظن أنه غير موجود في نفسه والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكال وحكى له ابتداء لم يفهمها ولم يقر بها وقد قرب الله منها ذلك إلى خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصة النبوة وهو النائم إذ النائم لم يدرك ما سيكون في الغيب إما صريحاً وإما في كونه مثال يكشف عنه التعبير .

[رفض بعض العقلاء لمدركات النبوة]

وهذا لو لم يجر به الإنسان من نفسه ، وقيل له إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ويزول إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لأنكره ولأقام مغشياً عليه كالميت ويزول إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لأنكره ولأقام البرهان على استحالته (وقال) القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لا يدرك الشيء مع وجودها وحضورها فبأن لا يدرك مع ركودها أولى .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين أخرى يبصر بها أنواعاً من المعقولات الحواس معزولة عنها فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين أخرى لها نور يظهر في نورها الغيب وأمور لا يدركها العقل ، والشك في النبوة إما أن يقع في إمكانها أو في وجودها أو وقوعها أو في حصولها لشخص معين .

ودليل إمكانها وجودها ، ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل كعلم الطب والنجوم ، فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهي[1] وتوفيق من جهة الله تعالى ولا سبيل إليه بالتجربة فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا كل في ألف سنة مرة فكيف ينال ذلك بالتجربة وكذلك خواص الأدوية فتبين بهذا البرهان أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي لا يدركها العقل وهو المراد بالنبوة، لا أن النبوة عينها فقط بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة وله خواص كثيرة سواها ، وما ذكرناه فقطرة من بحرها ، إنما ذكرناها لأن معك أنموذجاً منها وهي مدركاتك في النوم ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم .

[لا سبيل للعقلاء إلى معجزات الأنبياء]

فأما معجزات الأنبياء فلا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً ، وأما ما عداها من خواص النبوة فإنما يدركه بالذوق[2] من سلك طريق التصوف لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ، ولولاه ما صدقت به فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج فلا تفهمها أصلاً فكيف تصدق بها ، وإنما التصديق بعد التفهيم ، وذلك الأنموذج يحصل في أول طريق التصوف فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه فهذه الخاصة الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة ، فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله إما بالمشاهدة أو

---

[1] الإلهام ما يلقى في الروع بطريق الفيض انظر التعريفات للجرجاني ص ٥٧ .

[2] الذوق هونور عرفاني يقذفه الحق في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك عن كتاب هكذا زعموا انظر معجم المصطلحات الصوفية ص١٠٤ والتعريفات ص٥٧، وانظر لزاماً المصادر العامة للتلقي عند الصوفية. صادق سليم .

بالتواتر والتسامع فإنك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم إن لم تشاهدهم .

فمعرفة كون الشافعي فقيهاً وكون جالينوس طبيباً معروف بالحقيقة لا بالتقليد بأن تتعلم شيئاً من الطب والفقه ، وتطالع كتبهما وتصانيفهما فيحصل لك علم ضروري بحالهما ، وكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثر النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضروري لكونه ﷺ في أعلى درجات النبوة وأعضد ذلك بتجربه ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق في كذا وكذا ، فإذا جربت ذلك في ألف وألفين وآلاف حصل لك علم ضروري لا تتمارى فيه ، فمن هذا القبيل طلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعباناً وشق القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده و لم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن حد الحصر ربما ظننت أنه سحر وأنه تخييل ، وأنه من الله تعالى إضلال ، فإنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

ويرد عليك أسئلة المعجزات فإذا كان مستند إيمانك كلاماً منظوماً في وجه دلالة المعجزة ينخرم إيمانك بكلام مرتب من وجه الإشكال والشبه عليهما فليكن مثل هذه الخوارق إحدى القرائن والدلائل في جملة نظرك حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يقول: اليقين مستفاد من قول واحد معين بل من حيث لا يدري ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا تتعين الآحاد فهذا هو الإيمان القوي العلمي .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد ولا يوجد إلا في طريق الصوفية .

(قال) ثم إني واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين وبان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا أحصيها وبان لي من حقيقة الذوق أن للإنسان بدناً وقلباً وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله تعالى

دون اللحم الذي يشاركه فيه الميت والبهيمة وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، وله مرض فيه هلاكه إن لم يتدارك كما قال تعالى (**في قلوبهم مرض**) .

وإن الجهل بالله سم مهلك وإن معصية الله تعالى بمتابعة الهوى داؤه الممرض وإن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي ، وأنه لا سبيل إلى معالجتة بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية كما لا سبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك ، وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها لا تدركها العقلاء ببضاعة العقل بل تجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها عن الأنبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء فكذلك بان لي على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص لا ببضاعة العقل ،وكما أن الأدوية تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار وبعضها ضعف لبعض في الوزن فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر من قبل الخواص فكذلك العبادات التي هي أدوية القلوب مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار حتى أن السجود ضعف الركوع وصلاة الصبح نصف صلاة الظهر ولا يخلو عن سر من الأسرار هو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليه إلا بنور النبوة .

لقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة وظن أنها ذكرت على الاتفاق لا عن سر إلاهي فيها يقتضيها بطريق الخاصية وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها وزوائد هي متمماتها لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها كذلك السنن والنوافل لتكميل آثار أركان العبادات ، وعلى الجملة فالأنبياء أطباء أمراض القلوب .

وأما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك وشهد بصدق النبوة وبعجز نفسه عن درك ما يدرك بعين النبوة وأخذنا بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين .

فإلى هاهنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهيم ما يلقيه الطبيب إليه فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة في مدة الخلوة والعزلة .

[أسباب فتور الاعتقاد في أصل وحقيقة النبوة عند أبي حامد]

ثم رأينا فتور الاعتقاد في أصل النبوة ثم في حقيقة النبوة ، ثم العمل بما شرحته النبوة وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ونظرت إلى أسباب فتور الخلق وضعف إيمانهم بها فإذا هي أربعة :

سبب من الخائضين في علم الفلسفة وسبب من الخائضين في طريق التصوف وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم وسبب من معاملة المتوسمين من العلماء فيما بين الناس ، فإني تتبعت مدة آحاد الخلق أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع وأسأله شبهته وأبحث عن عقيدته وسره ، وأقول له ما لك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا فهذه حماقة فإنك لا تبيع الاثنين بواحد فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟

وإن كنت لا تؤمن فأنت كافر فدبر لنفسك في طلب الإيمان وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطناً وهو سبب جراءتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به تجملاً بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع فقائل يقول : هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشهورين من الفضلاء لا يصلي وفلان يشرب الخمر وفلان يأكل الأموال من الأوقاف وأموال اليتامى وفلان يأكل أدرار السلطان ولا يحترز من الحرام ،وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة وهلم جرا ، إلى أمثاله .

وقائل ثان يدعي علم التصوف فيقول إني بلغت مبلغاً ترقيت عن الحاجة

إلى العبادة .

وقائل ثالث تعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة وهم الذين ضلوا عن طريق التصوف ، وقائل رابع لقي أهل التعليم ويقـــول الحـــق مشـــكل والطريق إليه عسير منسد والاختلاف كثير[1] ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة فلا ثقة برأي أهل الرأي، والداعي إلى التعليـــم متحكم لا حجة له فكيف ندع اليقين بالشك .

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ولكني قرأت علم الفلســـفة وأدركت حقيقة النبوة وأن حاصلها يرجع إلى المصلحة والحكمة وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترســـال في الشهوات فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل في حجر التكليف ، وإنما أنـــا من الحكماء اتبع الحكمة وأنا بصير بها مستغني فيها عن التقليد .

هذا منتهى مـــن قرأ فلسفة الإلاهيين منهم ويُعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي وهؤلاء المتجملون منهم بالإسلام وربما يرى الواحد منـــهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات ويعظم الشريعة بلسانه ولكنه مـــع ذلك لا يترك شرب الخمر وأنواعاً من الفسق والفجور وإذا قيل لـه إن كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلي ؟

فربما يقول رياضة الجسد وعادة البلد وحفظ الذرية والولد ، وربما قـــال الشريعة صحيحة والنبوة حق فيقال له : فلم تشرب الخمر ؟ فيقول إنما نهـــي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء وأنا بحكمتي محترز عن ذلـــك ، وإني أقصد بها تشحيذ خاطري حتى أن ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها أنـــه

---

[1] انظر بيان هذه الأصناف في كتاب تلبيس إبليس لابن الجوزي وإغاثة اللهفان لابـــن القيم الجوزيه .

عاهد الله تعالى على كذا وكذا وأن يعظم الأوضاع الشرعية ولا يقصـــر في العبادات الدينية ولا يشرب الخمر تلهياً بل تداوياً وتشفياً وكان منتهى حالته في صفاء الإيمان والتزام العبادات أن يستثني شرب الخمر لغرض التشفي فـهذا إيمان من يدعي الإيمان منهم وقد انخدع إلى ذكر ما رد به على أهل التعليـــم وأهل الإباحة[1].

[الرد على من أنكـر أصـل النبوة]

قال: وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة فقد ذكرنـا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة بدليل وجود خواص الأدويـــة والنجـوم وغيرها وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك ، وأوردنا الدليل مـــن خـواص النجوم والطب لأنه من نفس علمهم ونحن نبين لكل عالم بفن مـــن العلـوم كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلاً من نفس علمه برهـــان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه وسوى أوضاع الشرع على الحكمة فهو علـى التحقيق كافر بالنبوة وإنما هو مؤمن بحكيم له طالع مخصوص يقتضي طـالعه أن يكون متبوعاً وليس هذا من النبوة في شيء بل الإيمـــان بـالنبوة أن يقـر بإثبات طور وراء طور العقل تنفتح فيه عين يدرك بها مدركـــات خاصـة، والعقل معزول عنها كعزل اللمس عن إدراك الأصوات وجميع الحواس عـن إدراك المعقولات فإن لم يجوز هذا فقد أقمنا البرهان على إمكانه بـــل علـى وجوده .

وأخذ يستدل بالخواص الموجودة في الطبيعيات على إمكان خواص ثابتـــة في الشرعيات وأن تلك إذا لم تعرف بقياس العقل فكذلك الأخرى .

---

[1] بل نقل عنهم من كان يزني ويعمل عمل قوم لوط ويفطر في رمضان ويترك الصـلاة بحجة العلم اللدني انظر في ذلك كتاب الطبقات للشعراني٢/١٢٩ ، وطبقات الصوفيـة للسلمي ص ١٩٠-١٩١ ، ١٨٩-٢٣٢ ، والإبريز للدباغ ٢/٤٣.

قال : وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة ، قال : والعجب أنا لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين لصدقوا باختلاف هذه الأوقات فنقول ليس يختلف الحكم والطالع بأن تكون الشمس في وسط السماء أو في الطالع أو في الغارب حتى بنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف الصلاح وتفاوت الأعمار والآجال .

فلا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ولا بين المغرب وبين كونه في الغارب فلم يكن لتصديقه سبب إلا أن ذلك سمعه بعبارة منجم جرب كذبه مائة مرة ، ولا يزال يعاود تصديقه حتى لو قال له المنجم إذا كانت الشمس في وسط السماء ونظر الكوكب الفلاني فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الوقت، فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت وربما يقاسي فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم قد جرب كذبه مرات فليت شعري من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر إلى الإعتراف بأنها خواص معرفتها معجزة لبعض الأنبياء كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات لم يعرف قط بالكذب و لم لا يتسع لإمكان هذه الخواص في أعداد الركعات ورمي الجمار وعدد أركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع و لم نجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً فإن قال: قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب فوجدت بعضه صادقاً فانقدح في نفسي تصديقه وسقط عن قلبي استبعاده ونفرته .

وهذا لم أجربه فيما أعلم وجوده وتحققه وإن أقررت بإمكانه فأقول إنك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت أخبار المجربين وقلدهم فاسمع أقوال الأنبياء فقد جربوه وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع أو اسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك على أني أقول وإن لم تجرب فيقتضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً .

فإنا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل و لم يجرب ومرض وله والد مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل فعجن له والده دواء وقال هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك فماذا يقتضيه عقله وإن كان الدواء كريهاً مر المذاق أن يتناول أو يكذب ويقول أنا لا أعرف مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء و لم أجربه فلا شك أنك تستحمقه إن فعل ذلك فكذلك يستحمقك أهل البصائر في توقفك ، فإن قلت فلم أعرف شفقة النبي ومعرفته بهذا الطب فأقول وبم عرفت شفقة أبيك فإن ذلك أمر ليس محسوساً بل عرفتها بقرائن أحواله وشواهد أعماله في موارده ومصادره علماً ضرورياً لا يتمارى فيه.

ومن نظر في أقوال رسول الله ﷺ وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطفه في حق الناس بأنواع اللين واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما يصلح به دينهم ودنياهم حصل له علم ضروري بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده ، وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال وإلى عجائب الغيب التي أخبر عنها في القرآن على لسانه وفي الأخبار وإلى ما ذكره في آخر الزمان وظهر ذلك كما ذكره علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب والخواص والأمور التي لا يدركها العقل وهذا هو منهاج يحصل العلم الضروري بصدق النبي ﷺ ، وتأمل في القرآن وطالع الأخبار إلى أن تعرف ذلك بالعيان ، وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان .

[الطريقة التي ذكرها أبو حامد تفضي إلى العلم بالنبوة]

(قلت) فهذه الطريق التي ذكرها أبو حامد الغزالي تفضي أيضاً إلى العلم بالنبوة والتصديق بها بأكثر من القدر الذي تقر به المتفلسفة وما ذكره من المشاهدات والكشوفات التي تحصل للصوفية وأنهم يشهدون تحقيق ما أخبر به الرسول ﷺ ونفع ما أمر به فهذا أيضاً حق في كثير مما أخبر به وأمر به ثم إذا

علم ذلك صار حجة على صدقه فيما لم يعلمه كمن سلك طريقاً من العلم بفن من الفنون إذا رأى كلام متكلم في ذلك العلم ورآه يحقق ما عنده ويأتي بزيادات لا يستطيعها فإنه يعلم بما رآه من مزيد تحقيقه لما شاركه في أصل معرفته أنه أعلم منه بما رواء ذلك كمن نظر في الطب إذا رأى كلام بقراط[1] ومن نظر في النحو إذا رأى كلام الخليل[2] وسيبويه[3] ، ومن نظر في العلوم الدينية إذا رأى كلام أئمة السلف وكذلك من سلك مسلك الزهد والعبادة إذا بلغه سير زهاد السلف وعبادهم ، ومن والى الناس وساسهم إذا رأى سيرة عمربن الخطاب ﷺ وعمر بن عبد العزيز ونحوهما ، فهذا كله يبين له عظمة قدر هؤلاء وأنهم كانوا أئمة في هذه الأمور وفيما يصلح ويجب من ذلك ويعلم كل أحد الفرق بين سيرة العمرين وسيرة الحجاج[4] ، والمختار بن أبي عبيد[5] ونحوهما بل يعلم الفرق بين سيرة بني أمية وبني العباس وبين سيرة بني بوية وبني عبيد وأمثال ذلك كذلك يعلم الفرق بين نبينا محمد وموسى وعيسى

---

[1] تقدمت ترجمته انظر ص ١٧٧.

[2] هو الإمام صاحب العربيه ومنشئ علم العروض أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري انظر ترجمته في السير ٤٧٩/٧-٤٣١ .

[3] سيبويه اسمه عمرو بن عثمان بن قنبر أبو الحسن أو أبو البشر ، وسيبويه بالفارسية رائحة التفاح انظر خبره في الفهرست لابن النديم ص ٧٤ .

[4] هو الحجاج بن يوسف الثقفي أهكله الله في رمضان وكان ظلوماً جباراً ناصبياً خبيثاً سفاكاً للدماء حاصر ابن الزبير ﷺ بالكعبة ورمى الكعبة بالمنجنيق قال النسائي عنه: ليس بثقة ولا مأمون ، توفي سنة ٩٥ هـ انظر السير ٣٤٣/٤ .

[5] المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب هو كذاب ثقيف ادعى أنه يعلم الغيب وأن جبريل ينزل عليه بالوحي فلعنة الله على الكاذبين توفي سنة ٦٧هـ، انظر العبر ٥٥/١، والسير ٥٣٨/٣ ، والإصابة ١٩٨/٦ .

عليهم السلام وبين مسيلمة والأسود العنسي وأمثالهما بأدنى تأمل وهذه الطريق ينقسم الناس فيها إلى عام وخاص بسبب علمهم بالخير والشر والصدق والكذب ونحو ذلك وهذه تفيد العلم القطعي بأن الأنبياء أكمل الخلق وأفضلهم وأنه لا يصلح لأحد أن يعارضهم برأيه ولا يخالفهم بهواه لكن لا يفيد العلم بحقيقة النبوة إلا أن يعترف أن النبي أعلم منه فلا يمكنه أن يقول هو أعلم منه فكل من حصل له من المخاطبات ومن المشاهدات ما يحصل للأولياء فإنه يعلم أن الذي للأنبياء فوق الذي له من ذلك كعمر بن الخطاب ﷺ فإنه قد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: ((**إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر**))[1].

وقال ﷺ : ((**إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه**))[2].

وفي الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال : ((**لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر**))[3] وكان عمر بهذا يعلم أن ما يأتي النبي ﷺ من الوحي والملائكة وما يخبر به من الغيب وما يأمر به وينهى عنه أمر زائد على قدره ومجاوز لطاقته بل يجد بينه وبين ذلك من التفاوت ما يعجز القلب واللسان عن معرفته وتبيانه بل كان عمر بما حصل له من المكاشفة[4] والمخاطبة يعلم أن أبا بكر الصديق ﷺ أكمل

---

[1] أخرجه مسلم ١١٥/٧ عن عائشة رضي الله عنها .

[2] رواه أحمد ٥٣/٢، والترمذي برقم ٢٦٨٣، وبن حبان برقم ٦٨٩٥، والطبراني في الأوسط برقم ٢٩١، والبغوي برقم ٣٨٧٥ عن ابن عمر رضي الله عنهما وإسناده صحيح.

[3] رواه أحمد ١٥٤/٤، والترمذي برقم ٣٦٨٦، والحاكم ٥٨/٣ عن عقبة بن عامر وإسناده صحيح .

[4] الكشف من المصطلحات الصوفية وهو يعني عندهم الإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً انظر التعريفات ص ٢٣٥ .

منه معرفة ويقيناً وأتم صدقاً وأخلاقاً وأعلم منه بقـــدر الرســـول ﷺ فكـــان خضوع عمر هذا الذي هو أفضل الأولياء المحدثين الملهمين المخاطبين لأبي بكر الصديق كخضوع من رأى غيره مـــن مشاركيه في فنه أكمل منه ، كخضوع الأخفش[1] لسيبويه[2] وزفر[3] لأبي حنيفة وابن وهب[4]لمالك ونحو ذلـــك ، أو خضوع فقهاء المدينة لسعيد بن المسيب[5] وعلمـــاء البصرة للحسن البصري[6] وفقهاء مكة لعطاء بن أبي رباح[7].

وإذا كان هذا مثل عمر مع أبي بكر لأن أبا بكر صديق يأخذ مـا يـأخذه عن الرسول المعصوم ﷺ الذي قد عصم أن يستقر فيما جاء به خطأ ، فـــهو لخبرته بحال صديق النبي بهذه المثابة ، وكل من كان عالماً بالصحابة يعلـــم أن

---

[1] الأخفش هو على بن سليمان الأخفش النحوي أبو الحسن ، وكان يضجر كثيراً إذا سئل عن شيء من النحو توفي سنة ٣١٥هـــ ، انظر الفهرس ص ١١١.

[2] تقدمت ترجمته انظر ص ٢٠٠.

[3] زفر هو أبو الهذيل زفر بن الهذيل بن قيس من بني عنبر ، مات بالبصرة ١٥٨هـــ بعد أبي حنيفة انظر الفهرست لابن النديم ص ٢٥٢.

[4] هو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري المصري توفي سنة ١٩٧هـــ ، انظر السير ٢٢٣/٩، والميزان ٥٢١/٢ ، والدول ١٢٤/١ .

[5] سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي الإمام العلم عالم المدينة ، توفي سنة ٩٤هـــ ، انظر السير ٢١٧/٤، والعبر ٨٢/١، والشذرات ١٠٢/١، والنهاية ١٠٥/٩ .

[6] هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري أبو سعيد العابد الزاهد ، توفي سنة ١١٠، انظر السير ٥٦٣/٤، والعبر ١٠٣/١، والنهاية ٢٧٨/٩ .

[7] هو عطاء بن أبي رباح شيخ الإسلام القرشي المدني ، توفي سنة ١١٤هـــ ، انظـــر السير ٧٨/٥ ، والتهذيب ١٩٩/٧، والميزان ٧٠/٣ .

عمر ﷺ كان متأدباً معظماً بقلبه لأبي بكر ﷺ مشاهداً أنه أعلى منه إيماناً ويقيناً فكيف يكون حال عمر وغيره مع النبي ﷺ .

وإذا كان هذا حال أفضل المحدثين المخاطبين فكيف حال سائرهم ، ولا ريب أن الرجل كلما عظمت ولايته وعظم نصيبه من انكشاف الحقائق له كان تعظيمه للنبوة أعظم، والناس في هذه الطريق متفاوتون بحسب درجاتهم لكن طريق الصوفية لا ينهض بانكشاف جميع ما جاء به الرسول ﷺ بل ولا بأكثره ، بل عامة ما يخبر به الرسول ﷺ لا يمكن أبو بكر وعمر فضلاً عن غيرهما أن يعلمه بدون خبره ، وإن كان عند المخبرين علم بجمل ذلك أو أصله لكن ما يخبر به من التفصيل لا يعلم بدون خبره أصلاً وما يوجد في كلام أبي حامد وغيره من أن الكشف يحصل ذلك ، وقول القائل أن الأولياء شاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ليس بسديد ، بل لا يزال الأولياء مع الأنبياء في إيمان بالغيب ولا يتصور أن الولي يعطى ما أعطيه النبي من المشاهدة والمخالطبة ، وأفضل الأولياء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم .

وليس في هؤلاء من شاهد ما شاهده النبي ﷺ ليلة المعراج ولا شاهد الملائكة الذين كانوا ينزلون بالوحي على النبي ﷺ ولا سمع أحد منهم كلام الله الذي كلم به نبيه ليلة المعراج ولا سمع عامة الأنبياء فضلاً عن الأولياء كلام الله كما سمعه موسى بن عمران عليه السلام ، ولا كلم الله تكليماً ، لداود وسليمان بل ولا إبراهيم ولا عيسى فضلاً عن أن يكون يحصل لأحد من الأولياء ، والإيمان بكل ما جاء به الأنبياء واجب فإنهم معصومون ولا يجب الإيمان بكل ما يقوله الولي بل ولا يجوز فإنه ما من أحد من الناس إلا يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ [1]، ومن سب نبياً من الأنبياء قتل وكان

---

[1] انظر تأصيل هذه القاعدة في " إيقاظ همم أولي الأبصار للفلاني " .

كافراً مرتداً بخلاف الولي[1] قال تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦] وقال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾ [البقرة:٢٨٥] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحج:٥٢] .

فإن قيل ففي قراءة ابن عباس " ولا محدث " قيل: هذه القراءة ليست متواترة ولا معلومة الصحة ، ولا يجوز الاحتجاج بها في أصول الدين ،وإن كانت صحيحة فالمعنى أن المحدث كان فيمن كان قبلنا ، وكانوا يحتاجون إليه وكان ينسخ ما يلقيه الشيطان إليه كذلك وأمة محمد ﷺ لا تحتاج إلى غير محمد ﷺ .

ولهذا كانت الأمم قبلنا لا يكفيهم نبي واحد بل يحيلهم هذا النبي في بعض الأمور على النبي الآخر وكانوا يحتاجون إلى عدد من الأنبياء ، ويحتاجون إلى المحدث ، وأمه محمد أغناهم الله بمحمد ﷺ وعن غيره من الأنبياء والرسل فكيف لا يغنيهم عن المحدث ، ولهذا قال ﷺ ((**إنه قد كان في الأمم قبلكم**

[1] انظر في ذلك كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ، والشفاء للقاضي عياض .

محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر»[1] فعلق ذلك بـ "إن" ولا يجزم به ، لأنه علم استغناء أمته عن محدث كما استغنت عن غيره من الأنبياء ، سواء كان فيها محدث أولاً أو كان ذلك لكمالها برسولها الذي هو أكمل الرسل وأجملهم وهؤلاء كبعض في أمته عن الأمم قبلهم .

وقد وقع في كلام أبي حامد وغيره نحو من هذا في مواضع أخر حتى ذكر فيما يتأول وما لا يتأول أن ذلك لا يعلم إلا بتوفيق إلاهي يشاهد به الحقائق على ما هي عليه ثم ينظر في السمع والألفاظ الواردة فيه فما وافق مشهوده أقره وما خالفه تأوله ،وذكر في موضع آخر أن الواحد من الأولياء قد يسمع كلام الله سبحانه كما سمعه موسى بن عمران وأمثال هذه الأمور ، ولهذا تبين له في آخر عمره إن طريق الصوفية لا تحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية وأخذ يشتغل بالبخاري ومسلم ،ومات في أثناء ذلك على أحسن أحواله وكان كارهاً ما وقع في كتبه من نحو هذه الأمور مما أنكره الناس عليه[2] ، حتى قال المازري وغيره ما معناه : إن كلامه يؤثر في الإيمان بالنبوة فينقص قدرها أو نحو هذا ، وكذلك ما ذكره من أن النبوة انفتاح قوة أخرى فوق العقل .

ولا ريب أن هذا مما يكون للنبي، وليست النبوة قوة تدرك بها الأمور وإنما يشبه هذا أصول الفلاسفة الذين يزعمون أن الفيض دائم من العقل الفعال وإنما يحصل في القلوب بسبب استعداد الأشخاص فأي عبد كان استعداده أتم كان الفيض عليه أتم من غير أن يكون من الملأ الأعلى سبب يخص شخصاً دون شخص بالخطاب والتكليم .

---

[1] تقدم تخريجه انظر ص٢٠١ .

[2] لمعرفة حقيقة الغزالي انظر: الغزالي بين مادحيه وقادحيه ،والسير ٣٤٦/٩، ومقارنة بين الغزالي وابن تيمية د . محمد رشاد سالم .

وليس هذا مذهب المسلمين بل ولا اليهود ولا النصارى بل هؤلاء كلهم إلا من ألحد منهم متفقون على أن الله سبحانه خصص موسى بالتكليم دون هارون وغيره ، وإنه يخص بالنبوة من يشاء من عباده لا أنه بمجرد استعداده يفيض عليه العلوم من غير تخصيص إلاهي وهنا صار الناس ثلاث أصناف: صنف يقولون ليست النبوة إلا مجرد إنباء الله تعالى للعبد وهو تعلق كلامه كما يقولون إن الأحكام الشرعية ليست إلا مجرد خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين من غير أن يكون للفعل في نفسه صفة اقتضت تخصيصه بالحكم .

وكذلك يقول هؤلاء: ليس للنبي في نفسه صفة اقتضت تخصيصه بالنبوة وهذا يقوله طوائف من متكلمة أهل الإثبات القدريين أصحاب جهم وأبي الحسن وغيرهما الذين يخالفون المعتزلة والفلاسفة فيما يقولونه في فعل الرب وحكمه إذ المتفلسفة يقولون بالطبع والعلة الموجبة والمعتزلة يقولون بالاختيار المتضمن لشريعة عقلية ألزموه بها في التعديل والتجوير ونحو ذلك والمنتسبون إلى السنة والجماعة من الكلابية[1] والأشعرية[2] والكرامية[3] وسائر المنتسبين إلى السنة والجماعة يردون عليهم الأصول التي فارقوا بها أهل السنة والجماعة بالتكذيب من القدر والصفات وتخليد أهل الكبائر كما يردون على المتفلسفة ما فارقوا به المسلمين لكن لهؤلاء في مسائل الحكمة والمصالح وتعليل الأفعال والأحكام وهل للأفعال صفات يدرك بها حسنها وقبحها؟ نزاع ليس هذا موضع تفصيله ، إنما نذكره مجملاً ، ومعلوم أن الإنباء والإرسال من باب

---

(1) تقدم تعريفها ص ٤١.

(2) انظر موقف أهل السنة من دعوى الأشاعرة أنهم هم أهل السنة كتاب وسطية أهل السنة بين الفرق تأليف د. محمد باكريم ص ٧٦-٨٩ ط دار الراية.

(3) تقدم تعريفها ص ٩٦.

كلام الله تعالى ، وكذلك الأمر والنهي هو من باب كلام الله تعالى ،والأمر متعلق بالفعل، والإرسال والإنباء متعلق بالرسول والنبي وللناس في هذا وهذا ثلاثة أقوال :

[أقوال الناس في الإنباء والإرسال]

(أحدها) أنه ليس ذلك إلا مجرد كلام الله تعالى المتعلق بذلك ، أو تعلق الخطاب بذلك وهو من الصفات النسبية الإضافية عندهم قالوا لأنه ليس لمتعلق القول من القول صفة ثبوتية وهذا قول هؤلاء .

و(القول الثاني) أن ذلك يعود إلى صفة قائمة بالنبي وبالفعل .

و(القول الثالث) أن ذلك يتضمن الأمرين فالحكم الشرعي يتضمن خطاب الشارع وصفة قائمة بالفعل والنبوة تتضمن خطاب الرب لتضمن صفة قائمة بالنبي أيضاً ، وهذا معنى قول السلف والأئمة وجمهور المسلمين والفلاسفة والمعتزلة أيضاً يثبتون فيه أيضاً حسن الفعل وقبحه إلى صفة فيه توجب الحمد والذم ، وخطاب الشارع كاشف لها لا مثبت لها والمتفلسفة عندهم يعود ذلك إلى صفة في الفعل توجب كمال النفس أو نقصها ولذلك يقولون إن النبوة هي كمال للنفس الناطقة تستعد به لأن تفيض عليها المعارف من العقل الفعال من غير أن يكون هناك خطاب حقيقي لله تعالى ، ولكن كلام الله سبحانه عندهم ما يحدث في نفس النبي من أصوات يسمعها في نفسه لا خارجاً عن نفسه والملائكة عبارة عن أشكال نورانية يراها تكون في نفسه لا خارجاً عن نفسه كما يرى النائم في منامه صوراً يخاطبها وكلاماً يسمعه وذلك في نفسه ، ولهذا جعل أبو حامد هذا طريقاً لهم في إثبات النبوة كما سلك ابن سينا وغيره ولاريب أن كل ما يقر به من مقر من الحق فإن أهل الإيمان يقرون به لكن يعلمون أشياء فوق ذلك لا يعلمها أهل الباطل فما علمته المتفلسفة من هذه الأمور لا ينكرها أهل الإيمان لكن ينكرون عليهم اقتصارهم في التصديق عليها .

[مذهب الفلاسفة في كلام الله تعالى]

وقد بسطت الكلام على هذه المسألة في جواب المسألة الخراسانية التي سئلت فيها عن ما يتعلق بالقرآن العظيم وكلام الله سبحانه وتعالى وذكرت مراتب تكليم الله تعالى لخلقه ، وأنها درجات وأن المتفلسفة أقروا ببعض الدرجات دون بعض بل لعلهم لم يتجاوزوا أدنى الدرجات وهي درجات الإلهام وما يناسبه وما أعطوا هذه الدرجة حقها ، وأما المعتزلة فهم خير منهم فإنهم يقرون بما أخبر به القرآن عن أصناف الملائكة وأوصافهم لكنهم مع هذا لا يقرون بأن لله كلاماً قائماً به فحقيقة مذهبهم أن الله سبحانه لا يتكلم إنما يخلق كلاماً في غيره ولما ابتدعت الجهمية هذه المقالة كانوا يقولون إن الله تعالى لا يتكلم أو يتكلم مجازاً .

[أقوال المعتزلة في كلام الله]

لكن المعتزلة امتنعت من هذا الإطلاق وقالوا إنه متكلم أو يتكلم حقيقة لكنهم فسروا ذلك بأنه خلق كلاماً في غيره فلم ينازعوا قدماء الجهمية في حقيقة المذهب وإنما نازعوهم في اللفظ .

[الرد على المعتزلة]

والسلف والأئمة لما عرفوا حقيقة مذهبهم عرفوا أن هذا كفر وأن هذا في الحقيقة تعطيل للرسالة وأنه يمتنع أن يكون متكلم بكلام لا يقوم به بل بغيره ، كما يمتنع أن يكون عالماً بعلم لا يقوم به بل بغيره ، وأن يكون قادراً بقدرة لا تقوم به بل بغيره ، وأنه لو كان كذلك لكان ما يخلقه من الكلام في مخلوقاته كلاماً له .

وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت:٢١] ، وقال عز وجل ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس:٦٥] ، بل لما ثبت أن الله خالق كل شيء فيجب أن يكون على قولهم

كل كلام في الوجود كلامه وقد أفصح بذلك الاتحادية الذين يقولون: الوجود واحد كابن عربي صاحب الفصوص ونحوه وقالوا :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

ومذهبهم منتهى مذهب الجهمية وهو في الحقيقة تعطيل الخالق والقول بأن هذا الوجود هو الوجود الواجب كما ذكر ذلك أبو حامد عن دهرية الفلاسفة فإن قول هؤلاء هو قول أولئك وهو قول فرعون الذي أظهره ، لكن فرعون وغيره من الدهرية لا يقولون هذا الوجود هو الله ، وهؤلاء بجهلهم يقولون إن الوجود هو الله ،وقد أضلوا طوائف من الشيوخ الذين لهم عبادة وزهادة حتى أنه كان في بيت المقدس رجل من أعبد الناس وأزهدهم وكان طوال ليله يقول الوجود واحد وهو الله ولا أرى الواحد ولا أرى الله ، وهؤلاء سلكوا في كثير من أصولهم ما ذكره أبو حامد الغزالي وبنوا على ما في كتابه المضنون به وغيره من أصول الفلاسفة المكسوة عبادة الصوفية فالأمور التي أنكرها عليه علماء المسلمين ما عليها هؤلاء حتى جعل ابن سبعين الناس خمس طبقات أدناها الفقيه ثم المتكلم ثم الأشعري ثم الفيلسوف ثم الصوفي ثم الخامس هو المحقق ، وهؤلاء يجعلون ما أشار إليه أبو حامد من الكشف هو ما حصل لهم وإنه لتعبده بالشريعة لم يصل إلى القول بوحدة الوجود ، وهم ينتقصونه بما يحمده عليه المسلمون من الأقوال التي اعتصم فيها بالكتاب والسنة وبالأقوال التي يعلم صحتها بصريح العقل ، ويرون أن ذلك هو الذي حجبه عن أن يشهد حقيقتهم التي هي وحدة الوجود ، وإنما طمعوا فيه هذا الطمع لما وجدوه في الكلام المضاف إليه مما يوافق أصول الجهمية المتفلسفة ونحوهم .

(والمقصود هنا) أن المعتزلة خير من المتفلسفة حيث يثبتون لله كلاماً منفصلاً ويقولون إن الرسالة والنبوة تتضمن نزول كلام الله تعالى منفصلاً عن

النبي ﷺ ينزل عليه كما يقول سائر المسلمين ، ثم قد يقول من يقول من المعتزلة أن النبوة جزاء على عمل متقدم وأن النبي لما قام بواجبات عقلية أكرمه الله تعالى عليها بالنبوة مع كون النبي متميزاً بصفات خصه الله تعالى بها وهذا القول موافق في الجملة قول أكثر الناس وهو أن النبوة والرسالة تتضمن كلام الله سبحانه الذي ينزل على رسوله ونبيه وأنه مع ذلك مختص بصفات اختصه الله تعالى بها دون غيره من الأنبياء وأنه لا يكون النبي والرسول كسائر الناس في العقل والخلق وغير ذلك ، بل هو متميز عن الناس بذلك والنبوة فضل الله يؤتيه من يشاء لكن مع ذلك الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وما ذكره أبو حامد فيه من تقرير النبوة في الجملة على الأصول التي يسلمها المتفلسفة ويعرفونها ما ينتفع به من كان متفلسفاً محضاً فإن ذلك يوجب أن يدخل في الإسلام نوع دخول وكلام أبي حامد في هذا ونحوه يصلح أن يكون برزخاً بين المتفلسفة وبين أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ،فالمتفلسفة تنتفع به حيث يصير عندهم من الإيمان والعلم ما لا يحصل لهم بمجرد الفلسفة .

وأما من كان مسلماً يريد أن يستكمل العلم والإيمان فإن ذلك يضره من وجه ويرده عن كثير من كمال الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وإن كان ينفعه من حيث يحول بينه وبين الفلسفة المحضة إلا أن يكون حسن الظن بالفلسفة دون أصول الإسلام فإنه يخرجه إلى الإلحاد المحض كما أصاب ابن عربي الطائي وابن سبعين وأمثالهما وقد أخبر هو بما حصل له من السفسطة وأنه انحصرت فرق الطالبين عنده في أربع فرق: المتكلمين والباطنية والفلاسفة والصوفية .

ومعلوم أن هذه الفرق كلها حادثة بعد عصر الصحابة بل وبعد عصر التابعين بل إنما ظهرت وانتشرت بعد القرون الثلاثة الصحابة والتابعين

وتابعيهم ، ثم الفلاسفة والباطنية هم كفار كفرهم ظاهر عند المسلمين كما ذكر هو وغيره ، وكفرهم ظاهر عند أقل من له علم وإيمان من المسلمين إذا عرفوا حقيقة قولهم لكن لا يعرف كفرهم من لم يعرف حقيقة قولهم ، وقد يكون قد تشبث ببعض أقوالهم من لم يعلم أنه كفر فيكون معذوراً لجهله ولكن في المتكلمين والصوفية ممن له علم وإيمان طوائف كثيرون بل فيمن بعد الصوفية مثل الفضيل بن عياض[1] وأبي سليمان الداراني[2] وإبراهيم بن أدهم[3] ومعروف الكرخي[4] وأمثالهم ممن هو من خيار المسلمين وساداتهم عند المسلمين وفي عصرهم حدث اسم الصوفية وظهر الكلام أيضاً .

[فضل الصحابة]

وكلام سلف الأمة والأئمة في ذم البدع الكلامية في العلم والبدع المحدثة في طريقة الزهد والعبادة مشهور كثير مستفيض و لم يتنازع أهل العلم والإيمان فيما استفاض عن النبي ﷺ من قوله ((**خير القرون قرني الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**))[5] وكل من له لسان صدق من مشهور بعلم أو دين معترف بأن خير هذه الأمة هم الصحابة وأن المتبع لهم أفضل من غير المتبع لهم ولم يكن في زمنهم أحد من هذه الصنوف الأربعة ولا تجد إماماً في العلم

---

(1) تقدمت ترجمته انظر ص٦١ .

(2) هو أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد الزاهد العابد توفي سنة ٢٠٥هـ انظر السير ١٨٢/١٠، والعبر ٢٧٢/١، والشذرات ١٣/٢ .

(3) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد التيمي العجلي توفي سنة ١٦٢هـ انظر السير ٤٢٢/٧، والنهاية ١٣٨/١، والعبر ١٨٣/١ .

(4) هو أبو محفوظ معروف الكرخي الزاهد العابد الأواب انظر ترجمته السير ٣٣٩/٩-٣٤٥ .

(5) رواه البخاري برقم ٣٦٥٠ عن عمران بن حصين والحديث له روايات متعددة .

والدين كمالك والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ومثل الفضيل بن عياض وأبي سليمان ومعروف الكرخي وأمثالهم إلا وهم مصرحون بأن أفضل علمهم ما كانوا فيه مقتدين فيه بعلم الصحابة وهم يرون أن الصحابة فوقهم في جميع أبواب الفضل والمناقب ، والذين اتبعوهم من أهل الآثار النبوية وهم أهل الحديث والسنة العالمون بطريقهم المتبعون لها وهم أهل العلم بالكتاب والسنة في كل عصر ومصر [١].

[بعد أبي حامد عن منهج الصحابة]

فهؤلاء الذين هم أفضل الخلق من الأولين والآخرين لم يذكرهم أبو حامد وذلك لأن هؤلاء لا يعرف طريقهم إلا من كان خبيراً بمعاني القرآن خبيراً بسنة رسول الله ﷺ خبيراً بآثار الصحابة فقيهاً في ذلك عاملاً بذلك وهؤلاء هم أفضل الخلق من المنتسبين إلى العلم والعبادة وأبو حامد لم ينشأ بين من كان يعرف طريقة هؤلاء ولا تلقى عن هذه الطبقة ولا كان خبيراً بطريقة الصحابة والتابعين بل كان يقول عن نفسه أنه مزجي البضاعة في الحديث ولهذا يوجد في كتبه من الأحاديث الموضوعة والحكايات الموضوعة ما لا يعتمد عليه من له علم بالآثار[٢] ولكن نفعه الله تعالى بما وجده في كتب الصوفية والفقهاء من ذلك كتاب أبي طالب[٣] ورسالة القشيري[٤] وغير ذلك وبما وجده في كتب أصحاب الشافعي ونحو ذلك فخيار ما يأتي به ما يأخذ من هؤلاء وهؤلاء .

---

[١] انظر لتقرير هذه الحقيقة كتاب أيقاظ همم أولى الأبصار للفلاني .

[٢] انظر على سبيل المثال كتاب إحياء علوم الدين ، ففيه من الحكايات الباطلة ما يندى له الجبين .

[٣] وهو كتاب قوت القلوب وفيه ما يمرض القلوب فيتنبه لذلك .

[٤] وهي الرسالة القشيرية وقد رد عليه ابن تيمية في كتابه العظيم الاستقامة .

ومعلوم أن طريقة أئمة الصوفية وأئمة الفقهاء أكمل من طريقة أبي القاسم القشيري ومن طريقة أبي طالب والحارث ومن طريقة أبي المعالي وأمثاله وأولئك الأئمة كانوا أعلم بطريقة الصحابة واتبع لها من اتباعهم فالقاضي أبو بكر الباقلاني[1] وأمثاله أعلم بالأصول والسنة واتبع لها من أبي المعالي[2] وأمثاله والأشعري والقلانسي ونحوهما أعلى طبقة في ذلك من القاضي أبي بكر وعبد الله بن سعيد بن كلاب ، والحارث المحاسبي أعلى طبقة في ذلك من هؤلاء ومالك والأوزاعي وحماد بن زيد والليث بن سعد وأمثالهم أعلى طبقة من هؤلاء ،والتابعون أعلى من هؤلاء ، والصحابة أعلى من التابعين .

وكذلك أبو طالب المكي يأخذ عن شيخه ابن سالم وابن سالم يأخذ عن سهل بن عبد الله التستري وسهل أعلى درجة عند الناس من أبي طالب ثم الفضل وأبو سليمان وأمثالهما أعلى درجة من سهل وأمثاله ، وأيوب السختياني[3] وعبد الله بن عون[4] ويونس بن عبيد[5] وغيرهم من أصحاب الحسن أعلى طبقة من هؤلاء، وأويس القرني[6] وعامر بن عبد قيس وأبو مسلم

---

[1] تقدمت ترجمته انظر ص .

[2] تقدمت ترجمته انظر ص .

[3] هو الإمام الحافظ أبو بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني توفي سنة ١٢١هـ ، انظر العبر ١٣٢/١، والسير ١٥/٦، والشذرات١٨١/١ .

[4] هو الحافظ عبد الله بن عون بن أرطبان المزني البصري أبو عون توفي سنة ١٥١هـ ، انظر النهاية ١١٢/١٠، والسير ٣٦٤/٦ .

[5] هو يونس بن عبيد الإمام القدوة من صغار التابعين وفضلائهم توفي ١٣٩هـ انظر السير ٢٨٨/٦، والتاريخ الصغير ٤٩/٢، والنهاية ٧٧/١٠ .

[6] هو أويس بن عامر المرادي القرني توفي سنة ٣٧هـ انظر السير ١٩/٤، والإصابة ١١٨/١،والشذرات ٤٦/١ .

الخولاني[1] وأمثالهم أعلى طبقة من هؤلاء ، وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي وأبو الدرداء وأمثالهم أعلى طبقة من هؤلاء .

[التمسك بالسنة نجاة]

ومعلوم أن كل من سلك إلى الله جل وعز علماً وعملاً بطريق ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها فلابد أن يقع في بدعة قولية أو عملية[2] فإن السائر إذا سار على غير الطريق المهيأ فلابد أن يسلك بينات الطريق وإن كان ما يفعله الرجل من ذلك قد يكون مجتهداً فيه مخطئاً مغفوراً له خطؤه وقد يكون ذنباً وقد يكون فسقاً وقد يكون كفراً بخلاف الطريقة المشروعة في العلم والعمل فإنها أقوم الطرق ليس فيها عوج كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] ، وقال عبد الله بن مسعود : خط رسول الله ﷺ خطاً وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال « **هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعوا إليه** ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٥٣] »[3] وقال الزهري كان من مضى من علمائنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة ولهذا قيل « **مثل السنة مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق** »[4] وهو يروى عن مالك .

ومن سلك الطرق الشرعية النبوية لم يحتج في إثباتها إلى أن يشك في إيمانه

---

[1] هو أبو مسلم الخولاني سيد التابعين واسمه على الصحيح عبد الله بن ثوب توفي سنة ٦٢هـ انظر السير ٧/٤، والعبر ٤٩/١ .

[2] انظر تصديقاً لذلك كتاب الفرق بين الفرق، وكتاب الملل والنحل لترى عجباً .

[3] أخرجه الحاكم (٢٦١/٢) .

[4] انظر سنن الدارمي برقم ٩٦ .

ومن سلك الطريق الشرعية النبوية لم يحتج في إثباتها إلى أن يشك في إيمانه الذي كان عليه قبل البلوغ ثم يحدث نظراً يعلم به وجود الصانع ولم يحتج إلى أن يبقى شاكاً مرتاباً في كل شيء وإنما كان مثل هذا يعرض للجهم بن صفوان وأمثاله فإنهم ذكروا أنه بقى أربعين يوماً لا يصلي حتى يثبت أن له رباً يعبده[1] ، فهذه الحالة كثيراً ما تعرض للجهمية وأهل الكلام الذين ذمهم السلف والأئمة وأما المؤمن المحض فيعرض له الوسواس فتعرض له الشكوك والشبهات وهو يدفعها عن قلبه، فإن هذا لابد منه كما ثبت في الصحيح أن الصحابة قالوا يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به فقال ((**أفقد وجدتموه ؟**)) **قالوا نعم ، قال** ((**ذلك صريح الإيمان**))[2].

وفي السنن من وجه آخر أنهم قالوا ((إن أحدنا ليجد في نفسه ما يتعاظم أن يتكلم به فقال ((**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**))[3].

قال غير واحد من العلماء معناه أن ما تجدونه في قلوبكم من كراهة الوساوس والنفرة عنه وبغضه ودفعه هو صريح الإيمان .

وهذا من الزبد الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد:١٧] . وهذا مذكور في غير هذا الموضع وكلام السلف والأئمة فيما أحدث من الكلام وما أحدث من الزهد مبسوط في غير هذا الموضع .

---

(١) انظر الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد ص٣، وخلق أفعال العباد للبخاري ص ١٦، انظر تبيين كذب المفتري لابن عساكر ٣٩ .

(٢) رواه مسلم برقم ١٣٢، وأحمد ٢/٣٩٦-٤٤١ ، ورواه أبو داود برقم ؟ عن أبي هريرة .

(٣) رواه أحمد ١/٣٤٠ .

والمقصود هنا أن يعرف مراتب الناس في العلم بالنبوة ومعرفة قدرها وتعدد الطرق في ذلك وأن عامة الطرق التي سلكها الناس في ذلك هي طرق مفيدة نافعة لكن تختلف مقادير فوائدها ومنافعها ، وفيها ما يضر من وجه كما ينفع من وجه ، وفيها ما ينتفع به من كان عديم الإيمان أو ضعيف الإيمان فيحصل به له بعض الإيمان ويقوى إيمانه، وإن كان ذلك يضر من كان قوي الإيمان ويكون رجوعه إليه ردة في حقه بمنزلة من كان معتصماً بحبل قوي وعروة وثقى لا انفصام لها فاعتاض عن ذلك بحبل ضعيف يكاد ينقطع به وهذا باب يطول وصف حال الناس فيه .

[تعدد طرق العلم بالنبوة]

وأما ما ذكره أبو حامد من أن هذه الطريقة التي سلكها تفيد العلم الضروري بالنبوة دون طريقة المعجزات فالإنسان خبير بما حصل له من العلم الضروري وغيره ليس هو خبير بما حصل لغيره من ذلك وكثير من أهل النظر والكلام يقولون نقيض هذا ، يقولون لا يحصل العلم بالنبوة إلا بطريقة المعجزات دون غيرها كما قال أكثر أهل الكلام ومن اتبعهم كالقاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى وأبي المعالي والمازري وأمثال هؤلاء، والتحقيق ما عليه أكثر الناس أن العلم بالنبوة يحصل بطرق متعددة : المعجزات وغير المعجزات ويحصل له العلم الضروري بها كما ذكره أبو حامد بل يحصل له العلم الضروري بالنبوة على الجمل كما ذكره، وعامة من حصر العلم بهذا أو غيره في طريق معينة وزعم أنه لا يحصل بغيرها فإنه يكون مخطئاً وهذا كثير ما سلكه كثير من أهل الكلام في إثبات العلم بالصانع أو إثبات حدوث العالم أو إثبات التوحيد أو العلم بالنبوة أو غير ذلك يسلك أحدهم طريقاً يزعم أنه لا يحصل العلم إلا به ، وقد يكون طريقاً فاسداً وربما قدح خصومه في طريقه الصحيحة وادعوا أنها فاسدة .

وكثيراً ما يكون سبب العلم الحاصل في القلب غير الحجة الجدلية التي يناظر بها غيره فإن الإنسان يحصل له العلم بكثير من المعلومات بطريق وأسباب قد لا يستحضرها ولا يحصيها ولو استحضرها لا توافقه عبارته على بيانها ومع هذا فإذا طلب منه بيان الدليل الدال على ذلك قد لا يعلم دليلاً يدل به غيره إذا لم يكن ذلك الغير شاركه في سبب العلم ، وقد لا يمكنه التعبير عن الدليل إذا تصوره ، فالدليل الذي يعلم به المناظر شيء والحجة التي يحتج بها المناظر شيء آخر وكثيراً ما يتفقان كما يفترقان .

وليس هذا موضع بسط ذلك ، وإنما المقصود التنبيه على تعدد طرق العلم بالنبوة ، وغيرها وكلام أكثر الناس في هذا الباب ونحوه على درجات متفاوتة فيحمد كلام الرجل بالنسبة إلى من دونه ،وإن كان مذموماً بالنسبة إلى من فوقه إذ الإيمان يتفاضل[1]، وكل له من الإيمان بقدر ما حصل له منه .

[بيان أشياء مهمة انكرت على الغزالي في مصنفاته]

ولهذا كان أبو حامد مع ما يوجد في كلامه من الرد على الفلاسفة وتكفيره لهم، وتعظيم النبوة وغير ذلك ومع ما يوجد فيه أشياء صحيحة حسنة بل عظيمة القدر نافعة يوجد في بعض كلامه مادة فلسفية وأمور أضيفت إليه توافق أصول الفلاسفة الفاسدة المخالفة للنبوة بل المخالفة لصريح العقل حتى تكلم فيه جماعات من علماء خراسان والعراق والمغرب كرفيقه أبي إسحاق المرغيناني وأبي الوفاء ابن عقيل[2]والقشيري والطرطوشي[3]وابن

---

(1) وعليه ترجم الإمام البخاري باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال باب رقم ١٥ من كتاب الإيمان انظر كتاب زيادة الإيمان ونقصانه ص ٢٩-٣٠ .

(2) تقدمت ترجمته انظر ص١٢٧ .

(3) هو أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الأندلسي توفي سنة ٥٢٠، انظر السير ٤١٤/٢، والشذرات ٦٢/٤، والسير ٤٩٠/١٩.

رشد[1] والمازري وجماعات من الأولين حتى ذكر ذلك الشيخ أبو عمرو بن الصلاح[2] فيما جمعه من طبقات أصحاب الشافعي وقرره الشيخ أبو زكريا النووي[3] قال في هذا الكتاب فصل في بيان أشياء مهمة أنكرت على الإمام الغزالي في مصنفاته و لم يرتضيها أهل مذهبه وغيرهم من الشذوذ في تصرفاته ، منها قوله في مقدمة المنطق في أول المستصفى[4] " هذه مقدمة العلوم كلها ومن لا يحيط فلا ثقة له بعلومه أصلاً " .

قال الشيخ أبو عمرو : وسمعت الشيخ العماد بن يونس يحكي عن يوسف الدمشقي مدرس النظامية ببغداد وكان من النظار المعروفين أنه كان ينكر هذا الكلام ويقول : فأبو بكر وعمر وفلان وفلان يعني أن أولئك السادة عظمت حظوظهم من الثلج واليقين و لم يحيطوا بهذه المقدمة وأسبابها ، قال الشيخ أبو عمرو : قد ذكرت بهذا ماحكى صاحب كتاب الإمتاع والمؤانسة يعني أبا حيان التوحيدي أن الوزير ابن الفرات احتفل بمجلسه ببغداد بأصناف من الفضلاء من المتكلمين وغيرهم وفي المجلس متى الفليسوف النصراني فقال الوزير أريد أن ينتدب منكم إنسان لمناظرة متى في قوله : إنه لا سبل إلى معرفة الحق من الباطل والحجة من الشبهة والشك من اليقين إلا بما حويناه من المنطق

---

[1] هو أبو الوليد ابن رشد محمد بن أحمد، برع في الطب والفقه والفلسفة ، توفي سنة ٥٩٥هـ انظر السير ٥٠١/١٩، والعبر ١١/٣، والشذرات ٣٢٠/٤ .

[2] هو تقي الدين ابن الصلاح أبو عمرو ابن عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي توفي سنة ٦٤٣هـ ، انظر السير ١٤٠/٢٣، والنهاية ١٧٩/١٣، والعبر ٢٤٦/٣ .

[3] هو أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن الشافعي توفي سنة ٦٧٦هـ ، انظر العبر ٣٣٤/٣، والشذرات ٣٥٤/٥، والنهاية ٢٩٤/١٣ .

[4] كتاب في أصول الفقه للغزالي .

واستفدناه من واضعه على مراتبه فانتدب له أبو سعيد السيرافي وكان فاضلاً في علوم غير النجوم وكلمه في ذلك حتى أفحمه وفضحه قال أبو محمد : وليس هذا موضع التطويل بذكره .

قال الشيخ أبو عمرو : وغير خاف استغناء العقلاء والعلماء قبل واضع المنطق أرسطاطاليس وبعده عن معارفهم الجمة عن تعلم المنطق ، وإنما المنطق عندهم بزعمهم آلة قانونية صناعية تعصم الذهن من الخطأ وكل ذي ذهن صحيح منطقي بالطبع قال : فكيف غفل الغزالي عن حال شيخه إمام الحرمين ومن قبله من كل إمام هو له مقدم ولمحله في تحقيق الحقائق رافع معظم ثم لم يرفع أحد منهم بالمنطق رأساً ولا بنى عليه في شيء من تصرفاته أساً .

ولقد أتى بخلطه المنطق بأصول الفقه بدعة عظم شؤمها على المتفقهة حتى كثر فيهم المتفلسفة، والله المستعان .

قال : ولأبي عبد الله المازري الفقيه المتكلم الأصولي وكان إماماً محققاً بارعاً في مذهبي مالك والأشعري وله تصانيف في فنون منها شرح الإرشاد والبرهان لإمام الحرمين ورسالة يذكر فيها حال الغزالي وحال كتابه الإحياء أصدرها في حال حيدة الغزالي جواباً لما كوتب به من الغرب والشرق في سؤاله عن ذلك عند اختلافهم في ذلك فذكر فيها ما اختصاره أن الغزالي كان قد خاض في علوم وصنف فيها واشتهر بالإمامة في إقليمه حتى تضاءل له المنازعون واستبحر في الفقه وفي أصول الدين وهو بالفقه أعرف .

وأما أصول الدين فليس بالمستبحر فيها شغله عن ذلك قراءته في علوم الفلسفة وأكسبته قراءة الفلسفة جراءة على المعاني وتسهيلاً للهجوم على الحقائق لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها وليس لها شرع يزغها ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها فلذلك خامره ضرب من الإدلال على المعاني فاسترسل فيها استرسال من لا يبالي بغيره .

قال : وقد عرفني بعض أصحابه أنه كان له عكوف على قــراءة رســائل إخوان الصفا ، وهذه الرسائل هي إحدى وخمسون ، كل رســالة مســتقلة بنفسها وقد ظن في مؤلفها ظنون ،وفي الجملة هو ــ يعني واضع الرســائل ــ رجل فليسوف قد خاض في علوم الشرع فمزج ما بين العلمــين وحسـن الفلسفة في قلوب أهل الشرع بآيات وأحاديث يذكرها عندها .

ثم إنه كان في هذا الزمان المتأخر فليسوف يعرف بابن سينا مــلأ الدنيـا تآليف في علوم الفلسفة وكان ينتمي إلى الشرع ويتحلى بحلية المسلمين وأدته قوته في علم الفلسفة إلى أن تلطف جهده في رد أصــول العقــائد إلى علـم الفلسفة وتم له من ذلك ما لم يتم لغيره من الفلاسفة .

قال : ووجدت هذا الغزالي يعول عليه في أكثر ما يشير إليــه في علــوم الفلسفة حتى إنه في بعض الأحايين ينقل نص كلامه من غير تغيــير وأحيانـاً يغيره وينقله إلى الشرعيات أكثر مما ينقل ابن سينا لكون أعلم باسرار الشــرع منه فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل إخوان الصفا عول الغزالي في علم الفلسفة .
قال : وأما مذهب المتصوفة فلست أدري على من عول فيها ولا من ينتسـب إليه في علمها قال : وعندي إنه على أبي حيان التوحيدي[1] الصوفي عــول في مذاهب الصوفية .

[التنبيــه على كتاب الإحياء]

وقد علمت أن أبا حيان هذا ألف ديواناً عظيماً في هذا الفن ، و لم يصــل إلينا منه شيء ثم ذكر أن في الإحياء فتاوى مبناها على ما لا حقيقة له مثل مـا استحسن في قص الأظافر أن يبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقية الأصــابع لكونها المسبحة ثم بالوسطى لأنها ناحية اليمين ثم باليسرى على هيئــة دائــرة وكن الأصابع عنده دائرة فإذا أراد أصابعه مر عليها مرور الدائرة ثم يختم بإبهام

---

[1] محمد بن حيان التوحيدي القرطبي انظر شذرات الذهب .

اليمنى هكذا حدثني به من أثق به عن الكتاب .

قال : فانظر إلى هذا كيف أفاد قراءة الهندسة وعلم الدوائر وأحكامها أن نقله إلى الشرع فأفتى به المسلمين. قال : وحمل إلى بعض الأصحاب من هذا الإملاء الجزء الأول فوجدته يذكر فيه أن من مات بعد بلوغه و لم يعلم أن الباري قديم مات مسلماً إجماعاً ومن تساهل في حكاية الإجماع في مثل هذا الذي الأقرب أن يكون فيه الإجماع بعكس ما قال فحقيق أن لا يوثق بكل ما ينقل وأن يظن به التساهل في رواية ما لم يثبت عنده صحته ، قال : ثم تكلم المازري في محاسن الإحياء ومذامه ومنافعه ومضاره بكلام طويل ختمه بأن من لم يكن عنده من البسطة في العلم ما يعتصم به من غوائل هذا الكتاب فإن قراءته لا تجوز له ، وإن كان فيه ما ينتفع به [1]، ومن كان عنده من العلم ما يأمن على نفسه من غوائل هذا الكتاب ويعلم ما فيه من الرموز فيجتنب مقتضى ظواهرها ويكل أمر مؤلفها إلى الله تعالى وإن كان كلها تقبل التأويل فقراءته له سائغة به اللهم إلا أن يكون قارئه ممن يقتدى به ويغتر به فإنه ينهى عن قراءته وعن مدحه والثناء عليه .

قال : ولولا أن علمنا أن إملاءنا هذا إنما يقرؤه الخاصة ومن عنده علم يأمن به على نفسه لم نتبع محاسن هذا الكتاب بالثناء و لم نتعرض لذكرها ولكنا نحن أمنا من التغرير ولئلا يظن أيضاً من يتعصب للرجل أنا جانبنا الإنصاف في الكلام على كتابه ويكون اعتقاده هذا فينا سبباً لئلا يقبل نصيحتنا .

---

[1] انظر أقوال أهل العلم في كتاب إحياء علوم الدين ، ورسالة إحياء علوم الدين في الميزان للشيخ علي حسن عبد الحميد الحلبي .

قال الشيخ أبو عمرو : وهذا آخر ما نقلناه عن المازري .

قلت : ما ذكره المازري في مادة أبي حامد الغزالي من الصوفية فهو كما قال المازري عن نفسه : لم يدر على من عول فيها و لم يكن للمازري من الاعتناء بكتب الصوفية وأخبارهم ومذاهبهم ماله من الاعتناء بطريقة الكلام وما يتبعه من الفلسفة ونحوها ، فلذلك لم يعرف ولم تكن مادة أبي حامد من كلام أبي حيان التوحيدي وحده بل ولا غالب كلامه منه فإن أبا حيان تغلب عليه الخطابة والفصاحة وهو مركب من فنون أدبية وفلسفية وكلامية وغير ذلك ، وإن كان قد شهد عليه بالزندقة غير واحد وقرنوه بابن الراوندي كما ذكر ذلك ابن عقيل وغيره وإنما كان غالب استمداد أبي حامد من كتاب أبي طالب المكي الذي سماه قوت القلوب، ومن كتب الحارث المحاسبي وغيرها ومن رسالة القشيري ومن منثورات وصلت إليه من كلام المشايخ وما نقله في الإحياء عن الأئمة في ذم الكلام فإنه من كتاب أبي عمر ابن عبد البر في فضل العلم[1] وأهله ، وما نقله من الأدعية والأذكار نقله من كتاب الذكر لابن خزيمة ولهذا كانت أحاديث هذا الباب جيدة وقد جالس من اتفق له من مشايخ الطرق لكنه يأخذ من كلام الصوفية في الغالب ما يتعلق بالأعمال والأخلاق والزهد والرياضة والعبادة وهي التي يسميها علوم المعاملة .

وأما التي يسميها علوم المكاشفة ويرمز إليها في الإحياء وغيره ففيها يستمد من كلام المتفلسفة وغيرهم كما في مشكاة الأنوار والمضنون به على غير أهله وغير ذلك ، وبسبب خلطه التصوف بالفلسفة كما خلط الأصول بالفلسفة صار ينسب إلى التصوف من ليس هو موافقاً للمشائخ المقبولين الذين لهم في الأمة لسان صدق رضي الله تعالى عنهم ، بل يكون مبايناً لهم في أصول الإيمان كالإيمان بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر ويجعلون هذه مذاهب

---

[1] وهو كتاب " جامع بيان العلم وفضله "

الصوفية كما يذكر ذلك ابن الطفيل صاحب رسالة حي بن يقظان وأبو الوليد ابن رشد الحفيد[1] وصاحب خلع العلم وابن العربي[2] صاحب الفتوحات وفصوص الحكم وابن سبعين[3] وأمثال هؤلاء ممن يتظاهر بمذاهب مشايخ الصوفية وأهل الطريق وهو في التحقيق منافق زنديق ينتهي إلى القول بالحلول والاتحاد واتباع القرامطة أهل الإلحاد ومذهب الإباحية الدافعين للأمر والنهي والوعد والوعيد ملاحظين لحقيقة القدر التي لا يفرق فيها بين الأنبياء والمرسلين وبين كل جبار عنيد وقائلين مع ذلك بنوع من الحقائق البدعية ، غير عارفين بالحقائق الدينية الشرعية ولا سالكين مسلك أولياء الله الذين هم بعد الأنبياء خير البرية فهم في نهاية تحقيقهم يسقطون الأمر والنهي والطاعة والعبادة مشاقين للرسول متبعين غير سبيل المؤمنين ، ويفارقون سبيل أولياء الله المتقين إلى سبيل أولياء الشياطين، ثم يقولون بالحلول والاتحاد ،وهو غاية الكفر ونهاية الإلحاد ، ولهذا في كلام العارفين كأبي القاسم الجنيد وأمثاله من بيان أن التوحيد هو إفراد الحدوث عن القدم ونحو ذلك .

ومن بيان وجوب اتباع الأمر والنهي ولزوم العبادة إلى الموت ما يبين به أن أولئك السادة المهتدين حذروا من طريق هؤلاء الملحدين ، ولهذا نجد هؤلاء كابن عربي وابن سبعين وأمثالهما يردون على مثل الجنيد وأمثاله من أئمة المشايخ ويدعون أنهم ظفروا في التحقيق بنهاية الرسوخ وإنما ظفروا بتحقيق الإلحاد، والدخول في الحلول والاتحاد ، وما زال شيوخ الصوفية المؤمنون يحذرون من مثل هؤلاء الملبسين كما حذر أئمة الفقهاء من سبيل أهل البدعة

---

[1] تقدمت ترجمته انظر ص ٢١٨.

[2] تقدمت ترجمته انظر ص ١٠١.

[3] تقدمت ترجمته انظر ص ٢٢٣.

والنفاق من أهل الفلسفة والكلام ونحوهم ، حتى ذكر ذلك أبو نعيم[1] الحافظ في أول حلية الأولياء وأبو القاسم القشيري في رسالته ، دع من هو أجل منهما وأعلم منهما بطريق الصوفية وأقل غلطاً وأبعد عن الاعتماد على المنقولات الضعيفة والمنقولات المبتدعة ، قال أبو نعيم في أول الحلية[2] :

[كلام أبي نعيم عن الصوفية في أول الحلية]

" أما بعد أحسن الله تعالى توفيقك فقد استعنت بالله عز وجل وأجبتك إلى ما أبغيت من جمع كتاب يتضمن أسامي جماعة وبعض أحاديثهم وكلامهم من أعلام المحققين من المتصوفة وأئمتهم وترتيب طبقاتهم من النساك ومحجتهم، من قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم ممن عرف الأدلة والحقائق وباشر الأحوال والطرائق وساكن الرياض والحدائق ، وفارق العوارض والعلائق وتبرأ من المنقطعين والمتعمقين ، ومن أهل الدعاوى المسوفين ومن الكسالى والمثبطين المتشبهين بهم في اللباس والمقال ،والمخالفين لهم في العقيدة والفعال وذلك لما بلغك من بسط ألسنتنا وألسنة أهل الفقه والأثر في كل الأقطار والأمصار في المنتسبين إليهم من الفسقة الفجار ،والمباحية والحلولية الكفار ، وليس ما حل بالكذبة من الوقيعة والإنكار بقادح في منقبة البررة الأخيار وواضع من درجة الصفوة الأطهار ، بل في إظهار البراءة من الكذابين ، والنكير على الحشوية البطالين نزاهة الصادقين ورفعة المحققين ، ولو لم نكشف عن مخازي المبطلين ومساويهم ديانة للزمنا إبانتها وإشاعتها حمية وصيانة إذ لأسلافنا في التصوف العلم المنشور ، والصيت والذكر المشهور فقد كان جدي رحمه الله تعالى أحد

---

[1] هو الحافظ الكبير أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني العوفي توفي سنة ٤٣٠هـ ، انظر السير ١٧/٤٥٣، والميزان ١/١١١، والعبر ٢/٢٦٢، الشذرات ٣/٢٤٥، والدول ١/٢٥٥ .

[2] انظر نقد ابن الجوزي للحلية في مقدمة كتابه صفة الصفوة .

من يسر الله تعالى به ذكر بعض المنقطعين إليه ، وكيف يستجيز نقيصة أولياء الله تعالى ومؤذيهم مؤذن بمحاربة ربه .

ثم أسند حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: « **إن الله تعالى قال من آذى لي ولياً** » **وفي الرواية الأخرى « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضه عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع، وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطيه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه »**[1].

قلت : قد ذم أهل العلم والإيمان من أئمة العلم والدين من جميع الطوائف من خرج عما جاء به الرسول ﷺ في الأقوال والأعمال باطناً أوظاهراً ومدحهم هو لمن وافق ما جاء به الرسول ﷺ ومن كان موافقاً من وجه ومخالفاً من وجه كالعاصي الذي يعلم أنه عاص فهو ممدوح من جهة موافقته، مذموم من جهة مخالفته .

[مذهب الخوارج والمعتزلة في أصحاب الكبيرة]

وهذا مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة ومن سلك سبيلهم في مسائل الأسماء والأحكام ،والخلاف فيها أول خلاف حدث في مسائل الأصول حيث كفرت الخوارج بالذنب وجعلوا صاحب الكبيرة كافراً مخلداً في النار، ووافقتهم المعتزلة على زوال جميع إيمانه وإسلامه وعلى خلوده في النار لكن نازعوهم في الاسم فلم يسموه كافراً بل قالوا هو فاسق لا مؤمن ولا كافر

(1) تقدم تخريجه ص٩١ .

تنزله منزلة بين المنزلتين، فهم وإن كانوا في الاسم إلى السنة أقرب فـــهم في الحكم في الآخر ة مع الخوارج .

وأصل هؤلاء أنهم ظنوا أن الشخص الواحد لا يكون مســتحقاً للثــواب والعقاب والوعد والوعيد والحمد والذم بل إما لهذا وإما لهذا فأحبطوا جميـــع حسناته بالكبيرة التي فعلها ، وقالوا : الإيمان هو الطاعة فيزول بزوال بعــض الطاعة ، ثم تنازعوا هل يخلفه الكفر على القولين، ووافقتهم المرجئة والجهمية على أن الإيمان يزول كله بزوال شيء منه ، وأنه لا يتبعض ولا يتفاضل فـــلا يزيد ولا ينقص وقالوا : إن إيمان الفساق كإيمان الأنبياء والمؤمنين لكن فقــهاء المرجئة قالوا إنه الاعتقاد والقول ، وقالوا إنه لا بد من أن يدخل النـــار مـــن فساق الملة من شاء الله تعالى كما قالت الجماعة فكان خلاف كثـــير مـــن كلامهم للجماعة إنما هو في الاسم لا في الحكم وقد بسطنا الكلام على ذلك في غير هذا الموضع[1] وبينا الفرق بين دلالة الاسم مفرداً ودلالته مقروناً بغيره كاسم الفقير والمسكين فإنه إذا أفرد أحدهما يتناول معنى الآخر كقوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٧٣]، فإنه يدخل فيهم المساكين وقوله تعالى : ﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾ [المائدة:٨٩]، فإنه يدخل فيهم الفقراء ، وأما إذا قرن بينهما كقوله تعـــالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة:٦٠] فهما صنفان، وكذلك قوله تعـــالى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف:١٥٧] ، يدخل في المعروف كل واجب وفي المنكر كل قبيح ، والقبائح هي السيئات وهي المحظورات كالشرك والكذب والظلم والفواحش .

---

[1] انظر كتاب الإيمان والفتاوى الكبرى ٧/٢٢٣-٧،٢٥٧/٤٠٤ ، ١٣/٤٨.

فإذا قال (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقال (وينـــهى عـــن الفحشاء والمنكر والبغي) فخص بعض أنواع المنكر بالذكر وعطف أحدهمـــا على الآخر صارت دلالة اللفظ عليه نصاً مقصوداً بطريق المطابقـــة بعـــد أن كانت بطريق العموم والتضمن سواء قيل إنه داخل في اللفظ العام أيضاً فيكون مذكوراً مرتين أو قيل إنه باقترانه بالاسم العام تبين أنه لم يدخـــل في الاســـم العام لتغيير الدلالة بالإفراد والتجرد بالافتراق والإجتماع كما قدمنا وهكـــذا اسم الإيمان فإنه تارة يذكر مفرداً مجرداً لا يقرن بالعمل الواجب فيدخل فيـــه العمل الواجب تضمناً ولزوماً ، وتارة يقرن بالعمل فيكون العمـــل حينئـــذ مذكوراً بالمطابقة والنص ولفظ الإيمان يكون مسلوب الدلالة عليـــه حـــال الاقتران أو دالاً عليه كما في قوله تعـــالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الأعراف:١٧٠] ، وقوله سبحانه لموسى عليـــه الســـلام ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طـــه:١٤] وقـــوله تعـــالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت:٤٥] ونظائر ذلك كثيرة فالأعمال داخلة في الإيمان تضمناً ولزوماً في مثل قولـــه ســـبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفـــال:٢-٤] وفي مثـــل قولـــه تعـــالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجـــرات: ١٧] ،

وقوله عز وجل ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور:٦٢] .

[مذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص]

وأمثال ذلك من الكتاب والسنة ،ومن استقرأ ذلك علم أن الاسم الشرعي كالإيمان والصلاة والوضوء والصيام لا ينفيه الشارع عن شيء إلا لانتفاء ما هو واجب فيه لا لانتفاء ما هو مستحب فيه ، وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾ [البينة:٧] ونحو ذلك فالعمل مخصوص بالذكر ، إما توكيد وإما لأن الاقتران لا يغير دلالة الاسم فهذا موقف يزول فيه كثير من النزاع اللفظي في ذلك ، وأيضاً فإن الإيمان يتنوع بتنوع ما أمر الله تعالى به العبد فحين بعث الرسول لم يكن الإيمان الواجب ولا الإقرار ولا العمل مثل الإيمان الواجب في آخر الدعوة فإنه لم يكن يجب إذ ذاك الإقرار بما أنزله الله تعالى بعد ذلك من الإيجاب والتحريم والخبر ولا العمل بموجب ذلك ، بل كان الإيمان الذي أوجبه الله تعالى يزيد شيئاً فشيئاً كما كان القرآن ينزل شيئاً فشيئاً ، والدين يظهر شيئاً فشيئاً حتى أنزل الله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، وكذلك العبد أول ما يبلغه خطاب الرسول عليه أكمل الصلاة وأكمل السلام إنما يجب عليه الشهادتان، فإذا مات قبل أن يدخل عليه وقت الصلاة لم يجب عليه شيء غير الإقرار ، ومات مؤمناً كامل الإيمان الذي وجب عليه وإن كان إيمان غيره الذي دخلت عليه الأوقات أكمل منه فهذا إيمانه ناقص كنقص دين النساء حيث قال النبي ﷺ « **إنكن ناقصات عقل ودين ، أما نقصان عقلكن فشهادة امرأتين بشهادة رجل واحد، وأما**

نقصان دينكن فإن إحداكن إذا حاضت لم تصـــل »[1] ومعلوم أن الصلاة حينئذ ليس واجبة عليها وهذا نقص لا تلام عليه المرأة ، لكن من جعل كاملاً كان أفضل منها بخلاف من نقص شيئاً مما وجب عليه فصار النقص في الدين والإيمان نوعين نوعاً لا يذم العبد عليه لكونه لم يجب عليه لعجزه عنه حساً أو شرعاً ، وإما لكونه مستحباً ليس بواجب ،ونوعاً يذم عليه وهو ترك الواجبات .

فقول النبي ﷺ لجارية معاوية بن الحكم السلمي لما قال لها: « **أيـــن الله ؟ قالت: في السماء، قال: من أنا قالت: أنت رسول الله، قال: اعتقها فإنهـــا مؤمنة**»[2]. ليس فيه حجة على أن من وجبت عليه العبادات فتركها وارتكب المحظورات يستحق الاسم المطلق كما استحقته هذه التي لم يظهر منها بعد ترك مأمـــور ولا فعل محظور ، ومن عرف هذا تبين أن قول النبي ﷺ لهـــذه إنهـــا مؤمنة لا ينافي قوله « **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن** »[3].

فإن ذلك نفي عنه الاسم لانتفاء بعض ما يجب عليه من ترك هذه الكبـــائر وتلك لم تترك واجباً تستحق بتركه أن تكون هكذا ويتبع هذا أن من آمن بما جاء به الرسل مجملاً ثم بلغه مفصلاً فأقر به مفصلاً وعمل به كان قد زاد مـــا عنده من الدين والإيمان بحسب ذلك .

ومن أذنب ثم تاب أو غفل ثم ذكر أو فرط ثم أقبل فإنه يزيد دينه وإيمـــانه

---

[1] رواه البخاري ٤٠٥/١ الفتح ، ومسلم ٦٧/٢ النووي عن أبي سعيد ﷺ .

[2] رواه مسلم برقم ٥٣٧، وأبو داود برقم ٩٣٠، والنسائي ١٤/٣، وأحمد ٤٤٧/٥ عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ .

[3] رواه البخاري برقم ٢٤٧٥، ومسلم برقم ٥٧، وأبو داود برقم ٤٦٨٩، والـــترمذي برقم ٢٦٢٥، والنسائي ٦٤/٨، وابن ماجة ٣٦٣٩ عن أبي هريرة ﷺ .

بحسب ذلك، كما قال من قال من الصحابة كعمير بن حبيب الخطمي وغيره: الإيمان يزيد وينقص ، قيل له فما زيادته ونقصانه ؟ قال إذا حمدنا الله وذكرناه وسبحناه فذلك زيادته ، وإذا غفلنا ونسينا وأضعنا فذلك نقصانه[1] فذكر زيادته بالطاعات وإن كانت مستحبة ونقصانه بما أضاعه من واجب وغيره ، وأيضاً فإن تصديق القلب يتبعه عمل القلب ، فالقلب إذا صدق بما يستحقه الله تعالى من الألوهية وما يستحقه الرسول من الرسالة تبع ذلك لا محالة محبة الله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام وتعظيم الله عز وجل ورسوله والطاعة لله تعالى ورسوله أمر لازم لهذا التصديق لا يفارقه إلا لعارض من كبر أو حسد أو نحو ذلك من الأمور التي توجب الاستكبار عن عبادة الله تعالى والبغض لرسوله عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك من الأمور التي توجب الكفر ككفر إبليس وفرعون وقومه واليهود وكفار مكة وغير هؤلاء من المعاندين والجاحدين .

ثم هؤلاء إذا لم يتبعوا التصديق بموجبه من عمل القلب واللسان وغير ذلك فإنه قد يطبع على قلوبهم حتى يزول عنها التصديق كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ [الصف:٥] ، فهؤلاء كانوا عالمين فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، وقال موسى لفرعون ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء:١٠٢] ، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر:٣٥] إلى قوله سبحانه

---

[1] رواه اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة ٥/٧٧ح ١٧٢٠، والآجري في الشريعة ص١١٢، والأثر فيه ضعف وللفائدة انظر كتاب زيادة الإيمان ص ١١٦ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر:٣٧] قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٩-١١٠] ، فبين سبحانه أن مجيء الآيات لا يوجب الإيمان بقوله تعالى ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ أي فتكون هذه الأمور الثلاثة : أن لا يؤمنوا وأن نقلب أفئدتهم وأبصارهم ، وأن نذرهم في طغيانهم يعمهون ؛ أي وما يدريكم أن الآيات إذا جاءت تحصل هذه الأمور الثلاثة ، وبهذا المعنى تبين أن قراءة الفتح أحسن وأن من قرأ " أن " المفتوحة بمعنى " لعل " فظن أن قوله ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ ﴾ كلام مبتدأ لم يفهم معنى الآية ، وإذا جعل ونقلب أفئدتهم داخلاً في خبر أن تبين معنى الآية ، فإن كثيراً من الناس يؤمنون ولا تقلب قلوبهم لكن قد يحصل تقليب أفئدتهم وأبصارهم وقد لا يحصل أي فما يدريكم أنهم لا يؤمنون ، والمراد وما يشعركم إنها إذا جاءت لا يؤمنون بل نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، والمعنى وما يدريكم أن الأمر بخلاف ما تظنونه من إيمانهم عند مجيء الآيات ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فيعاقبون على ترك الإيمان أول مرة بعد وجوبه عليهم إما لكونهم عرفوا الحق وما أقروا به أو تمكنوا من معرفته فلم يطلبوا معرفته ومثل هذا كثير .

(**والمقصود هنا**) أن ترك ما يجب من العمل بالعلم الذي هو مقتضى التصديق والعلم قد يفضي إلى سلب التصديق والعلم كما قيل : العلم يهتف بالعمل فإن

أجابه وإلا ارتحل[1].

[وجوب العمل بالعلم]

وكما قيل كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به[2] فما في القلب من التصديق بما جاء به الرسول إذا لم يتبعه موجبه ومقتضاه من العمل قد يزول إذ وجود العلة يقتضي وجود المعلول وعدم المعلول يقتضي عدم العلة فكما أن العلم والتصديق سبب للإرادة والعمل فعدم الإرادة والعمل سبب لعدم العلم والتصديق ثم إن كانت العلة تامة فعدم المعلول دليل يقتضي عدمها .

وإن كانت سبباً قد يتخلف معلولها كان له بخلفه أمارة على عدم المعلول قد يتخلف مدلولها ، وأيضاً فالتصديق الجازم في القلب يتبعه موجبه بحسب الإمكان كالإرادة الجازمة في القلب فكما إن الإرادة الجازمة في القلب إذا اقترنت بها القدرة حصل بها المراد أو المقدور من المراد لا محالة كانت القدرة حاصلة و لم يقع الفعل كان الحاصل هي لا إرادة جازمة وهذا هو الذي عُفِيَ عنه .

فكذلك التصديق الجازم إذا حصل في القلب تبعه عمل من عمل القلب لا محالة لا يتصور أن ينفك عنه بل يتبعه الممكن من عمل الجوارح فمتى لم يتبعه شيء من عمل القلب علم أنه ليس بتصديق جازم فلا يكون إيماناً لكن التصديق الجازم قد لا يتبعه عمل القلب بتمامه لعارض من الأهواء كالكبر والحسد ونحو ذلك من أهواء النفس لكن الأصل أن التصديق يتبعه الحب وإذا تخلف الحب كان لضعف التصديق الموجب له ولهذا قال الصحابة : كل من يعص الله فهو جاهل[3] وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علماً وكفى

[1] رواه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل عن علي بن أبي طالب ﷺ وابن المنكدر برقم ٤٠، ٤١ .

[2] رواه الخطيب البغدادي عن ابن مجمع برقم ١٤٩.

[3] رواه ابن جرير عن قتادة ، وأبي العالية عن أصحاب النبي ﷺ

بالاغترار جهلاً[1]، ولهذا كان التكلم بالكفر من غير إكراه كفراً في نفس الأمر عند الجماعة وأئمة الفقهاء حتى المرجئة خلافاً للجهمية ومن اتبعهم، ومن هذا الباب سب الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وبغضه وسب القرآن وبغضه وكذلك سب الله سبحانه وبغضه ونحو ذلك مما ليس من باب التصديق والحب والتعظيم والموالاة بل من باب التكذيب والبغض والمعاداة والاستخفاف .

ولما كان إيمان القلب له موجبات في الظاهر كان الظاهر دليلاً على إيمان القلب ثبوتاً وانتفاء كقوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة:٢٢] وقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:٨١] وأمثال ذلك .

وبعد هذا فنزاع المنازع في أن الإيمان في اللغة هو اسم لمجرد التصديق دون مقتضاه أو اسم للأمرين يؤول إلى نزاع لفظي وقد يقال أن الدلالة تختلف بالإفراد والاقتران والناس منهم من يقول أن أصل الإيمان في اللغة التصديق[2] ثم يقول والتصديق يكون باللسان ويكون بالجوارح ، والقول يسمى تصديقاً والعمل يسمى تصديقاً كقول النبي ﷺ : « **العينان تزنيان وزناهما النظر والأذن تزني وزناها السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه** »[3].

---

[1] انظر تفسير ابن كثير .

[2] انظر مجموع الفتاوى ٧/٢٩٠-٢٩٣ ، ٧/٥٢٩-٥٣٤ .

[3] رواه مسلم برقم ٢٦٥٧ ،والبخاري برقم ٦٣٤٦ مختصراً ، وأبو داود برقم ٢١٥٢ عن أبي هريرة ﷺ ، والحديث له روايات متعددة .

وقال الحسن البصري : ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن بما وقر في القلب وصدقه العمل[1] ، ومنهم من يقول بل الإيمان هو الإقرار وليس هو مرادفاً للتصديق ، فإن التصديق يقال على كل خبر عن شهادة أو غيب ، وأما الإيمان فهو أخص منه فإنه قد قيل لخبر إخوة يوسف (**وما أنت بؤمن لنا**) وقيل (**يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين**) إذ الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام تصديق به والإيمان له تصديق له في ذلك الخبر وهذا في المخبر ويقال لمن قال الواحد نصف الاثنين والسماء فوق الأرض قد صدقت ، ولا يقال آمنت له ، ويقال أصدق بهذا ولا يقال أؤمن به إذ لفظ الإيمان أفعال من الأمن فهو يقتضي طمأنينة وسكوناً فيما من شأنه أن يستريب فيه القلب ويخفق ويضطرب وهذا إنما يكون في الإخبار بالمغيبات لا بالمشاهدات .

والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع وإنما المقصود أن فقهاء المرجئة خلافهم مع أهل السنة يسير وبعضه لفظي و لم يعرف بين الأئمة المشهورين بالفتيا خلاف إلا في هذا فإن ذلك قول طائفة من فقهاء الكوفيين كحماد بن أبي سليمان وصاحبه أبي حنيفة وأصحاب أبي حنيفة ، وأما قول الجهمية وهو أن الإيمان مجرد تصديق القلب دون اللسان فهذا لم يقله أحد من المشهورين بالإمامة ، ولا كان قديماً فيضاف هذا إلى المرجئة ، وإنما وافق الجهمية عليه طائفة من المتأخرين من أصحاب الأشعري .

وأما ابن كلاب فكلامه يوافق كلام المرجئة لا الجهمية وآخر الأقوال حدوثاً في ذلك قول الكرامية أن الإيمان اسم للقول باللسان وإن لم يكن معه اعتقاد القلب وهذا القول أفسد الأقوال لكن أصحابه لا يخالفون في الحكم فإنهم

---

[1] رواه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل برقم ٥٦ ، وانظر الطحاوية ص٣٣٩ وللمزيد في المسألة انظر شرح السنة ٣٨/١ للبغوي وشرح أصول السنة للالكائي ٨٨٦/٥ ، وجامع العلوم والحكم لابن رجب .

يقولون إن هذا الإيمان باللسان دون القلب هو إيمان المنافقين ، وأنه لا ينفع في الآخرة وإنما أوقع هؤلاء كلهم ما أوقع الخوارج والمعتزلة في ظنهم أن الإيمان لا يتبعض بل إذا ذهب بعضه ذهب كله ومذهب أهل السنة والجماعة أنه يتبعض وأنه ينقص ولا يزول جميعه كما قال النبي ﷺ « **يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان** »[1].

[أقوال أصحاب المذاهب في صاحب الكبيرة]

فالأقوال في ذلك ثلاثة : الخوارج والمعتزلة نازعوا في الاسم والحكم فلم يقولوا بالتبعيض لا في الاسم ولا في الحكم فرفعوا عن صاحب الكبيرة بالكلية اسم الإيمان وأوجبوا له الخلود في النيران ، وأما الجهمية والمرجئة فنازعوا في الاسم لا في الحكم فقالوا يجوز أن يكون مثاباً معاقباً محموداً مذموماً لكن لا يجوز أن يكون معه بعض الإيمان دون بعض وكثير من المرجئة والجهمية من يقف في الوعيد فلا يجزم بنفوذ الوعيد في حق أحد من أرباب الكبائر كما قال ذلك من قاله من مرجئة الشيعة والأشعرية كالقاضي أبي بكر وغيره ، ويذكر عن غلاتهم أنهم نفوا الوعيد بالكلية لكن لا أعلم معيناً معروفاً أذكر عنه هذا القول ، ولكن حكي هذا عن مقاتل بن سليمان والأشبه أنه كذب عليه .

[مذهب أهل السنة في صاحب الكبيرة]

(**وأما أئمة السنة والجماعة**) فعلى إثبات التبعيض في الاسم والحكم فيكون مع الرجل بعض الإيمان لا كله ويثبت له من حكم أهل الإيمان وثوابهم بحسب ما معه كما يثبت له من العقاب بحسب ما عليه وولاية الله تعالى بحسب إيمان العبد وتقواه ، فيكون مع العبد من ولاية الله تعالى بحسب ما معه من الإيمان والتقوى فإن أولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

[1] رواه البخاري ١/١٠٣ الفتح ، ومسلم ٣/٥٩ النووي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وجاء الحديث من " خير " ، ومن إيمان .

وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ [يونس:٦٢-٦٣][1] .

وعلى هــذا فالمتأول الذي أخطأ في تأويله في المسائل الخبرية والأمـــرية وإن كان في قوله بدعة يخالف بها نصاً أو إجماعاً قديماً وهو لا يعلم أنه يخالف ذلك بل قد أخطأ فيه كما يخطئ المفتي والقاضي في كثير من مسائل الفتيــا والقضاء باجتهاده ؛ يكون أيضاً مثاباً من جهة اجتهاده الموافق لطاعة الله تعالى غير مثاب من جهة ما أخطأ فيه وإن كان معفواً عنه[2] ثم قد يحصل فيه تفريط في الواجب أو اتباع لهوى يكون ذنباً منه وقد يقوى فيكون كبيرة وقد تقــوم عليه الحجة التي بعث الله عز وجل بها رسله ويعاندها مشاقاً للرسول من بعــد ما تبين له الهدى متبعاً غير سبيل المؤمنين فيكون مرتداً منافقاً أو مرتـــداً ردة ظاهرة فالكلام في الأشخاص لابد فيه من هذا التفصيل ، وأما الكلام في أنواع الأقوال والأعمال باطناً وظاهراً من الاعتقاد والإرادات وغير ذلك فــالواجب فيما تنوزع في ذلك أن يرد إلى الله والرسول فما وافق الكتاب والسنة فـــهو حق ، وما خالفهما فهو باطل وما وافقهما من وجه دون وجه فهو ما اشتمل على حق وباطل فهذا هو .

والمقصود هنا أن أهل العلم والإيمان في تصديقهم لمــا يصدقــون بــه وتكذيبهم لما يكذبون به وحمدهم لما يحمدونه وذمهم لما يذمونه متفقــون على هذا الأصل فلهذا يوجد أئمة أهل العلم والدين من المنتسبين إلى الفقـه والزهـد يذمون أهل البدع المخالفة للكتاب والسنة في الاعتقادات والأعمال من أهـل

---

[1] انظر الإبانة ص٢٦٥ ، وعقيدة السلف أصحاب الحديث ص٧١-٧٢ ، وشرح السنة للبغوي١/١٠٣ ، والفتاوى ١٢/٤٨٠-٤٨٤ ، ٣٥/٦٦-٦٨-٢٨٢،.

[2] انظر مجموع الفتاوى ٣/١٧٩،١٩/٢١٦ واقتضاء الصراط المستقيم ٢/٥٨٠، ودرء تعارض العقل والنقل ١/٥٩ .

الكلام والرأي والزهد والتصوف ونحوهم وإن كان في أولئك من هو مجتهد له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور له .

وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال « **خير القرون القرن الـذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم** »[1] .

فكان القرن الأول من كمال العلم والإيمان على حال لم يصل إليها القرن الثاني وكذلك الثالث وكان ظهور البدع والنفاق بحسب البعد عن السنن والإيمان ، وكلما كانت البدعة أشد تأخر ظهورها ، وكلما كانت أخف كانت إلى الحدوث أقرب ، فلهذا حدث أولاً بدعة الخوارج والشيعة ثم بدعة القدرية والمرجئة وكان آخر ما حدث بدعة الجهمية حتى قال ابن المبارك ويوسف بن أسباط وطائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم إن الجهمية ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة بل هم زنادقة ، وهذا مع أن كثيراً من بدعهم دخل فيها قوم ليسوا بزنادقة بل قبلوا كلام الزنادقة جهلاً وخطئاً قال الله تعالى ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة:٤٧] فأخبر سبحانه أن في المؤمنين من هو مستجيب للمنافقين فما يقع فيه بعض أهل الإيمان من أمور بعض المنافقين هو من هذا الباب .

والمقصود هنا أن يعلم أنه لم يزل في أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأن أمته لا تبقى على ضلالة بل إذا وقع منكر من لبس حق بباطل أوغير ذلك ، فلابد أن يقيم الله تعالى من يميز ذلك فلابد من بيان ذلك ولابد من إعطاء الناس حقوقهم كما قالت عائشة رضي الله عنها « **أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم** » رواه أبو داود

---

[1] تقدم تخريجه انظر ص ٢١١.

وغيره[1] ، وهذا الموضع لا يحتمل من السعة وكلام الناس في مثل هذه الأمور التي وقعت ممن وقعت منه ؛ بل المقصود التنبيه على جمل ذلك لأن هذا محتاج إليه في هذه الأوقات ، فكتب الزهد والتصوف فيها من جنس ما في كتب الفقه والرأي وفي كلاهما منقولات صحيحة وضعيفة بل وموضوعة ، ومقالات صحيحة وضعيفة بل وباطلة ، وأما كتب الكلام ففيها من الباطل أعظم من ذلك بكثير بل فيها أنواع من الزندقة والنفاق .

وأما كتب الفلسفة فالباطل غالب عليها بل الكفر الصريح كثير فيها وكتاب الإحياء له حكم نظائره ففيه أحاديث كثيرة صحيحة وأحاديث كثيرة ضعيفة أو موضوعة ، فإن مادة المصنف في الحديث والآثار وكلام السلف وتفسيرهم للقرآن مادة ضعيفة ، وأجود ماله من المواد المادة الصوفية ، ولو سلك فيها مسلك الصوفية أهل العلم بالآثار النبوية واحترز عن تصوف المتفلسفة الصابئين لحصل مطلوبه ونال مقصوده ، لكنه في آخر عمره سلك هذا السبيل ، وأحسن ما في كتابه أو أحسن ما فيه ما يأخذه من كتاب أبي طالب في مقامات العارفين ونحو ذلك فإن أبا طالب أخبر بذوق الصوفية حالاً وأعلم بكلامهم وآثارهم سماعاً وأكثر مباشرة لشيوخهم الأكابر .

[تعدد طرق العلم بصدق النبي ﷺ]

والمقصود هنا أن طرق العلم بصدق النبي عليه أفضل الصلاة والسلام بل وتفاوت الطرق في معرفة قدر النبوة والنبي متعددة تعدداً كثيراً إذ النبي يخبر عن الله سبحانه أنه قال ذلك إما إخباراً من الله تعالى وإما أمراً أونهياً ولكل من حال المخبر عنه والمخبر به بل ومن حال المخبرين ـ مصدقهم ومكذبهم ـ دلالة على المطلوب سوى ما ينفصل عن ذلك من الخوارق وأخبار الأولين والهواتف والكهان وغير ذلك ، فالمخبر مطلقاً يعلم صدقه وكذبه أمور كثيرة لا يحصل

---

[1] تقدم تخريجه انظر ص ١٠٥.

العلم بآحادها كما يحصل العلم بمخبر الأخبار المتواترة بل بمخبر الخبر الواحد الذي احتف بخبره قرائن أفادت العلم .

ومن هذا الباب علم الإنسان بعدالة الشاهد والمحدث والمفتي حتى يزكيهم ويفتي بخبرهم ويحكم بشهادتهم وحتى لا يحتاج الحاكم في عدالة كل شاهد إلى تزكيته فإنه لو احتاج كل مزكٍ إلى مزكي لزم التسلسل بل يعلم صدق الشخص تارة باختباره ومباشرته ، وتارة باستفاضة صدقه بين الناس ولهذا قال العلماء : إن التعديل لا يحتاج إلى بيان السبب فإن كون الشخص عدلاً صادقاً لا يكذب لا يتبين بذكر شيء معين بخلاف الجرح فإنه لا يقبل إلا مفسراً عند جمهور العلماء لوجهين :

[كلام العلماء حول الجرح]

(أحدهما) أن سبب الجرح ينضبط .

(الثاني) أنه قد يظن ما ليس بجرح جرحاً ، وأما كونه صادقاً متحرياً للصدق لا يكذب فهذا لا يعرف بشيء واحد حتى يخبر به وإنما يعرف ذلك من خلقه وعادته بطول المباشرة له والخبرة له ، ثم إذا استفاض ذلك عند عامة من يعرفه كان ذلك طريقاً للعلم لمن لم يباشره كما يعرف الإنسان عدل عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وظلم الحجاج .

ولهذا قال الفقهاء : إن العدالة والفسق يثبتان بالاستفاضة وقالوا في الجرح المفسر يجرحه بما رآه أو سمعه أو استفاض عنه ، وصدق الإنسان في العادة مستلزم لخصال البر كما أن كذبه مستلزم لخصال الفجور كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ ((**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**))[1]

---

[1] تقدم تخريجه انظر ص ١٥٧.

وكما أن الخبر المتواتر يعلم لكونه خبر من يمتنع في العادة اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب، والخبر المنكر المكذب يعلم لكونه لم يخبر به من يمتنع في العادة اتفاقهم على الكتمان فخلق الشخص وعادته في الصدق والكذب يمتنع في العادة أن يخفى على الناس فلا يوجد أحد يظهر تحري الصدق وهو يكذب إذا أر اد إلا ولابد أن يتبين كذبه فإن الإنسان حيوان ناطق فالكلام له وصف لازم ذاتي لا يفارقه ، والكلام إما خبر وإما إنشاء والخبر أكثر من الإنشاء وأصل له كما أن العلم أعم من الإرادة وأصل لها والمعلوم أعظم من المراد ، فالعلم يتناول الموجود والمعدوم والواجب والممكن والممتنع وما كان وما سيكون وما يختاره العالم وما لا يختاره .

وأما الإرادة فتختص ببعض الأمور دون بعض والخبر يطابق العلم فكل ما يعلم يمكن الخبر به ، والإنشاء يطابق الإرادة ، فإن الأمر إما محبوب يؤمر به أو مكروه ينهى عنه ، وأما ما ليس بمحبوب ولا مكروه فلا يؤمر به ولا ينهى عنه وإذا كان كذلك فالإنسان إذا كان متحرياً للصدق عرف ذلك منه وإذا كان يكذب أحياناً لغرض من الأغراض لجلب ما يهواه أو دفع ما يبغضه أو غير ذلك ، فإن ذلك لابد أن يعرف منه وهذا أمر جرت به العادات كما جرت بنظائره فلا تجد أحداً بين طائفة من الطوائف طالت مباشرتهم له إلا وهم يعرفونه هل يكذب أو لا يكذب ؟

ولهذا كان من سنة القضاة إذا شهد عندهم من لا يعرفونه كان لهم أصحاب مسائل يسألون عنه جيرانه ومعامليه ونحوهم ممن له به خبرة فمن خبر شخصاً خبرة باطنة فإنه يعلم من عادته علماً يقينياً أنه لا يكذب لا سيما في الأمور العظام : ومن خبر عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وسفيان الثوري ومالك بن أنس وشعبة بن الحجاج ويحيى بن سعيد القطان وأحمد بن حنبل وأضعاف أضعافهم حصل عنده علم ضروري من أعظم العلوم

الضرورية أن الواحد من هؤلاء لا يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ ومن تواترت عنه أخبارهم من أهل زماننا وغيرهم حصل له هذا العلم الضروري ولكن قد يجوز على أحدهم الغلط الذي يليق به ، ثم خبر الفاسق والكافر بل ومن عُرف بالكذب قد تقترن به قرائن تفيد علماً ضرورياً أن المخبر صادق في ذلك الخبر فكيف بمن عرف منه الصدق في الأشياء فمن كان خبيراً بحال النبي ﷺ مثل زوجته خديجة وصديقه أبي بكر إذا أخبره النبي ﷺ بما رآه أو سمعه حصل له علم ضروري بأنه صادق في ذلك ليس هو كاذباً في ذلك ثم أن النبي لابد أن يحصل له علم ضروري بأن ما أتاه صادق أو كاذب فيصير إخباره عما علمه بالضرورة كأخبار أهل التواتر عما علموه بالضرورة .

[حال النبي ﷺ يدل على صدقه]

وأيضاً فالمتنبيء الكذاب كمسيلمة والعنسي ونحوهما يظهر لمخاطبه من كذبه في أثناء الأمور أعظم ما يظهر من كذب غيره فإنه إذا كان الإخبار عن الأمور المشاهدة لابد أن يظهر فيه كذب الكاذب فما الظن بمن يخبر عن الأمور الغائبة التي تطلب منه ومن لوازم النبي التي لا بد منها الإخبار عن الغيب الذي أنبأ الله تعالى به فإن لم يخبر عن غيب لا يكون نبياً فإذا أخبرهم المتنبيء عن الأمور الغائبة عن حواسهم من الحاضرات والمستقبلات والماضيات فلابد أن يكذب فيها ويظهر لهم كذبه وإن كان قد يصدق أحياناً في شيء كما يظهر كذب الكهان والمنجمين ونحوهم وكذب المدعين للدين والولاية والمشيخة بالباطل فإن الواحد من هؤلاء وإن صدق في بعض الوقائع فلابد أن يكذب في غيرها بل يكون كذبه أغلب من صدقه بل تتناقض أخباره وأوامره وهذا أمر جرت به سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً قال تعالى ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]

وأما النبي الصادق المصدوق فهو فيما يخبر به عن الغيوب توجد أخباره صادقة مطابقة وكلما زادت أخباره ظهر صدقه ، وكلما قويت مباشرته وامتحانه ظهر صدقه كالذهب الخالص الذي كلما سبك خلص وظهر جوهره بخلاف المغشوش فإنه عند المحنة ينكشف ويظهر أن باطنه خلاف ظاهره ، ولهذا جاء في النبوات المتقدمة أن الكذاب لا يدوم أمره أكثر من مدة قليلة إما ثلاثين سنة وإما أقل فلا يوجد مدعي النبوة كذباً إلا ولابد أن ينكشف ستره ويظهر أمره والأنبياء الصادقون لا يزال يظهر صدقهم بل الذين يظهرون العلم ببعض الفنون والخبرة ببعض الصناعات والصلاح والدين والزهد لابد أن يتميز هذا من هذا وينكشف فالصادقون يدوم أمرهم والكذابون ينقطع أمرهم هذا أمر جرت به العادة وسنة الله التي لن تجد لها تبديلاً .

[الصادق يدوم صدقه الكاذب نقطع ره]

وأما المخبر عنه وبه كالنبي يخبر عن الله تعالى بأنه أخبر بكذا أو أنه أمر بكذا فلابد أن يكون خبره صدقاً وأمره عدلاً قال تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام:١١٥] والأمور التي يخبر بها ويأمر بها تارة تنبه العقول على الأمثال والأدلة العقلية التي يعلم بها صحتها فيكون ما علمته العقول بدلالته وإرشاده من الحق الذي أخبر به والخبر الذي أمر به شاهد بأنه هاد ومرشد معلم للخبر ليس بمضل ولا مغو ولا معلم للشر وهذه حال الصادق البر دون الكاذب الفاجر ، فإن الكاذب الفاجر لا يتصور أن يكون ما يأمر به عدلاً وما يخبر به حقاً وإذا كان أحياناً يخبر ببعض الأمور الغائبة كشيطان يقرن به يلقي إليه ذلك أو غير ذلك فلابد أن يكون كاذباً فاجراً كما قال تعالى ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣] .

وهذا بيان لأن الذي يأتيه ملك لا شيطان ، فإن الشيطان لا ينزل على الصادق البار مادام صادقاً باراً إذ لايحصل مقصوده بذلك وإنما ينزل على من يناسبه في التشطين وهو الكاذب الأثيم ، والأثيم الفاجر ، وتارة يخبر النبي ﷺ بأمور ويأمر بأمور لا يتبين للعقول صدقها ومنفعتها في أول الأمر، فإذا صدق الإنسان خبره وأطاع أمره وجد في ذلك من البيان للحقائق والمنفعة والفوائد ما يعلم به أن عنده من عظيم العلم والصدق والحكمة ما لايعلمه إلا الله تعالى أعظم ما يتبين به صدق الطبيب إذا استعمل ما يصفه من الأدوية ، وصدق العقل المشير إذا استعمل ما يراه من الآراء وأمثال ذلك وحينئذ فيحصل للنفوس علم ضروري بكمال عقله وصدقه فإذا أخبر بعد ذلك عن أمور ضرورية يراها أو يسمعها حصل للنفوس علم ضروري بأنه صادق لا يتعمد الكذب وأنه متيقن لما أخبر به ليس فيه خطأ ولا غلط أعظم ما يتبين به صدق من أخبر عما رآه من الرؤيا أو عما رآه من العجائب وأمثال ذلك فإن الخبر إنما تأتيه الآفة من تعمد الكذب أو الخطأ بأن يظن الأمر على خلاف ما هو عليه فإن كان من العلوم الضرورية التي كلما دامت قويت وظهرت وزادت زال احتمال الخطأ وما كان يتحرى الصدق الذي يعلم معه بالضرورة انتفاء تعمد الكذب هو وغيره من الأمور التي يعلم معها انتفاء تعمد الكذب ويزول معه احتمال تعمده وأما العلم بالعدل فيما يؤمر به وبالعدل الفاضل فيما يأمره فهذا يعلم تارة مما نبينه من الأدلة العقلية ونضربه من الأمثال وهذا هو الغالب على ما يذكره الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أصول الدين علماً وعملاً وتارة يظهر ذلك بالتجربة والامتحان وتارة يستدل بما علم على ما يعلم .

[موافقة النبي ﷺ للأنبياء في الأصول الكلية من دلائل صدقه]

وأيضاً فقد علم أن العالم مازال فيه نبوة من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ فالنبي الثاني يعلم صدقه بأمور منها إخبار النبي الأول به كما بشر

بنبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام الأنبياء من قبله ، وكذلك بشر بالمسيح الأنبياء من قبله .

وتارة يعلم صدقه بأن يأتي بمثل ما أتوا بــه من الخبر والأمر فإن الكذاب الفاجر لا يتصور أن يكون في أخباره وأوامره موافقاً للأنبياء بـل لابـد أن يخالفهم في الأصول الكلية التي اتفق عليها الأنبياء كالتوحيد والنبوات والمعـاد كما أن القاضي الجاهل أوالظالم لابد أن يخالف سنة القضاة العالمين العادلين ، وكذلك المفتي الجاهل أوالكاذب ، والطبيب الكاذب أوالجاهل فإن كل هؤلاء لابد أن يتبين كذبهم أو جهلهم بمخالفتهم لما مضت به سـنة أهـل العلـم والصدق، وإن كان قد يخالف بعضهم بعضاً في أمور اجتهادية فإنه يعلم الفرق بين ذلك وبين المخالفة في الأصول الكلية التي لا يمكن انخرامها ولهذا يتمـيز للناس في الأمراء والحكام والمفتين والمحدثين والأطباء وسائر الأصناف بين العالم الصادق وإن خالف غيره من أهل العلم في الصدق في أشياء وبين من يكـون جاهلاً أو كاذباً ظالماً ويفرقون بين هذا وهذا كما أنهم يعلمون من سـيرة أبي بكر وعمر من العلم والعدل ما لا يرتابون فيه وإن كان بينهما منازعـات في أمور اجتهادية كالتفضيل في العطاء ونحو ذلك .

وأيضاً فإذا أخبر اثنان عن قضية طويلة ذات أجزاء وشعب لم يتواطآ عليـها ويمتنع في العادة اتفاقهما فيها على تعمد الكذب والخطأ علمنا صدقهما مثـل أن يشهد رجلان واقعة من وقائع الحروب أو يشهدا الجمعة أو العيد أو مـوت ملك أو تغير دولة ونحو ذلك أو يشهدا خطبة خطيب أو كتاباً لبعض الولاة أو يطالعا كتاباً من الكتب أو يحفظاه ونعلم أنهما لم يتواطآ ثم يجيء أحدهما فيخبر بذلك كله مفصلاً شيئاً فشيئاً من غير تواطؤ فيعلم أنهما صادقان ويخبر الآخر بمثل ما أخبر به الأول مفصلاً شيئاً فشيئاً من غير تواطؤ فيعلم أنهما صادقـان حتى لو كان رجلان يحفظان بعض قصائد العرب كقصيـدة امرئ القيس أو

غيرها وهناك من لا يحفظها وهناك شخصان لا يعرف أحدهما الآخر فقال الذي لا يحفظها لأحدهما أنشدنيها فأنشدها ثم طلب الآخر وقال له أنشدنيها فأنشدها كما أنشدها الأول علم المستمع أنها هي هي بل وكذلك كتب الفقه والحديث واللغة والطب وغير ذلك ، ولو بعث بعض الملوك رسلاً إلى أمرائه ونوابه في أمر من الأمور ثم أخبر أحد الرسولين بأنه أمر بأمر ذكره وفصله وأخبر الآخر بمثل ذلك للقوم الذين أرسل إليهم من غير علم منه بإرسال الآخر لعلم قطعاً أن ذلك الأمر هو الذي أمر به المرسل وأنهما صادقان فإنه يعلم علماً ضرورياً أنه يمتنع في الكذب والخطأ أن يتفق في مثل هذا .

ومعلوم أن موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين كانوا قبل نبينا محمد ﷺ قد أخبروا عن الله سبحانه وتعالى من توحيده وأسمائه وصفاته وملائكته وأمره ونهيه ووعده ووعيده وإرساله بما أخبروا به ، ومعلوم أيضاً لمن علم حال سيدنا محمد ﷺ أنه كان رجلاً أمياً نشأ بين قوم أميين ولم يكن يقرأ كتاباً ولا يكتب بخطه كما قال تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٨] وأن قومه الذين نشأ بينهم لم يكونوا يعلمون علوم الأنبياء بل كانوا من أشد الناس شركاً وجهلاً وتبديلاً وتكذيباً بالمعاد ، وكانوا من أبعد الأمم عن توحيد الله سبحانه ، ومن أعظم الأمم إشراكاً بالله عز وجل ، ثم إذا تدبرت القرآن والتوراة وجدتهما يتفقان في عامة المقاصد الكلية من التوحيد والنبوات والأعمال الكلية وسائر الأسماء والصفات ومن كان له علم بهذا علم علماً ضرورياً ما قاله النجاشي : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة وما قاله ورقة بن نوفل إن هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، قال تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ ﴾ [الأحقاف:١٠] وقال تعالى ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ ﴾ [يونس:٩٤] وقال تعالى ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الرعد:٤٣] .

وأمثال ذلك مما يذكر فيه شهادة الكتب المتقدمة بمثل ما أخبر به نبينا محمد ﷺ وهذه الأخبار منقولة عند أهل الكتاب بالتواتر كما نقل عندهم بالتواتر معجزات موسى وعيسى عليهما السلام وإن كان كثيراً مما يدعونه من أدق الأمور لم يتواتر عندهم لانقطاع التواتر فيهم فالفرق بين الجمل الكلية المشهورة التي هي أصل الشرائع التي يعلمها أهل ا لملل كلهم وبين الجزئيات الدقيقة التي لا يعلمها إلا خواص الناس ظاهر ولهذا كان وجوب الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان وحج البيت وتحريم الفواحش والكذب ونحو ذلك متواتراً عند عامة المسلمين وأكثرهم لا يعلمون تفاصيل الأحكام والسنن المتواترة عند الخاصة فإذا كان في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب وفيما ينقلونه بالتواتر ما يوافق ما أخبر به نبينا محمد عليه الصلاة والسلام كان في ذلك فوائد جليلة هي من بعض حكمه إقرارهم بالجزية :

[فوائد موافقة ما أخبر به نبينا محمد ﷺ مما في كتب أهل الكتاب]

(أحدها) أنه إذا علم اتفاق الرسل على مثل هذا علم صدقهم فيما أخبروا به عن الله تعالى حيث أخبر محمد ﷺ بمثل ما أخبر به موسى من غير تواطؤ ولا تشاعر .

(الثاني) أن ذلك دليل على اتفاق الرسل كلهم في أصول الدين كما يعلم أن رسل الله قبله كانوا رجالاً من البشر لم يكونوا ملائكة فلا يجعل سيدنا محمد ﷺ هو الذي جاء بها كما قال تعالى ﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٩] وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ

إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف:١٠٩-١١١] .

(**الثالث**) أن هذه آية على نبوة نبينا محمد ﷺ حيث أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء من غير تعلم من بشر وهذه الأمور هي من الغيب قال تعالى ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود:٤٩] وقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف:١٠٢] وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟

لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص:٤٤-٥٥] .

وكثير من أهل الكتاب آمنوا بمثل هذه الطرق، قال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩] وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرعد:٣٦] وقال تعالى ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ:٦] .

ولا ريب أن منكري النبوات لهم شبه؛ منها: إنكـــار أن يكون رسول الله بشراً ومنها: دعوى أن الذي يأتيه شيطان لا ملك وغير ذلك وكل ذلك قــد أجاب الله تعالى عنه في القرآن العظيم وقرر ذلك بأبلغ تقرير لكن جواب هذا السؤال لا يتسع لبسط ذلك في القرآن ، قــال تعــالى ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ۝٢ ﴾ [يونس:١-٢] وقال تعـالى ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥ ﴾ [الإسراء:٩٤-٩٥] وقال تعالى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ ﴾ [الأنعام:٧-٩] بين أن الرسول لو كان ملكــاً لكان في صورة رجل إذ لا يستطيعون الأخذ عن الملك على صورته ولو كـان في صورة رجل لعاد اللبس وقالوا ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ وقال تعــالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۝١٠٩ ﴾ [يوسف:١٠٩] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ﴾ [الأنبياء:٧-٨] فــأمر ســبحانه

بمسألة أهل الذكر إذ ذلك مما تواتر عندهم أن الرسل كانوا رجالاً ، وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨].

[تقرير النبوات من القرآن عماد الدين وجماع كل هدى]

(وبالجملة) فتقرير النبوات من القرآن أعظم من أن يشرح في هذا المقام إذ ذلك هو عماد الدين وأصل الدعوة النبوية وينبوع كل خير وجماع كل هدى وأما حال المخبر عنه فإن النبي والرسول يخبر عن الله تعالى بأنه أرسله ولا أعظم فرية ممن يكذب على الله عز وجل كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام:٩٣] ذكر هذا بعد قوله قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام:٩١-٩٣] .

فنقض سبحانه دعوى الجاحد النافي للنبوة بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ [الأنعام:٩١] وهذا الكتاب ظهر فيه من الآيات والبينات وأتبعه كل الأنبياء والمؤمنين وحصل فيه ما لم يحصل في غيره فكانت البراهين والدلائل على صدقه أكثر وأظهر من أن تذكر بخلاف الإنجيل وغيره.

وأيضاً فإنه أصل والإنجيل تبع له إلا فيما أحله المسيح وهذا كما يقول سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ [القصص:٤٨] أي القرآن والتوراة، وفي القراءة الأخرى قالوا ساحران أي محمد والقرآن وكذلك قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [المزمل:١٥] وكذلك قوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود:١٧] وكذلك قول الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف:٣٠] ، ولهذا كانت قصة موسى هي أعظم قصص الأنبياء المذكورين في القرآن وهي أكبر من غيرها وتبسط أكثر من غيرها، قال عبد الله بن مسعود كان رسول الله ﷺ عامة نهاره يحدثنا عن بني إسراءيل [1]، ولما قرر الصدق بين حال الكذابين بأنهم ثلاثة أصناف إذ لا يخلو الكذاب من أن يضيف الكذب إلى الله تعالى ويقول إنه أنزله أو يحذف فاعله ولا يضيفه إلى أحد أو أن يقول إنه هو الذي وضعه معارضاً فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام:٩٣].

وأما المخبر عنه فإنه الله تعالى، ولا ريب أنه يعلم من أمور الرب سبحانه بما نصبه من الأدلة المعاينة الحسية التي يعقل بها نفسها وبالأمثال المضروبة

---

[1] أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤/١٤٨) ، والحاكم في المستدرك (٢/٤١١) .

وهي الأقيسة العقلية ما يمتنع معه خفاء كذب الكاذب بل يمتنع معه خفاء صدق الصادق فالدجال مثلاً قد علم بوجوه متعددة ضرورية أنه ليس هو الله وأنه كافر مفتر وإذا كانت دعواه معلوماً كذبها ضرورة لم يكن ما يأتي به من الشبهات مصدقاً لها إذ العصمة الضرورية لا تقدح فيها الطرق النظرية فإن الضروريات أصل النظريات فلو قدح بها فيها لزم إبطال الأصل بالفرع فيبطلان جميعاً فإنه يظهر أيضاً من عجزه ما ينفي دعواه .

وكذلك من أباح الفواحش والمظالم والشرك والكذب مدعياً للنبوة يعلم بالاضطرار كذبه، للعلم الضروري بأن الله سبحانه لا يأمر بهذا سواء قيل أن العقل يعلم به حسن الأفعال وقبحها أو لا يعلم به فليس كلما أمكن في العقل وقوعه ، وكان الله قادراً عليه يشك في وقوعه بل نحن نعلم بالضرورة أن البحار لم تقلب دماً وأن الجبال لم تقلب يواقيت وأمثال ذلك من المعادن وإن لم يسند ذلك إلى دليل معين وإن كنا عالمين بأن الله تعالى قادر على قلب ذلك لكن العلم بالوقوع وعدمه شيء والعلم بإمكان ذلك من قدرة الله سبحانه شيء وكل ذي فطرة سليمة يعلم بالاضطرار أن الله تعالى لا يأمر عباده بالكذب والظلم والشرك والفواحش وأمثال ذلك مما قد يأتي به كثير من الكذابين بل يعلم بفطرته السليمة ما يناسب حال الربوبية وهذا باب واسع ليس هذا موضع بسطه ولكن نذكر ما أشار إليه مصنف العقيدة .

فصل

[طرق دلالة المعجزة على الصدق]

فهذه الطرق سلكها أكثر أهل الكلام وغيرهم ولهم في تقرير دلالة المعجزة على الصدق طرق :

(**أحدها**) إن إظهار المعجزة على يدي المتنبيء الكذاب قبيح والله سبحانه منزه عن فعل القبيح ، وهذه الطرق سلكها المعتزلة وغيرهم ممن يقول بالتحسين والتقبيح[1] وطعن فيها من ينكر ذلك ثم إن المعتزلة جعلوا هذه أصل دينهم والتزموا بها لوازم خالفوا بها نصوص الكتاب والسنة بل وصريح العقل في مواضع كثيرة وحقيقة أمرهم أنهم لم يصدقوا الرسول إلا بتكذيب بعض ما جاء به وكأنهم قالوا لا يمكن تصديقه في البعض إلا بتكذيبه في البعض لكنهم لا يقولون إنهم يكذبونه في شيء بل تارة يطعنون في النقل وتارة يتأولون المنقول ولكن يعلم بطلان ما ذكروه إما ضرورة وإما نظراً وذلك أنهم قالوا إن السمع مبني على صدق الرسول وصدقه على أن الله تعالى منزه عن فعل القبيح فإن تأييد الكذاب بالمعجزة قبيح والله منزه عنه قالوا والدليل على أنه منزه عنه أن القبيح لا يفعله إلا جاهل بقبحه أو محتاج والله سبحانه منزه عن الجهل والحاجة والدليل على ذلك أن المحتاج لا يكون إلا جسماً والله تعالى ليس بجسم .

---

(1) ذهبت المعتزلة إلى إثبات الحسن والقبح بالعقل ، وجعلوا حسن الأفعال وقبحها للعقل فقط ، انظر في ذلك (شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار /٤٨٤) ، والملل والنحل ١١/٤٢،٥٢ ، ومجموع الفتاوى ٨/٤٣٥ ، ومفتاح دار السعادة ٢/٤٣٥.

(**والدليل**) على أنه ليس بجسم هو ما دل على حدوث العالم ، والدليل على حدوث العالم أنه أجسام وأعراض وكلاهما محدث والدليل على حدوث الأجسام أنها لا تخلو من الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث والدليل على ذلك أنها لا تنفك عن الحركة والسكون وهما حادثان لامتناع حوادث لا أول لها ثم التزموا لذلك حدوث كل موصوف بصفة لأن الصفات هي الأعراض والأعراض لا تقوم إلا بجسم وقد قام الدليل على حدوث الجسم فالتزموا لذلك[1] أن لا يكون لله علم ولا قدرة وأن لا يكون متكلماً قام به الكلام بل يكون القرآن وغيره من كلامه تعالى مخلوقاً خلقه في غيره ولا يجوز أن يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا هو مباين للعالم ولا مجانبه ولا داخل فيه ولا خارج عنه ثم قالوا أيضاً لا يجوز أن يشاء خلاف ما أمر به ولا أن يخلق أفعال عباده ولا يقدر أن يهدي ضلالاً ولا يضل مهتدياً لأنه لو كان قادراً على ذلك وقد أمر به و لم يعن عليه لكان قبيحاً منه ، فركبوا عن هذا الأصل التكذيب بالصفات والتكذيب بالقدر وسموا أنفسهم أهل التوحيد والعدل وسموا من أثبت الصفات من سلف الأمة وأئمتها مشبهة ومجسمة ومجبرة وحشوية[2] وجعلوا مالكاً والشافعي وأصحابه وأحمد وأصحابه وغيرهم من هؤلاء الحشوية إلى أمثال هذه الأمور التي بسطنا الكلام عليها في غير هذا الموضع وأصل ضلالهم في القدر أنهم شبهوا المخلوق بالخالق سبحانه فهم مشبهة الأفعال

وأما أصل ضلالهم في الصفات فظنهم أن الموصوف الذي تقوم به الصفات لا يكون إلا محدثاً . وقولهم من أبطل الباطل فإنهم يسلمون أن الله حي عليم

---

[1] انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي ، والمحيط بالتكليف ص٣٥ –٣٦ .

[2] انظر تلقيب أهل البدع أهل السنة بهذه الألقاب في السنة ص٤٠ للإمام أحمد ، شرح أصول السنة ١/١٧٩،٣٢١ .

قدير ومن المعلوم أن حياً بلا حياة وعليماً بلا علم وقديراً بلا قدرة مثل متحرك بلا حركة وأبيض بلا بياض وأسود بلا سواد وطويل بلا طول وقصير بلا قصر ونحو ذلك من الأسماء المشتقة التي يدعي فيها نفي المعاني المشتقة منه وهذا مكابرة للعقل والشرع واللغة .

الثاني : أنه أيضاً من المعلوم أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل لا غيره فإذا خلق سبحانه كلاماً في محل وجب أن يكون ذلك المحل هو المتكلم به فتكون الشجرة هي القائلة لموسى : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ ويكون كل ما أنطقه الله تعالى من المخلوقات كلامه كلاماً لله تعالى وبسط هذا له موضع غير هذا .

[الله لا يؤيد كذاباً بمعجزة لا معارض لها]

(**والمقصود هنا**) ما يتعلق بتقرير النبوة وقد يقال يمكن تقرير كونه سبحانه منزهاً عن تأييد الكذاب بالمعجزة من غير بناء على أصل المعتزلة بما علم من حكمة الله تعالى في مخلوقاته ورحمته ببريته وسنته في عباده . فإن ذلك دليل على أنه لا يؤيد كذاباً بمعجزة لا معارض لها .

ويمكن بسط هذه الطريقة وتقريرها بما ليس هذا موضعه في أنه كما علم بما في مصنوعاته من الإحكام والإتقان أنه عالم ، وبما أن فيها من التخصيص أنه مريد فيعلم بما فيها من النفع للخلائق أنه رحيم وبما فيها من الغايات المحمودة أنه حكيم ، والقرآن يبين آيات الله الدالة على قدرته ومشيئته وآياته الدالة على إنعامه ورحمته وحكمته ، ولعل هذا أكثر في القرآن كقوله تعالى :

[بيان القرآن لآيات الله الدالة على قدرته ومشيئته وإنعامه ورحمته وحكمته]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢١-٢٢] وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا

تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة:٥٨-٧٤] وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ﴿١٥﴾ ﴾ [النبأ:٦-١٦] وقوله عز وجل : ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس:٢٤-٣٢] وقوله جل وعز : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا

يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة:٢٧] وهو سبحانه في سورة الرحمن يقول في عقب كل آية : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن:١٣] . وهو يذكر فيها ما يدل على خلقه وعلمه وقدرته ومشيئته وما يدل على إنعامه ورحمته وحكمته .

وكذلك ذكر في مخاطبة الرسل للكفار كقوله سبحانه : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٤] .

مثل هذا في القرآن كثير وما فطر فيه من المخلوقات دل على ذلك ، وفي نفس الإنسان عبرة تامة فإن من نظر في خلق أعضائه وما فيها من المنافع له وما في تركيبها من الحكمة والمنفعة مثل كون ماء العين مالحاً ليحفظ شحمة العين من أن تذوب وماء الأذن مراً ليمنع الذباب من الولوج ، وماء الفم عذباً ليطيب ما يمضغ من الطعام ، وأمثال ذلك علم علماً ضرورياً أن خالق ذلك له من الرحمة والحكمة ما يبهر العقول مع ما في ذلك من الدلالة على المشيئة ، ثم إذا استقرأ ما يجده في نوع الإنسان من أن كل من عظم ظلمه للخلق وضراره لهم كانت عاقبته عاقبة سوء ، واتبع اللعنة والذم .

ومن عظم نفعه للخلق وإحسانه إليهم كانت عاقبته عاقبة خير ، وأمثال ذلك استدل بما علم ما لم يعلم حتى يعلم أن الدولة ذات الظلم والجبن والبخل

سريعة الانقضاء كما قال تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩] وقال عز وجل : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد:٣٨] .

كذلك سنته في الأنبياء الصادقين وأتباعهم من المؤمنين وفي الكذابين بالحق إن هؤلاء ينصرهم ويبقي لهم لسان صدق في الآخرين وأولئك ينتقم منهم ويجعل عليهم اللعنة .

فبهذا وأمثاله يعلم أنه لا يؤيد كذاباً بالمعجزة لا معارض لها لأن في ذلك من الفساد والضرر بالعباد ما تمنعه رحمته وفيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته وفيه من نقض سنته المعروفة وعادته المطردة ما تعلم به مشيئته قال تعالى : قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥] وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ

ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشورى:٢٤] .

ثم قال : ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء:١٨] وقال تعالى : ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] قال تعالى : ﴿ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سبأ:٤٩] .

فصل

[مسألة التحسين والتقبيح العقليين]

وهذه الطريق لم يسلكها أبو الحسن الأشعري وأصحابه ومن وافقه من علماء المذهب كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني والأستاذ أبي المعالي وصاحبه الأنصاري ، والشهرستاني وأمثالهم وأبي الوليد الباجي والمازري ونحوهم بناء على أنهم لا يرون تنزيه الرب سبحانه عن فعل من الأفعال لأنهم قد علموا أن له أن يفعل ما يشاء وهم لا يقولون بالتحسين والتقبيح العقليين[1] حتى يقولوا إن الفعل الفلاني قبيح وهو منزه عن فعل القبيح بل عندهم أن الظلم غير مقدور إذ الظلم التصرف في ملك غيره فمهما فعل كان تصرفاً في ملكه فلم يكن ظلماً ، بل يقولون إنه يجوز أن يأمر بكل شيء وينهى عن كل شيء ولا يجعلون للأفعال صفات باعتبارها يكون الحسن والقبح ، وانتهى ما أثبتوه من الصفات بالعقل إلى أنه حي عليم قدير مريد ، وأثبتوا مع ذلك أنه سميع بصير متكلم . فأما الرحمة والحكمة ونحو ذلك فلم يثبتوها بالعقل بل قد ينفون الحكمة التي هي الغايات والمقاصد في أفعاله ويمنعون أن يفعل شيئاً لأجل شيء كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع .

(فإن المقصود هنا) التنبيه على طرق الناس في النبوة والكلام بحسب العدل والإنصاف لا بسط الكلام في كل ما تنازعوا فيه .

ومسألة التحسين والتقبيح العقليين هي كما تنازع فيها عامة الطوائف ، فقال بكل من القولين طوائف من المالكية والشافعية والحنبلية ومن قال

---

[1] ولكنهم لم يوافقوا السلف في ذلك انظر الغنية في أصول الدين ص١٣٥ ، والإرشاد ص٢٢٨ ، والموافق في علم الكلام ص٣٢٣ .

بالإثبات من الحنبلية أبو الحسن التميمي وأبو الخطاب ، ومن قال بالنفي أبو عبد الله ابن حامد وصاحبه القاضي أبو يعلى وأكثر أصحابه .

ومسألة حكم الأعيان قبل ورود الشرع هي في الحقيقة من فروعها ، وقد قال فيها بالحظر أو الإباحة أعيان من هذه الطوائف ، وأما الحنفية فالغالب عليهم القول بالتحسين والتقبيح العقليين ، وذكروا ذلك نصاً عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وأهل الحديث فيها أيضاً على قولين ومن قال بالإثبات أبو النصر السجزي وصاحبه الشيخ أبو القاسم سعيد بن علي الزنجاني : فأما ما اختصت به القدرية فهذا لا يوافقهم عليه أحد من هؤلاء ولكن هؤلاء هم وجمهور الفقهاء بل وجمهور الأمة يرون أن للأفعال صفات يتعلق الأمر والنهي بها لأجلها . وملخص ذلك أن الله تعالى إذا أمر بأمر فإنه حسن بالاتفاق وإذا نهي عن شيء فإنه قبيح بالاتفاق ، لكن حسن الفعل وقبحه إما أن ينشأ من نفس الفعل والأمر والنهي كاشفان أو ينشأ من نفس تعلق الأمر والنهي به أو من المجموع .

فالأول هو قول المعتزلة ولهذا لا يجوزون نسخ العبادة قبل دخول وقتها لأنه يستلزم أن يكون الفعل الواحد حسناً قبيحاً ، وهذا قول أبي الحسن التميمي من أصحاب أحمد وغيره من الفقهاء .

والثاني قول الأشعرية ومن وافقهم من الظاهرية وفقهاء الطوائف ، وهؤلاء يجعلون علل الشرع مجرد أمارات ، ولا يثبتون بين العلل والأفعال مناسبة ، لكن هؤلاء الفقهاء متناقضون في هذا الباب فتارة يقولون بذلك موافقة للأشعرية المتكلمين ، وهم في أكثر تصرفاتهم يقولون بخلاف ذلك كما يوجد مثل هذا في كلام فقهاء المالكية والشافعية والحنبلية .

وإما أن يكون ذلك ناشئاً من الأمرين وهذا مذهب الأئمة وعليه تجري تصرفات الفقهاء في الشريعة ، فتارة يؤمر بالفعل لحكمة تنشأ من نفس الأمر

دون المأمور به ، وهذا هو الذي يجوز نسخه قبل التمكين كما نسخت الصلاة ليلة المعراج من خمسين إلى خمس وكما نسخ أمر إبراهيم بذبح ابنه عليهما السلام .

وبالجملة فجمهور الأئمة على أن الله تعالى منزه عن أشياء هو قادر عليها ولا يوافقون هؤلاء على أنه لا ينزه عن مقدور الظلم الذي نزه الله سبحانه عنه نفسه في القرآن وحرمه على نفسه وهو قادر عليه وهو هضم الإنسان من حسناته أو حمل سيئات غيره عليه كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢] .

وهؤلاء الجمهور لا يوافقون المعتزلة على قولهم إن الله تعالى لم يخلق أفعال العباد ولا شاء الكائنات بل يقولون إن الله خلق كل شيء وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لكنهم مع هذا يثبتون لفعله حكمة وينزهونه عن القبائح ، وهذا قول الكرامية وغيرهم من أهل الكلام وهو قول الصوفية وأكثر أهل الحديث وجمهور السلف والأئمة وجمهور المسلمين والنظار ولكن ليس هذا موضع بسطه .

[مسلك ابن عقيل في إثبات النبوة]

وهؤلاء يثبتون في إثبات النبوة ما سلكه ابن عقيل وغيره في مواضع أخر إذ أثبت حكم الله تعالى فيها حيث قال النبوات واسطة بين الله تعالى وبين خلقه في الأفعال والتروك المتضمنة لمصالح المكلفين والثقة بها طريقها ما سبق في علومنا باستدلالنا على أن الباري حكيم لا يؤيد كذاباً بالمعجزة ، ولا يمكن من معجزاته إلا من صدق فيها يخبر به عنه ، فلما علمنا ذلك وتحققناه ، حصلت لنا الثقة بمن تكاملت فيه شرائط النبوة ، وعلمنا أنه سفير فيما بيننا وبين الله تعالى ، وأنه رسوله فما أخبرنا به عنه قبلناه من غير تكشف عليه بعقولنا ولا نضرب له الأمثال بآرائنا وعاداتنا بل نعتقد أنه جاء من عند من

حكمته فوق حكمتنا وتدبيره فوق تدبيرنا ولا يمتنع في العقل ولا تمنع الحكمة من أن يجعل الأنبياء مذكرين للعقلاء وموقظين لهم ومرشدين إلا الأصلاح الذي لا يدرك بالعقل ولا يبلغ كنهه بالرأي والفحص وما هذا إلا كما جعل بعض العقلاء حكيماً واعظاً مذكراً مؤدياً وبعضهم يحتاج إلى مذكر ومؤدب ولا أحد منع من ذلك فثبت حسن الرسالة بالعقل ولأن الله جل وعز في الأفعال والتروك أسرار من المصالح التي لا يعلمها العقلاء ولا يدركونها بعقولهم فاحتاجوا إلى النبوات .

[مسالك من لم ينزه الله عن فعل كل مقدور له في دلالة المعجزة على الصدق]

(قلت والمقصود هنا) أن من لم ينزهه عن فعل مقدور له بل جوز أن يفعل كل ما يمكن و لم يثبت لفعله حكمة غير تعلق الحكم بالمفعولات وتعلق المشيئة بها فإنه احتاج في دلالة المعجزة على الصدق إلى غير تلك الطريق فسلكوا طريقين سلك كل طائفة من أهل الكلام والفقه من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد .

(أحدهما) وهو قول أكثر شيوخهم المتقدمين أن وجه دلالة المعجزة على صدق مدعي النبوة امتناع تعجيز الإله عن نصب الدلالة على صدق الرسل فإن تصديقهم ممكن وذلك معلوم بالضرورة والاستدلال ولا دليل إلى التصديق إلا خلق المعجزات وبظهورها على يد الكذاب يبطل دليل صدقهم فلا يبقى في المقدور طريق يصدقون به فيلزم عجز الإله عن الممكن وذلك ممتنع ، وقد عول على هذه الطريقة أبو الحسن الأشعري وأصحابه كالأستاذين أبي إسحاق وأبي بكر ابن فورك وكذلك القاضي أبو بكر في مواضع من كتبه وكذلك القاضي أبو يعلى وأبو الحسن ابن الزاغوني .

(الطريق الثاني) هي التي اختارها أبو المعالي وأتباعه وقال إنها الطريقة المرضية عند القاضي أبي بكر وهي التي أشار إليها أبو الحسن في الأمالي وهي

طريقة أبي محمد الصابوني ونحوه من الحنفية أن المعجزات تدل من حيث نزلت منزلة التصديق بالقول والعلم بذلك يقع ضرورياً بقرائن أحوال كالعلم بخجل الخجل ووجل الوجل وغضب الغضبان وحرارة الحر وفحوى كلام المخاطب المتكلم ولا يتوقف العلم بما هذا سبيله على نظر واستدلال فيقبل عليه اعتراض .

قالوا : ووجه ذلك أن الفعل الخارق للعادة إذا علم أنه من قبل الله تعالى وأنه خارق للعادة وأنه سبحانه فعله عند دعوى الرسالة والطلب وعند قول جار مجرى الطلب إما معيناً وإما غير معين من المعجزات وأنه متعلق بالدعوى ومطابق لها وأن الله تعالى سامع لدعوى النبوة عليه وعالم بها في مواضعة أهل لغة الرسول ثم فعل ما يدعيه الرسول أنه ليس من فعله علم أنه قاصد بذلك إلى تصديقه وأن ما يفعله من الآيات في مثل هذه الحال قائم مقام تصديقه له بالقول صدق أنا أرسلته على وجه يفهم الأمة التي يدعي فيها النبوة أنه قول صدق به من قبله بل التصديق له بالفعل أبعد من دخول الشبهة والاحتمال فيه وهو جار مجرى قول مدعي الرسالة على زيد إن كنت رسولك وصاحبك فاكتب بذلك رقعة أو اركب أو قم أو أقعد وما جرى مجرى ذلك من الأفعال الظاهرة للحواس التي يعلم تصديقه بها إذا فعلها فإذا فعل زيد ذلك قام مقام قوله صدق هو رسولي وصاحبي الذي يعلم ضرورة قصده إلى تصديقه به وهذا واجب لا محالة قالوا ليس يمكن أن تدل المعجزات على صدق الرسل إلا على هذه الطريقة فهي كذلك جارية مجرى أدلة الأقوال .

هذا حاصل كلام القاضي أبي بكر ابن الباقلاني في أحد قوليه وأبي المعالي ونحوهما وضربوا لذلك مثلاً فقالوا: إذا تصدى ملك للناس وتصدر لتلج عليه رعيته وأتباعه وغيره واحتفل المجلس واحتشد وقد أرهف الناس شغل

شاغل فلما أخذ كل مجلسه وترتب الناس على مراتبهم انتصب واحد من خواص الناس وقال: معاشر الأشهاد قد حدث بكم أمر عظيم وأظلكم خطب جسيم وأنا رسول الملك إليكم ومؤتمنه لديكم ورقيبه عليكم ودعواي هذه بمرأى من الملك ومسمع فإن كنت أيها الملك صادقاً في دعواي فخالف عادتك وجانب سجيتك وانتصب في خدرك قائماً ثم اقعد ففعل الملك ذلك على وفق دعواه وموافقة هواه فيتيقن الحاضرون علم الضرورة بتصديق الملك إياه وتنزيل الفعل الصادر منه منزلة القول المصرح بالتصديق .

فهذا العمدة في ضرب المثال فإن تعسف متعسف في الصورة التي فرضنا الكلام فيها وزعم أنه لا يحصل العلم بتصديق الملك لمن يدعي الرسالة كان ذلك جحداً منه لما علم اضطراراً فإنا نعلم ببديهة العقول عندما قدمناه من القرائن حالاً ومقالاً أن أحداً من الذي شهدوا وشاهدوا لا يستريب في تصديق الملك لمدعي الرسالة ولا يعرض أحد منهم بعد ظهور الأمارات على تشكيك النفس وترديد القول ولا تحوجهم قضية الحال إلى سبر ونظر وإطالة فكر بل يستوي النظار الذين لا خبرة لهم في النظر .

فصل

(**قال المصنف**) والدليل على نبوة الأنبياء المعجزات ، والدليل على نبوة نبينا ﷺ القرآن المعجز نظمه ومعناه .

[دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ]

(**قلت**) قد تبين أن النبوة تعلم بالمعجزات وبغيرها على أصح الأقوال ؛ وأما نبوة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام فإنها تعرف بطرق كثيرة :

(**منها**) المعجزات، ومعجزاته منها القرآن ، ومنها غير القرآن ، والقرآن معجز بلفظه ونظمه ومعناه ، وإعجاز يعلم بطريقين جملي وتفصيلي ، أما الجملي فهو أنه قد علم بالتواتر أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ادعى النبوة وجاء بهذا القرآن ، وأن في القرآن آيات التحدي والتعجيز كقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾: [الطور:٣٠-٣٤] . فتحداهم هنا أن يأتوا بمثله .

وقال في موضع آخر : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ ﴾ [هود:١٣] وقال في موضع آخر : ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣] وأخبر مع ذلك أنهم لن يفعلوا فقال : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤] .

بل أخبر أن جميع الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يأتون بمثله فقال : قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨] وقد علم أيضاً بالتواتر أنه دعا قريشاً خاصة والعرب عامة ، وأن جمهورهم في أول الأمر كذبوه وآذوه وآذوا الصحابة وقالوا فيه أنواع القول مثل قولهم هو ساحر وشاعر وكاهن ومعلم ومجنون ، وأمثال ذلك وعلم أنهم كانوا يعارضونه ولم يأتوا بسورة من مثله وذلك يدل على عجزهم عن معارضته لأن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة .

ومعلوم أن إرادتهم كانت من أشد الإرادات على تكذيبه وإبطال حجته وأنهم كانوا أحرص الناس على ذلك متى قالوا فيه ما يعلم أنه باطل بأدنى نظر وفيلسوفهم الكبير الوحيد ﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر:١٨-٢٥]

وليس هذا موضع ذكر جزئيات القصص إذ المقصود ذكر ما علم بالتواتر من أنهم كانوا من أشد الناس حرصاً ورغبة على إقامة حجة يكذبونه بها حتى كانوا يتعلقون بالنقض مع وجود الفرق فإنه لما نزل : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٨] عارضوه بالمسيح حتى فرق الله تعالى بينهما بقوله :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠١] وقال تعالى : ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا

بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف:٥٧-٥٨] فمن عارضوا خبره بمثل هذا كيف لا يدعون معارضة القرآن وهم لا يقدرون على ذلك وقوله (**وما تعبدون**) خطاب للمشركين لم يدخل فيه أهل الكتاب ولا تناول اللفظ المسيح كما يظنه ظان من الظانين بل هم عارضوه بالمسيح من باب القياس يقولون إذا كانت الأنبياء من حصب جهنم لأنها معبودة كذلك المسيح وهذا كما قال تعالى : : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا ﴾ فإنهم جعلوه مثلاً لآلهتهم و لم يوردوه لشمول اللفظ كما يظن ذلك بعض المصنفين في الأصول .

ولهذا بين الله الفرق بين المسيح وبين آلهتهم بأن المسيح عبد الله يستحق الثواب ولا يظلم بذنب غيره بخلاف الحجارة وإن في جعلهم من الأنبياء حصب جهنم إهانة له بذلك من غير ظلم .

ثم انتشرت دعوته في أرض العرب ثم في سائر الأرض إلى هذا الوقت وآيات التحدي قائمة متلوة وما قدر أحد أن يعارضه بما يظن أنه مثل .

لوما جاء مسيلمة ونحوه بما أتوا به يزعمون أنهم أتوا بمثله كان ما أتوا به من المضاحك التي لا تحتاج للمعرفة بانتفاء مماثلها إلى نظر وذلك كمن جاء إلى الرجل الفارس الشجاع ذي اللامة التامة فأراد أن يبارزه بصورة مصورة ربطها على الفرس . كقول مسيلمة: يا ضفدع بنت ضفدعين كم تنقنقين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين رأسك في الماء وذنبك في الطين .

وقوله أيضاً الفيل وما أدراك ما الفيل له زلوم طويل إن ذلك من خلق ربنا الجليل وأمثال ذلك .

ولهذا لما قدم وفد بني حنيفة على أبي بكر وسألهم أن يقرأوا له شيئاً من قرآن مسيلمة فاستعفوه فأبى أن يعفيهم حتى قرأوا شيئاً من هذا فقال لهم الصديق ويحكم أن يذهب بعقولكم إن هذا كلام لم يخرج من إل أي من رب

فاستفهم استفهام المنكر عليهم لفرط التباين وعدم الالتباس وظهور الافتراء على هذا الكلام وإن الله سبحانه وتعالى لا يتكلم بمثل هذا الهذيان .

وأما الطرق فكثيرة جداً متنوعة من وجوه وليس كما يظنه بعض الناس وإن معجزته من جهة صرف الدواعي عن معارضته وقول بعضهم إنه من جهة فصاحته وقول بعضهم من جهة إخباره بالغيوب إلى أمثال ذلك فإن كلا من الناظرين قد يرى وجه الإحجار وقد يريد الحجر وإن لم ير غيره ذلك الوجه واستيعاب الوجوه ليس هو مما يتسع له شرح هذه العقيدة .

فصل

[التصديق بما أخبر به النبي ﷺ من الأمور الغيبية]

(قال المصنف) ثم نقول كل ما أخبر به محمد ﷺ من عذاب القبر ومنكر ونكير وغير ذلك من أهوال القيامة والصراط والميزان والشفاعة والجنة والنار فهو حق لأنه ممكن وقد أخبر به الصادق فيلزم صدقه .

والكلام على هذا في فصول :

أحدها :

[الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر]

أن يقال أن هذه العقيدة اشتملت على الكلام في الإيمان بالله سبحانه وبرسله واليوم الآخر ولا ريب أن هذه الأصول الثلاثة هي أصول الإيمان الخبرية العلمية وهي جميعها داخلة في كل ملة وفي إرسال كل رسول فجميع الرسل اتفقت عليها كما اتفقت على أصول الإيمان العملية أيضاً مثل إيجاب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وإيجاب الصدق والعدل وبر الوالدين وتحريم الكذب والظلم والفواحش فإن هذه الأصول الكلية علماً وعملاً هي الأصول التي اتفقت عليها الرسل كلهم والسور التي أنزلها الله تعالى على نبيه عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة التي يقال لها السور المكية تضمنت تقرير هذه الأصول كسورة الأنعام والأعراف وذوات آلر وحم وطس ونحو ذلك والإيمان بالرسل يتضمن الإيمان بالمكتوب وبمن نزل بها من الملائكة وهذه الخمسة هي أصول الإيمان المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة:١٧٧] وفي قوله عز وجل ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء:١٣٦] .

وهي التي أجـــاب بها النبي ﷺ لما جاءه جبريل في صورة أعرابي وسأله عن الإيمان فقال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره والحديث قد أخرجاه في الصحيحين[1] من حديـث أبي هريرة وأخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب[2] وهو مـــن أصـح الأحاديث فتلك الثلاثة تتضمن هذه الخمسة والله تعالى أنـــزل سورة البقـــرة وهي سنام القرآن وجمع فيها معالم الدين وأصوله وفروعه إلى أمثال ذلـك فإن النظر فيها وجه من وجوه الإيجاب . ولما ذكر في أولها أصناف الخلق وهـــم ثلاثة مؤمن وكافر ومنافق أخذ بعد ذلك يقرر أصول الدين فقرر هذه الأصول الثلاثة الإيمان بالله ثم الرسالة ثم اليوم الآخر فإنه أنزل أربع آيات في المؤمنـــين وآيتين في صفة الكافرين وبضعة عشرة آية في صفة المنافقين ثم قـــال تعـــالى تقريـــراً للنـــبي ﷺ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة:٢١] إلى قولــه تعالى : (بسورة من مثله) فإنه ذكر التحدي هكـــذا في غير موضع من القرآن .

الفصل الثاني :

[الكـــلام حـــول مسائل مـــا بعد الموت]

إن مسائل ما بعد الموت ونحو ذلك، الأشعري وأتباعه ومن وافقهم مـــن أهـــل المذاهب الأربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبليـــة يســـمونها السمعيات بخلاف باب الصفات والقدر وذلك بناء على أصلين .

(أحدهما) أن هذه لا تعلم إلا بالسمع . (والثاني) أن ما قبلـــها يعلـــم بالعقل وكثير منهم أو أكثرهم يضم إلى ذلك أصلاً آخر وهو أن الســـمع لا

[1] رواه البخاري برقم ٥٠ ، ومسلم برقم ٩ عن أبي هريرة ﷺ

[2] رواه مسلم برقم ٨ .

يعلم صحته إلا بتلك الأصول التي يسمونها بالعقليات مثل إثبات حدوث العالم ونحو ذلك .

وأما محققوهم فيقولون أن العلم بحدوث العالم ليس من الأصول التي تتوقف صحة السمع عليها بل يمكن العلم بصحة السمع ثم يعلم بالسمع خلق السموات والأرض ونحو ذلك . وأما الأصلان الأولان فنازعهم فيها طوائف مثل أمر المعاد فإنه قد ذهب طوائف إلى أنه يعلم بالعقل أيضاً وهذا قاله طوائف من المعتزلة ومن غير المعتزلة أيضاً من أتباع الأئمة الأربعة حتى من أصحاب أحمد كابن عقيل وغيره والفلاسفة الإلاهيون يثبتون معاد النفوس بالعقل وقد وافقهم على إثبات معاد الأرواح بالعقل طوائف من أهل الكلام والتصوف وغيرهم وإن كان هؤلاء يثبتون معاد الأبدان أيضاً إما بالسمع وإما بالعقل .

(فالمقصود) أن العقل عندهم قد يعلم به إما معاد الأرواح وإما المعاد مطلقاً . وأما إنكار الفلاسفة لمعاد الأبدان مما اتفق أهل الملل على إبطاله .

الفصل الثالث :

[الخلاف حول معاد الأبدان]

أن من انتسب منهم إلى الملل من المسلمين واليهود والنصارى هم مضطربون في ما جاءت به الأنبياء في المعاد فالمحققون منهم يعلمون أن حججهم على قدم العالم ونفي معاد الأبدان ضعيفة فيقبلون من الرسل ما جاءوا به ومنهم قوم واقفة متحيرون لتعارض الأدلة وتكافئها عندهم ومنهم قوم أصروا على التكذيب ثم زعموا أن ما جاءت به الرسل هو أمثال مضروبة لتفهم المعاد الروحاني وهؤلاء إذا حقق عليهم الأمر صرحوا بأن الرسل تكذب لمصلحة العالم وإذا حسنوا العبارة قالوا إنهم يخيلون الحقائق في أمثال خيالية وقالوا إن خاصة النبوة تخييل الحقائق للمخاطبين وأنه لا يمكن خطاب الجمهور إلا بهذا الطريق كما يزعم ذلك الفارابي وأمثاله مع أن الفارابي له في معاد

الأرواح ثلاثة أقوال متناقضة تارة يقول لا تعاد وينكر المعاد بالكلية وتارة يقول إنها تعاد وتارة يفرق بين الأنفس العالمة والجاهلة فيقر بمعاد العالمة دون الجاهلة ولهم في تفصيل النبي على الفيلسوف أو بالعكس نزاع فعقلاءهم كابن سينا وأمثاله يفضل النبي على الفيلسوف وأما غلاتهم فيفضلون الفيلسوف ولا ريب أن أوليهم ليس لهم في النبوات كلام محصل وكلامهم في الإلاهيات قليل وإنما توسع القوم في الأمور الطبيعية والرياضية ومصنفات معلمهم الأول أرسطو عامتها من ذلك والذي فيها من الإلهيات أمر في غاية القلة مع اضطرابه وتناقضه . فإذا عرف ذلك فما جاء به السمع من أمر المعاد قرره عليهم النظار بطريقين :

(أحدهما) ببيان الكلام الصريح في إثبات معاد الأبدان وتفاصيل ذلك (والثاني) أن العلم بأن الرسل جاءت بذلك علم ضروري فإن كل من سمع القرآن والأحاديث المتواترة وتفسير الصحابة والتابعين لذلك علم بالاضطرار أن الرسول ﷺ أخبر بمعاد الأبدان وأن القدح في ذلك كالقدح في أنه جاء بالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان وحج البيت العتيق ونحو ذلك والقرامطة الباطنية ــ وهم من الفلاسفة ــ أنكروا هذا وهذا وزعموا أن هذه كلها رموز وإشارات إلى علوم باطنة كما يقولون إن الصلاة معرفة أسرارنا والصيام كتمان أسرارنا والحج زيارة شيوخنا المقدسين ونحو ذلك مما هو مذكور في الكتب المؤلفة في كشف أسرارهم وهتك أستارهم ولهؤلاء القرامطة صنفت رسائل إخوان الصفا وهم الذي يقال لهم الإسماعيلية لانتسابهم إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر .

(**قال ابن سينا**): كان أبي وأخي من أهل دعوتهم ولهذا اشتغلت بالفلسفة وأما الفلاسفة الذين لم يدخلوا في القرمطة المحضة فهم لا ينكرون العبادات والشرائع العملية بل قد يوجبون اتباعها والعمل بها لا سيما من دخل منهم في

التصوف أو الكلام لكن منهم من يوجب اتباعها على العامة دون الخاصة أو يوجبها من غير الوجه الذي أوجبها الرسول كما يجوزون أن يكون بعد محمد ﷺ من يأتي بشريعة أخرى ويقولون إن أحدهم يخاطبه الله سبحانه وتعالى كما خاطب موسى بن عمران ويعرج به كما عرج بالنبي ﷺ وأمثال هذه المقالات التي كثرت لما ظهرت الفلسفة التي أفسدت طوائف من أهل التصوف والكلام

الفصل الرابع :

[ثبوت ما أخبر به الرسول ﷺ كعذاب القبر والصراط والشفاعة]

إنه إذا ثبتت الرسالة ثبت ما أخبر به الرسول مما ينكره بعض أهل البدع كعذاب القبر وسؤال منكر ونكير وكالصراط والشفاعة والحوض ونحو ذلك مما استفاضت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ وقد يستدل عليه بدلائل من القرآن أيضاً لكن ليس التصريح به في القرآن والتصريح بالجنة والنار وقيام القيامة وحشر الخلق ولهذا لم ينكر القيامة ومعاد الأبدان أحد من أهل القبلة وأنكر هذه الأمور التي جاءت بها الأحاديث المستفيضة بل المتواترة عند علماء أهل الحديث طوائف من أهل البدع إما من المعتزلة وإما من الخوارج وإما من غيرها .

الفصل الخامس :

إن هذا المصنف وأمثاله إنما يذكرون الإيمان بالسمعيات على طريق الإجمال وأما العلم بتفصيل ذلك فإنما يعرفه من عرف الأحاديث الصحيحة في هذا الباب وما جاء في ذلك من آيات القرآن الكريم وتفسيرها الثابت عن الصحابة والتابعين ونحوهم .

الفصل السادس :

[صدق الرسول فيما أخبر به عن ربه]

إنه إذا علم أن محمداً ﷺ رسول الله وأن الله تعالى مصدقه في قوله (إني رسول الله إليكم) فالرسول هو المخبر عن المرسل بما أمره أن يخبر به علم بذلك أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى إذ الكاذب فيما يخبر به ليس

برسول في ذلك كما أن الذي لم يرسل بشيء قط هو كاذب في كل ما يخبر به عمن زعم أنه أرسله بالأمر كما قال ﷺ : ((**إذا حدثتكم عن الله فلن أكذب على الله**)) وكما يعلم أنه صادق في قوله (**إني رسول الله إليكم**) يعلم أنه صادق في قوله : إن الله تعالى يقول لكم كذا ويأمركم بكذا فتكذيبه في هذا الخبر المعين كتكذيبه في الأخبار بأصل الرسالة والطرق التي بها يعلم صدقه في المطلق يعلم بها صدقه في المعين وأولى فإن ما دل على الصدق في كل ما يخبر عن الله دل على الصدق في هذا الخبر المعين كالمعجزة وإن المعجزة دلت على صدقة في دعواه ودعواه أني صادق على الله فيما أخبر به عنه لم يدع الصدق عليه في بعض الأمور التي يخبر بها عنه دون بعض بل قال الله فيما أخبر به عنه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦] وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشورى:٢٤] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس:١٥-١٦] وقال تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء:٧٣-٧٤] وقال

تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [الأعراف:١٠٤-١٠٥] .

والرسول الذي يكذب على مرسله مثل الذي يكذب في أصل الرسالة والله تعالى عالم بحقائق الأمور فلا فرق بين إظهار المعجز على يد من يكذب في أصل الرسالة أو يكذب فيما يخبر به عن مرسله .

الفصل السابع :

إنه إذا ثبت صدقه في كل ما يخبر به عن الله تعالى فمما أخبر به عنه: القرآن فإنه قد علم بالاضطرار أنه بلغ القرآن عن الله سبحانه وأخبر أن القرآن كلام الله لا كلامه ومما أخبر به الله في القرآن أن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة وأنه أمر أزواج نبيه عليه الصلاة والسلام أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة وأنه امتن على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

[وجوب تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر به ووجوب اتباعه وطاعته]

(**ومن المعلوم**) أن ما يذكر في بيوت أزواج النبي ﷺ إما القرآن وإما ما يقوله من غير القرآن وذلك هو الحكمة وهو السنة فثبت أن ذلك مما أنزله الله وأمر بذكره . وقد أمر الله تعالى بطاعته في القرآن في آيات كثيرة وقال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠] وقال عز وجل : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم:١-٤] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧] فهذا وأمثاله يبين أن الله عز شأنه أوجب اتباعه فيما يقوله وإن لم يكن من القرآن وأيضاً فرسالته اقتضت صدقه فيما يخبر به عن

الله تعالى من القرآن وغير القرآن فوجب بذلك تصديقه فيمـــا أخبر بـــه وإن لم يكن ذلك من القرآن والله سبحانه أعلم .

والحمد لله والصلاة على خاتم رسل الله محمد وآله وصحبه أجمعين .

فهرس الموضوعات

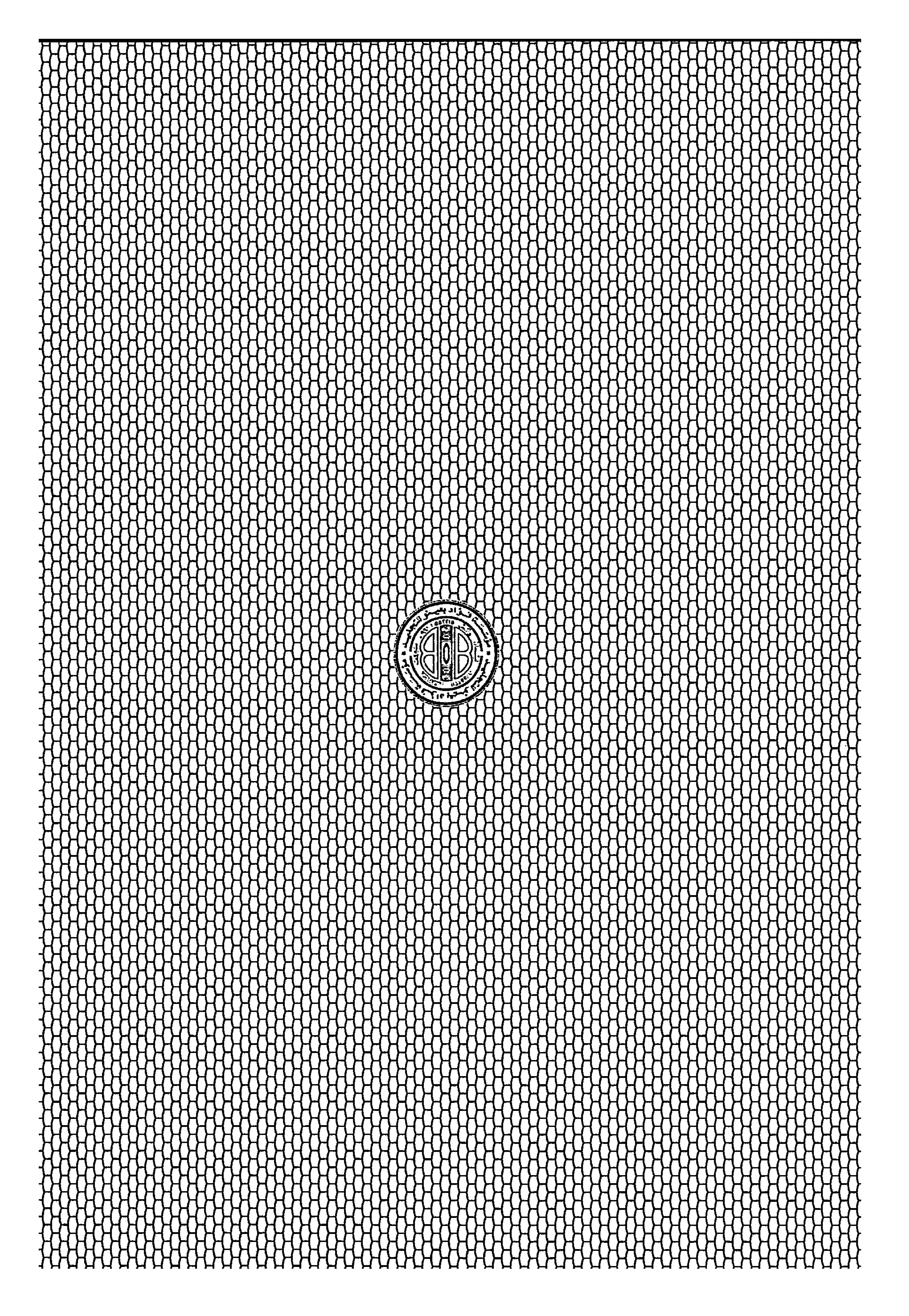
الـــمـــوضـــوع	رقم الصفحة

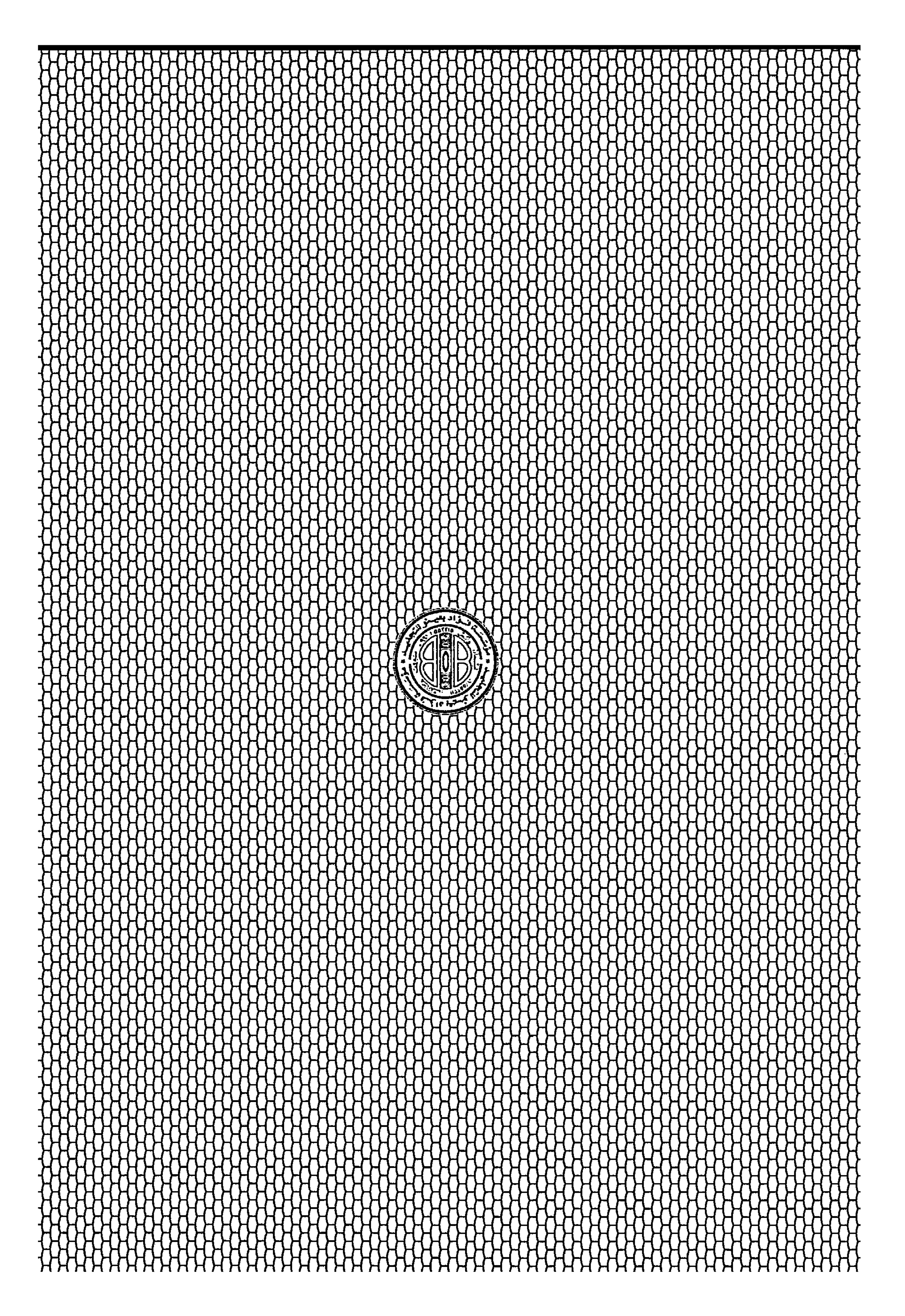
الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة






Bibliotheca Alexandrina
0395231